

الإمام  
الدكتور عبد الحليم محمود



# مَعَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ



دار المعارف

الدكتور  
عبد الحلیم محمود

# في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل

الطبعة الثالثة



دار المعارف

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين..

﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا﴾.

«في رحاب الكون»

من أى زاوية؟

إن الكون مبسوط الرحاب، متعدد الجوانب، ولا يتأق لفرد أو أفراد كثيرين أن يفسروا لنا رحاب الكون في دقائقها، ومن أجل ذلك كان البحث على مر الأيام مستمرا.

وكلما كشف البحث عن بعض القوانين، أو عن بعض الأسرار، كشف ذلك عن مجهولات جديدة.

ومن المعروف أنه كلما زاد التحقق في المعرفة زاد الشعور بضخامة

المجهول: المجهول في السماء، المجهول في البحار، المجهول في الكون،  
الذي لا يحد الخيال نهاياته..

من أى تيار سنتناوله..؟

إننا سنحاول أن نتحدث من الزاوية الروحية، وهذه الزاوية تبدأ منذ أن  
بدأ الأنبياء والرسل.

والحديث عن الأنبياء والرسل طويل مستفيض لا نستطيع أن نلم به؛  
شخصية ورسالة.

ومن أجل ذلك، سنتحدث عنهم على النسق القرآني، وعلى نسق حديث  
رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم.

ولقد اقتصر القرآن الكريم، واقتصرت السنة الشريفة غالباً على  
جوهر الأمور في هذا، وعلى ما فيه العبرة والعظة والتوجيه لبنى الإنسانية.

بيد أن الكون سبق وجود الأنبياء والرسل: متى؟ كيف؟

إن هذه الأسئلة دارت في كثير من الرؤوس، منذ أن وجد الإنسان،  
وأخذ الإنسان يحاول أن يجد لها حلاً.

ولقد تحدثنا عن ذلك في الإطار الذي التزمناه، وهو إطار القرآن  
والسنة. ونحن - إذن - حينما نؤلف هذا الكتاب فإنما نؤلف كتاباً خلا من  
الأساطير التي أغرم بها كثير من المؤلفين، وخلا من المفارقات التي غصت  
بها بعض الكتب التي ألفت في الموضوع.

أما أهمية الموضوع بالنسبة للحديث عن الأنبياء فإنه واضح، وذلك أن الأنبياء هم القمة في الخلق:

الإخلاص، الشجاعة الأدبية، الرحمة، الحرص على الأخذ بيد الآخرين لإنقاذهم من الضلال والخيرة والهموم، الدعوة إلى الأخوة العامة.

وهم القمة في الدعوة إلى الوحدة الإنسانية تحت شعار الأخوة والدين. لقد دعا جميع الأنبياء إلى التوحيد، والتوحيد ثمرة وأساس لدعوة أخرى، هي إسلام الوجه لله، أو هي: الإسلام، الإسلام لله: إسلام القلب له، إسلام الجوارح له، إسلام الكيان الإنساني كله لله..

وهذا الإسلام لله هو الدين، ولن يمارى أحد في صدق هذا المعنى للدين، ومن أجل ذلك كان صدق قضية:

﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ إسلام الوجه لله..

إنها قضية صادقة شرقاً وغرباً، وجنوباً وشمالاً، في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل.

وصدقت بالتالي قضية:

﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾.

إنه من البديهي أن من يأبى إسلام الوجه لله لا يقبل تدينه.. لقد تمرد إبليس على إسلام الوجه لله فكانت نهايته الطرد من الجنة، وبين الله سبحانه أنه لا مثوى في الجنة للمتكبرين، والمتكبر هو الذي لم

يسلم وجهه لله ولأنه لم يسلم وجهه لله، فإنه لا مكان له في الجنة..

فإذا ما كان إسلام الوجه لله، كانت الوحدة الروحية..

إن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾.

وحدة الدين منذ أن وجدت الإنسانية إلى أن يقضى الله في أمرها بما يشاء.

وهذا الكتاب - إذن - يبين كيفية إسلام الوجه لله، ويبين وحدة الدين، ويوضح الخلق الكريم في قمته، فإذا ما أعطى صورة للهداية في جو صادق هو جو الأنبياء، فإنه يكون قد أدى بعض الأهداف التي نرجوها من تأليفه.

وإذا ساعد على الهداية لفرد أو لأفراد، فإنه يكون قد أثمر ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه:

«لأن يهدي الله بك رجلاً.. خير لك من الدنيا وما فيها»

«ولأن يهدي الله بك رجلاً خيراً لك من حمر النعم».

والله الموفق، وإليه يرجع الأمر كله.

الإمام عبد الحليم محمود

## ماقبل الإنسان

إن الإسلام آخر الأديان السماوية نزولاً، فإذا اتجهنا إليه، في نظرة شاملة كلية لنرى فيه الصلة بين الكون وما وراء الكون، أى بين الله والعالم، بين الخالق والمخلوق، بين المكوّن والكون.. فنرى نظرتَه إلى الكون المادى، والكون المحسّ والكون الاجتماعى، والكون الأخلاقى.

ونحن في رحاب الكون نحتاج إلى معرفة زواياه وأركانه، مادية كانت أو روحية، ونحتاج إلى معرفة صلته بما وراءه مما هو فوق الطبيعة.

ونحن في هذه الدراسة سنبتعد كل البعد عن الأساطير والأوهام، ولن نسير وراء الخيال ومتاهاته، وإنما سندرس الأمر من منابعه الأصلية، وهى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة

فإذا ما كنا بصدد آية كريمة فسنلتزم أصح التفاسير، وإذا كنا بصدد حديث شريف فسنلتزم صحة الحديث أو حسنه على الأقل.

ونبدأ أول ما نبدأ من ذلك بالابتداء الطبيعى العادى النظرى: وهو أن هذا الكون لم ينشأ مصادفة، ولم يوجد اعتباطاً، ولم يُكوّن اتفاقاً.

إننا ونحن في رحابه نشاهد الترابط بحيث يمكن أن يقال في يقين جازم:  
إن الكون كله سماواته وأرضه: وما بين السموات والأرض.. إن الكون  
بحاره وأنهاره، جباله ووديانه، نباته وحيوانه.

إن جميع أجزاء الكون تؤلف وحدة متكاملة مترابطة.

هذا التكوين المترابط في ملايين الجزئيات الكونية، في بلايين بلايين هذه  
الجزئيات ينفي في تأكيد مؤكد فكرة الطبيعة العمياء، أو فكرة المصادفة  
والاتفاق..

وإذا انتفت فكرة المصادفة والاتفاق، فإن النتيجة التي تترتب على ذلك  
هي أن للكون مكوناً.

ولعل القارئ يلاحظ مما سبق أننا نبدأ الحديث بمسألة وجود الله  
والاستدلال على هذا الوجود، وأن ترابط الكون هو من الأدلة على وجود  
الله سبحانه وتعالى.

انظر إلى هذا الترابط في قوله تعالى:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ: أَلَمْ صَبَّأْنَا الْمَاءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ  
شَقًّا. فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعَنْبًا وَقَضْبًا، وزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدائقَ غُلْبًا،  
وَفَاكِهَةً وَأَبًّا متاعًا لكم ولأنعامكم﴾ (سورة عبس آية ٢٤-٣٢).

وانظر إلى الترابط بين السماء والأرض، وبين الماء والنبات في قوله  
تعالى:



﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض، ثم  
يخرج به زرعًا مختلفًا ألوانه، ثم يهيج فتراه مصفرًا، ثم يجعله حطامًا، إن  
في ذلك لذكرى لأولى الألباب﴾ (الزمر آية: ٢١).

هذا الترابط: أهو ترابط غائي؟ أي: ترابط هادف.

هذا الترابط بين بلايين أجزاء الكون الذي يعتبر دليلًا باهرًا على وجود  
الله إنما هو ترابط غائي على حد تعبير الفلاسفة، أي: ترابط له غاية، إنه  
ليس مجرد ترابط فقط، بل هو ترابط هادف فيه القصد، وفيه الغاية ومن  
أجل ذلك اعتبر هذا دليلًا على وجود الله، ولقد سمي هذا الدليل أيضًا  
الدليل الغائي، إذ أن كل شيء له غاية، وسمى أيضًا «دليل القصد» وذلك  
أن كل ما في العالم مقصود لادخل للاتفاق فيه، هادف لادخل للمصادفة فيه  
وانظر إلى القصد والغاية في قوله تعالى:

﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من  
فروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل  
زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، ونزلنا من السماء ماء  
مباركًا فأنبثنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد،  
رزقًا للعباد وأحيينا به بلدة ميتًا كذلك الخروج﴾ (ق آية: ٦-١١).

وانظر إلى قوله تعالى:

﴿والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، إن في ذلك

لآية لقوم يسمعون.. وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.. ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون. وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتًا ومن الشجر وما يعرشون، ثم كلّي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللًا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴿ (النحل آية: ٦٥-٦٩).

وشيء آخر.. ما هو؟

- يجول في أذهان بعض الناس، أن هذا الترابط الهادف، وهذا التماسك المقصود، قد تحقق بقوانينه الثابتة، وقواعده التي لا تتغير، وسنته التي لا تتخلف، وأن الله سبحانه وتعالى انتهى منه خلقًا وتديرًا وإحكامًا، فهو يسير الآن على التقدير الذي قدره الله، يسير آليًا إلى الغاية المرسومة، يسير تبعًا لنواميس انتهى الله منها ولا يتدخل سبحانه فيها: أي أن العالم يسير الآن وحده دون إرادة من الله تصاحبه في كل حركة أو سكون، وفي كل نطق أو صمت.

وليس الأمر كذلك، إن النظرة الإسلامية هي أن الله سبحانه يمسك النظام المترابط في كل لحظة وفي كل ثانية، وأنه سبحانه لو تخلف عن شيء منه طرفة عين لتلاشى وفي ذلك يقول سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَلَئِنْ زَالَتْ إِذْ  
أُمْسِكْهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَنِيئًا غَفُورًا﴾ (فاطر آية: ٤١)  
هذه العقيدة تحتاج إلى إيضاح أكثر:

في سورة فاطر نجد الآية الكرّمة  
﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾.

وهو سبحانه الذي يُمْسِكُ الطير في جو السماء، يقول سبحانه:  
﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنْ  
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل آية ٧٩)

ويقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِتٍ وَيَقْبِضْنَ،  
مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ (الملك آية ١٩) وهو  
سبحانه مالك الملك يؤتيه في أية لحظة من يشاء، وينزعه في أية لحظة ممن  
يشاء..

وهو سبحانه الذي يصرف الليل والنهار كلما أسروا فجر وكلما غربت  
شمس..

وهو الذي يَهَبُ الحياة أو يسحبها كلما تنسم كاش الحياة، وكلما هارقتها،  
يقول سبحانه:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ،  
وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ، وَتُزِيلُ مَنْ تَشَاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

تولج الليل في النهار، وتولج النهار في الليل، وتخرج الحي من الميت،  
وتخرج الميت من الحي، وترزق من تشاء بغير حساب ﴿ (آل عمران آية  
٢٦-٢٧).

لعل القارئ الكريم يلاحظ استعمال الفعل المضارع في هذه الآيات  
القرآنية، ودلالة لفعل المصارع إنما هي للحاضر والمستقبل.

والآيات القرآنية من هذا لقليل كثيرة، يقول سبحانه:

﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء، لا إله إلا هو العزيز  
الحكيم ﴾ (إبراهيم آية: ٦).

ويقول سبحانه:

﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته،  
ولتجري الفلك بأمره، ولتستغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (الروم  
آية: ٤٦)

ويقول سبحانه:

﴿ لله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء  
ويجعه كسفاً فمنه ينزل الودق يخرج من خلاله، فإذا أصاب به من يشاء  
من عباده إذا هم يستبشرون. وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من  
قبله لميلسين. فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها، إن  
ذلك للحى ائوتى وهو على كل شيء قدير ﴾ (الروم آية ٤٨-٥٠).

- وما من شك في أن الله خلق وقدر، ووضع لتوأميس، وقعد القواعد،  
ودلك شيء.. وإمساك كل ذلك والقيومية علمه شيء آخر، فمع الخلق  
لإمساك، الإمساك مستمر لا ينتهي، وهذا هو معنى القيومية، وهي من  
صفات الله تعالى، والقيوم اسم من أسمائه سبحانه..

ومعنى القيوم أنه القائم بنفسه، وأنه الذي يقوم به كل موجود حتى أنه  
لا يكون للأشياء وجود ولا دوام وجود إلا به.

أهي قيومية إمساك فحسب؟؟

كلا، إنها قيومية علم، وبديهي قائم على العلم، فضلاً عن كونها قيومية  
إمساك

- إن قيومية الله على العالم هي قيومية إمساك للعالم وإلا لتلاشى، ومن  
هنا كان المعنى العميق للدعاء الذي يدعو به كثير من الصالحين وهو: اللهم  
لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك.

إذ أن الله لو وكل إنساناً إلى نفسه لتلاشى، فهو محسك له مادياً، ولو  
وكله إلى نفسه روحياً لصار مريسة سهلة للنفس الأمارة بالسوء، وللشيطان  
لموسوس بالشر.

وقيومية الله على العالم قيومية عدم محيط شامل، فهو سبحانه كما يقول  
في كتابه ﴿يعلم أسر وأخفى﴾.

أما السر فأمره معروف، وإنما الأخرى من السر فهو ما في دائرة  
اللاشعور.

وهو سبحانه؛

﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور﴾

وهو سبحانه؛

﴿عالم الغيب والشهادة﴾.

﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرحام وما ترداد، وكل  
شيء عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعل. سواء منكم من  
أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾  
(الرعد آية: ٨-١٠).

وعلمه سبحانه ليس مقصوراً على الماضي والحاضر فحسب، ولكنه  
شامل للمستقبل أيضاً، يقول تعالى:

﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من  
قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ (الحديد آية: ٢٢).

وإذا كان الله سبحانه وتعالى أعلن أن علمه عام شامل بقوله:

﴿عالم الغيب والشهادة﴾ إذ أن عالم الغيب هو ما وراء الطبيعة، وعالم  
الشهادة هو الطبيعة فإن الله سبحانه قد فصل الأجواء والجزئيات وبين أنه

يعلم اميسرة والصغير والكبير.

يقول سبحانه:

﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما حرثتم ببهار ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم يسبّحكم بما كنتم تعملون﴾ (الأنعام آية ٥٩-٦٠).

ويقول سبحانه:

﴿يعلم ما يدج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور، وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة، قل بلى، وربى لتأتينكم، عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ (سبا آية: ٢-٣).

أما الأصغر من الدرة الذي ذكره الله سبحانه في الآية لكرامة فلك أن تقول عنه في سهولة ويسر، أنه ابروتون والألكترون، ويكون القرآن بذلك قد أشار إلى تفتيت الذرة من قبل أن تفتت

وهذه قيومة العلم وهي لا تنفك عن قيومة التدبير

إن قيومة التدبير قائمة على قيومة العلم لا تنفك عنها، وهي تلازمها حتى لكانها صفة واحدة.

- وقىومية التدبير هذه بدءاً للحديث فيها ببيان أنها قىومية نعمة، وأن التدبير الإلهى كان ولايرال معنىً بالإسان مدبراً له ما يكفل له الحياة النعيم فى الحياة.

- وأنه سبحانه قد كيف لأمر بعث تتناسب مع الإنسان.

- وإذا كما الآن قد قاصرنا على استعمال كلمات الترابط الهادف، و الترابط الغائى والإمساك والتدبير، فإننا الآن سنستعمل كلمة «العناية».

- إن الله سبحانه معنىً بالعالم، وعنايته بالكون سارية فى جميع أجزائه ودا كانت كلمة العناية لا تخرج بنا عن جو الترابط الهادف والإمساك والتدبير فهى تلون الحديث عن دليل الترابط على وجود الله بلون آخر، ويد تلون هذا الدليل باللون الرحيم الرقيق سعى دليل العناية. وانفرآن عاص بتوجيه الأنظار إلى عناية الله بالكون، وعلى الخصوص بالإسان فى رحاب الكون.

فمن أحسن الإنسان كانت رحمة الله فىضة بالعلم، إنها فىضة بالنعم على الإنسان فى نفسه  
نقول سبحانه:

﴿ألم نجعل له عينين، ولساناً وشفنتين، وهديناه النجدين﴾ (الباء آية. ٨ ١٠).

ويقول سبحانه:

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل



بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴿ (الروم آية: ٢١).

ويقول تعالى:

﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ (الاسراء آية: ٧٠)

ويتحدث الله سبحانه عن نعمة العديدة التي أسداها إلى لسان.  
منعمة الليل والنهار بيّنها الله سبحانه بقوله:

﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون. قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون؟ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ (القصص آية: ٧١-٧٣).

- إن دليل العناية هذا من أجل الأدلة على وجود الله الذي يقول:

﴿لم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (لقمّن آية: ٢٠).

- وسنذكر مسترسلين مع التيار القرآني أقوالاً لبعض الحكماء تؤيد هذا الدليل من حيث الترابط الهادف أو من حيث العناية.

إن عناية الله لسماوية في الكون كله، والتي يلاحظها الإنسان في عينيهِ  
تبصران. وفي أذنيه تسمعان، وفي عمله يدكر وفي لسانه ينطق، إن عناية الله  
لتي يلاحظها الإنسان في كل ما يحيط به ويعمره من نعم الله سقى المصادفة  
والاتفاق.

وإن الرابط المهادف يلغى المصادفة والاتفاق.

وأن القصد الظاهر في نظام الكون يتفنى المصادفة والاتفاق.

ولتحدث الآن عن التركيب، وكيف أنه يرشد إلى الصانع

خذ شيئاً من أسرار الأشياء في تركيبه، حد الفأس مثلاً التي يستعملها  
الفلاح في حقله، أو المعول الذي يستعمله العامل في عمله، إذا مر إنسان  
على لفأس مرأى قطعة من الخشب مدساة مستطيلة قد ثبتت فيها بطريقة  
محكمة قطعة من الحديد على هيئة حاصة، أترأه يظن أن ذلك وليد المصادفة  
البعثة، وإذا كان ذلك الظن لا يأتى في البسير السهل، فإنه من باب أولى  
لا يأتى في المعقد الكثير التركيب كالساعة أو جهاز الراديو مثلاً.

والآن قدر في ذهنك كما يقول المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز:

- بيتاً مسقو البنيان، فاحر الأثاث والرياش، قائماً على جبل مرتفع  
تكتنهما غابه كثفة.. وقدر أن رجلاً جاء إلى هذا لبيت فم يجد فيه ولا  
حوله دياراً ولا ناهج نار.. فحدثته نفسه بأنه عسى أن يكون صخور لجبل  
قد تناثر بعضها، ثم يجمع ما تناثر منها ليأخذ شكل هذا القصر البديع

عما فيه من محادع ومقاصير، وأبهاء، وموافق، وأن تكون أشجار الغابة قد تشفت بنفسها ألواحاً وتركبت أبواباً وسرراً ومقاعد ومناضد، ثم أخذ كل منها مكانه فيه، وأن يكون حيوط الثياب وأصواف الحيوان وأوباره قد تحولت بنفسها أنسجة موشاة، ثم تقطعت طناقص، فابثت في حجراته واستقرت على أرائكه، وأن المصاييح جعلت تهوى إليه بنفسها من كل مكان، فنشبت في سقعه ررات ووحداثاً. ألسن تحكم بأن هذا حلم بائم، أو حديث خرافة. قد أصيب صاحبه باحتلاط في عقله؟ فما ظنك بقصر، السماء سقفه، والأرض قراره، والجبال أعمدته، والنبات زينته، والشمس والقمر والنجوم مصابيحها أيكون في حكم لعقل هون شيئاً من ذلك البيت الصغير؟

أو لا يكون أحق بلفت النظر إلى باري مصوره، حي قيوم، خلق فسوى وقدر فهدى؟

- إن الاستدلال على وجود الله سبحانه بدليل العناية قديم قدم الإنسانية نفسها.. فكل إنسان يشعر بأنه مغفور بنعم الله سبحانه في دخل نفسه، وفي خارجها ويقول الله تعالى معبراً عن حقيقة يلاحظها كل إنسان بتدبير يسير:

﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ (إبراهيم آية ٣٤)

ويقول أيضاً:

﴿وأوسع عليكم نعمه ظهرة وباطنة﴾ (لقمان آية ٢٠).

بهذا الدليل نفسه يقيم أحد الحكماء، المحجة على أحد المنكرين لوجود الله كان ذلك في العصر اليوناني، وكان المنكر هو أرسطو ديموس وهو غير أرسطو الشهير وحرى الحديث بينه وبين سقراط، أبي الفلاسفة على النحو التالي:

قال سقراط: أي الناس من يحبك براعته في لصنائع؟ قال: نعم! وسمى من الشعراء والمصورين ممن كان يعدده أبرع من غيره.

فقال سقراط: أيها عندك أرفع شأنًا؟ من يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل، أم من يصور لأشباح الحياة المتحركة؟

فقال: من يصنع الصورة الحية، اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل الاتفاق، لا من عمل العقل.

قال سقراط: إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها، وأشياء أخرى بيّنة القصد والمنفعة، فما قولك في تلك الأشياء؟ ما هي التي عندك من فعل لعقل وما هي التي عندك من فعل الاتفاق؟

قال: لاشك أن ماظهر فصدده وسبقته من فعل العقل.

قال سقراط: أو سبب ترى أن صانع لإنسان في أول نشأته جعل له آلات الحس لما في تلك الآلات من المنفعة الظاهرة، فأعطاه البصر والأذنين ليبصر ويسمع ما يكون لعبه نافعًا صادقًا؟ وما فائدة الروائح لو لم تكن

لك أنوف شمها؟ وكيف ندرك المطعم ونفرق بين المر والحلو والمر، ولم يكن لما لسان، فنذوق به؟

إن بصريا معرض للأفات، أو لىس يرى كيف اعتنت القدرة الإلهية بذلك فجعت لأحفان كالأبواب لتمنع ما يصيب البصر، وجُعت لأهداب كالمناخل لتقيها من أضرار الرياح؟

وما قولك فى آية السمع وهى تقبل جميع الاصوات ولا تبنى أبدا؟ أما رأيت الحيوانات وكيف رتبت أسنانها المقدمة وأعدت لقطع الأشياء فتقيها إلى الأضرار فتدقها دقا؟

عإذا تأملت فى ترتيب ذلك يمكنك أن تشك: هل هى من فعل الاتفاق أم هى من فعل العقل؟

قال أرسطو ديموس نعم إذا تفكرنا فى ذلك قايما نؤس أنها من فعل صانع حكيم، كثير العناية بمصنوعاته.

نحدثنا من قبل عن المصادفة ولكننا لم ننته منها بعد:

- متى أقامت المصادفة قصرا؟ بل متى كونت غرفة واحدة بيابها ورافذها؟ بل ومتى كونت بابا، مجرد باب محكم الصنع؟

أرأيت لو جاء نسان بألاف من حروف الطباعة، أو بملايين منها وأخذ يحركها يوما بعد يوم، وأسبوعا بعد أسبوع، وستة بعد ستة، أترأه يظفر منها

- مصادفة بتركيب لها هو كتاب من كتب الأدب أو الفلسفة أو  
الرياضة؟

- إنه كما يقول المستشرق «سانلانا» لو دام على تحريكها السنين  
والدهور لما حصل من كُتّه إلا على حروف.

- وإذا كان الأمر كذلك فكيف يتصور - كما يقول سانلانا أيضًا -  
حدوث هذا الوجود (العالم) بما هو عليه من الإلتقان والإحكام، وتضافر  
الأجزاء، وعجيب مناسباتها بعضها لبعض، من حركات اتفافية في حلاء  
لا نهاية له كما يقول الماديون.

وما من شك في أن أصحاب العموم المتزنة يتفقون مع أرسطو في قوله  
من أن كل نظام يدل على العقل.

أما الكندي الفيلسوف العربي الذي كان أول فيلسوف نشأ في  
الإسلام والذي ولد سنة ١٨٥ هـ ومات سنة ٢٥٢ هـ فإنه يرى:

- أن الصفة في باب أو سرير أو كرسي عما يظهر فيها من تأييد  
ومريب متقن محكم ليست دل على الصانع من دلالة الكون عليه سبحانه،  
إن دوى العقول الصافية لا يشكون في ذلك، إنما إذا نظرنا إلى هذا العالم  
في حيلته - كما يقول الكندي - وجدناه مترابطًا مقدرًا على النحو الأنعم  
الأحكم ووجدنا بعضه علة لكون بعض، وبعضه مصححة للبعض، وكل ذلك  
ظاهر لمن كان في مرتبه إدراك الصورة العامة.

- ويقول الكندي أيضًا:

- إن في الظواهر والمظاهر التي تبدو للحوس لأوضح الدلالة على تدبير مدبر أول.

فإن في نظم هذا العالم وترتيبه، وفعل بعضه في بعض، وانفيد بعضه لبعض، وتسخير بعضه لبعض، وإتقان هيئته على الوجه الأصلح في كون كل كائن وفساد كل فاسد، وثبت كل ثابت، وزوال كل زائل. لأعظم دلالة على أنقن تدبير، ومع كل تدبير مدبر، وعلى أحكم حكمة، ومع كل حكمة حكيم، وذلك أن افتضاء التدبير للمدبر، والحكمة للحكيم أمر لا يختلف فيه اثنان.

إن هذ الهج الاستدلالي الذي سرنا عليه للآن هو النهج الذي يقول فيه «كنت» فيلسوف «ألمانيا الأكبر»:

إنه أوضح الأدلة وأقواها على وجود الله، وهو هج قرآني، سلامي، بيد أن في الإسلام نهجًا آخر في موضوع وجود الله سبحانه وتعالى.

إن دليل لقصد، أو دليل العناية، أو دليل الترابط الذي سبق أن تحدثنا عنه بلوانه المتعددة لا يعدو أن يكون دليلًا واحدًا يسمى باسم اللون الغالب الذي يظهر فيه.

وهو لا يعدو أيضًا أن يكون دليل الأثر على المؤثر، ودلالة الأثر على المؤثر دلالة سهلة واضحة.

وإذا كان أثر القدم يدل على المسير كما قال الأعرابي قديماً: فإن سماء  
دات أبراج، وأرضاً ذات هجاج يدلان - لا ريب - على الحكيم الخبير.  
وهذا النهج من وضع «وجود الله» موضع الاستدلال ليس هو النهج  
الوحيد في الجور الإسلامي.

وذلك أن الله سبحانه وتعالى في أعراف المؤمنين ظاهر ظهوراً واضحاً،  
إنه أظهر من كل ما سواه، إن المؤثر في أعراف المؤمنين أظهر من الأثر،  
والخالق أوضح من المخلوق، والمكون أجلى من الكون.. وإن من أسماء الله  
اسم: الظاهر.

ويتفعل الإمام الكبير، إمام لشريعة والحقيقة تاج الدين بن عطاء  
الله السكندري مع هذا المعنى فيقول - متمسكاً في التعبير والمعنى - جملة من  
التعبيرات تتحد ألقاظها إلا لفظاً واحداً أو لفظين فيتغير المعنى بسبب ذلك  
ويكون للعبارات في مجموعها معنى لطيف، إنه يقول:

- كيف يتصور أن يحجب شيء، وهو الذي أظهر كل شيء..

كيف يتصور أن يحجب شيء، وهو الظاهر قبل وجود كل شيء..

كيف يتصور أن يحجب شيء، وهو أظهر من كل شيء..

- كيف يتصور أن يحجب شيء، وهو أقرب إليك من كل شيء..

كيف يتصور أن يحجب شيء، ولولاه ما كان وجود شيء..



أما عن الاستدلال بالأثر على المؤثر، فإن ابن عطاء الله يقول في  
مناجاته :

إلهي، كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك،  
والمفتقر إلى الله، في كليمه ابن عطاء الله، هو الكون كله، هو هذه الآثار  
كلها في وجودها، وفي ارتباطها، وفي إمساكها، وفي العناية بها.  
وسابع بن عطاء الله مناجاته فيقول متحها إلى الله :  
أليكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى  
غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟

- ومضى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟  
هل هد نهج انتهجه ابن عطاء الله مبتدعاً به، محترعاً له؟ أم أنه نهج  
عام تتبعه طائفة كبيرة؟

• إن ابن عطاء الله السكندري صاحب كتب «الحكم» وهو الكتاب  
الذي قال فيه الشيخ محمد عبده :

كاد «الحكم» أن يكون قرآنًا.. إن ابن عطاء الله السكندري هذا  
لم يكن صاحب فكرة ظهور الله ظهوراً لا يحتاج إلى برهان أو استدلال،  
وإنما كان سائرًا في تيارها، مقرأً له، ومؤيداً.

وقد كان أحد أفراد طائفة من الخاصة، أو خاصة الخاصة، ترى أن

الاستدلال على وجود الله من شأن العمة والجمهور، وليس من شأن الخاصة والصفوة.

- يقول ابن عطاء الله معبراً في ذلك عن رأى الصفوة:

وأرباب الدليل وليرهاى عموم عند أهل لشهود والعيان.

لأن أهل الشهود والعيان قدسوا الحق في ظهوره عن أن يحتاج إلى دليل يدل عليه، وكيف يحتاج إلى دليل من صب الدليل؟

وكيف يكون معروفاً به وهو المعروف له.

وهذه اطائفه ترى أن الدليل على الله هو الله.

ولقد سئل أحد العارفين عن دليل على وجود الله فقال:

- هو الله.

ف قيل له: فما العقل؟

فقال: العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله.

بل يرى هؤلاء الصفوة، أن الله هو الدليل على العالم، فهم يستدلون بالله على وجود العالم، ولا يستدلون بوجود العالم على وجود الله

يقول ابن عطاء الله معبراً عن ذلك:

شتان بين من يستدل به ومن يستدل عليه، المستدل به عرف لحق لأهله

فأثبت الأمر عن وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه،  
وإلا فمى غاب حتى يستدل عليه؟

ومنى بعد حتى تكون الآثار هى لى توصل إليه؟

ومن قبل ابن عطاء الله.. نحدث أيضاً على هذا السبيل العالم الحيل  
الشيخ أبو الحسن الشاذلى، إنه يقول:

وإذا كان من الكائنات ما هو غى بوصوحه عن إقامة دليل فالمكون  
أولى لعنايه عن الدليل منها.

ويقول: وكيف تكون الكائنات مظهرة له وهو الذى أظهرها؟ وكيف  
تكون معرفه له وهو الذى عرفها؟

ويتعجب الشاذلى رضى الله عنه من هؤلاء الذين يتخذون الكائنات  
والكون دليلاً على الله فيقول على الأسس الصوفى:

ومن أعجب العجب أن يكون الكائنات موصلة إليه، فليت شعري هل  
له وجود معه حتى توصل إليه؟ أو هل لها من الوضوح ما ليس له حتى  
تكون هى المظهرة له؟ وهذا هو النهج الصوفى.

ومهما يكن من شىء فإنه سواء سار الأسس على السبيل الصوفى، أو  
على سبيل الاستدلال، فانه موحود، وقد كان سبحانه فى أزل ولا شىء معه،  
ثم خلق الخلق فكيف بدأ ذلك؟

إن أساس في كل زمان ومكان يشاقون إلى معرفه كيفيه خلق العالم، ويكثر تساؤلهم متى وكيف؟ ويريدون تحديدًا محددًا عن الأول من المخلوقات وعما بعده، إنهم يريدون ترتيبًا يكون فيه التعيين والحدود. لقد شغلت هذه المسألة الكثير من الصحابة فأحدوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها، بل إن الوفود كانت تأتيه من بعيد، يدفعها حب الاستطلاع، ويتحشرون السمر من أجل المعرفة، هاهم أولاء ناس من أهل اليمن كما يروى الإمام البخاري رضى الله عنه - يأبسون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون: حثنا سألك عن هذا الأمر، أى أمر الخلق، خلق الكون، لقد جاءوا من اليمن يسألون عن:

- متى وكيف؟

لقد روى الإمام البخاري أيضًا عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال:

قام فينا النبي صلى الله عليه وسلم مقدمًا فآخبرنا عن بدء الخلق، حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه.

ومعنى كلام سيدنا عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخذ يحدث الصحابة عن بدء الخلق متدرجًا مع الترتيب حتى انتهى إلى هاية العالم ومصيره، والبعث والحساب حتى دخل الدين بالتهم رحمة الله الجنة، والذين اكسبوا السيئات عاقبهم الله بما كسب أيديهم فأدخلكم النار.

ولقد روى عن بعض الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبهم في ذلك من العصر إلى أن غربت الشمس، ويبدو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب في ذلك عدة مرات.

فقد روى الإمام مسلم عن أبي زيد الأنصاري قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح فصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى بنا الظهر ثم صعد المنبر فخطبنا، ثم صلى العصر كذلك حتى غابت الشمس فحدثنا بما كان وما هو كائن، فأعلعنا أحفظا.

ولقد روت الأحاديث الصحيحة حملة من القصايا منها ما روى الإمام البخاري عن عمران بن حصين رضى الله عنها وهي إجابة الرسول صلى الله عليه وسلم على سؤال وفد ليمن:

والقضية الأولى من ذلك:

كان الله ولم يكن شيء غيره.

- القضية الثانية:

كان عرشه على الماء.

القضية الثالثة:

أنه سبحانه وتعالى كتب في الذكر كل شيء «أى في محل الذكر، أى اللوح المحفوظ».

#### القضية الرابعة:

أنه تعالى خلق السموات والأرض

القضية الأولى تثبت أنه سبحانه لم يكن - في الأزل - شيء غيره.  
لم يكن الماء، ولم يكن العرش، ولم يكن شيء سواه سبحانه.

أما القضية الثانية: فإنها تدل على أنه سبحانه خلق الماء سابقاً، ثم خلق  
لعرش على الماء.

أما القضية الثالثة: فيفسرها ما ورد في حديث آخر من قول رسول الله  
صلى الله عليه وسلم.

ثم خلق القلم فقال له اكتب ما هو كائن.

وكان خلق السموات والأرض وما فيهن بعد ذلك

لماء والعرش إذن كانا مبدأ هذا العالم لكونها خلقت قبل السموات  
والأرض.

ولنقرأ شيء من لتفصيل في مسألة خلق السموات والأرض.

يقول الله سبحانه:

﴿قُلْ أَنتُمْ كُفْرُونَ﴾ بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له  
أنداداً، ذلك رب العالمين ﴿ فصلت آية ١٩

ثم صورها، شكلها، وحمل فيها رواسي، أى الجبال التى سماها أيضا أوتاداً، وبارك فيها، وقسم أرزاقها، ونظم مصادرها، ومواردها، ورتبها كيفاً فى يومين آخرين، فتكون الأرض مادة، وتنظيمها كماً وكيفاً، قد استغرقت أربعة أيام.

يقول تعالى:

﴿وجعل فيها (أى الأرض) رواسى من فوقها وبرك فيها، وقدر فيها أنواتها، فى أربعة أيام سواء للسانين﴾ (فصلت آية ١٠)

وكلمة «سواء للسانين» معناها أنه سبحانه جعلها مستوية معتدلة مذلة للطالين لرزق، والمعاش. وفى هذا المعنى يقول الله تعالى

﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً، فامشوا فى مناكبها (أى فى أرجائها) وكلوا من رزقه، وإليه النشور﴾. (الملك آية ١٥)

ولعل القارئ الكريم يتساءل عن مقدار اليوم من هذه الأيام؟ والواقع أنه غير معروف، وذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول.

﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ (الحج آية ٤٧)

ويعمل أبصاً عن يوم عروج الملائكة والروح إليه.

﴿تخرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فاصبر صبراً جميلاً﴾ (المعارج آية ٤-٥).

ومن الجائز ان يكون اليوم الذى كان فيه الخلق مثل ذلك أو أقل منه أو أكثر، وكل تحديد فى هذا الموضوع إنما هو ضرب من الخيال.

ومن المعلوم أن أياما هذه لم تكن قد وجدت بعد فلم تكن هناك بعد لدورة اشمسية أو الأرضية أو القمرية.. لأن كل ذلك إنما وجد بعد تكامل الخلق، ولم يكن الخلق إذ ذاك قد تكامل

ثم خلق الله سبحانه سبع سموات، وأوحى فى كل سماء أمرها: نى رتبها كيفاً، ونظمها تديراً، ووضع للسماء الدنيا زينة تتألق وتتلاها هى الكواكب والسحوم.

يقول سبحانه:

﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا. وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فصلت آية: ١٢).

ومن الواضح فى القرآن والأحاديث النبوية الشريفة، أن الكواكب والنجوم ليست سماوات وإنما هى رينة للسماء الدنيا، وهى على سعتها وعلى مساحتها هائلة وما بينها من أبعاد، يذهل الانسان أن يعرف مداها، وعلى الرغم من كل ما يقوله علماء الفلك عن سرعة الضوء، وعلى الرغم من كل ذلك فإن هذه النجوم والكواكب إنما هى رينة السماء الدنيا ومصباح حفظ وهدي، إنها ليست السماء، والسماوات من بعدها.



هذا الخلق المتكامل يتحدث الله عنه سبحانه في هذه الصورة الجميلة من الحديث حيث يقول سبحانه:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا، وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ. وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا، وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جبال وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقاً لعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج﴾ (ق آية: ٦-١١).

ولقد تحدثنا عن الخلق المادى، متى بدأ الخلق الروحى: الخلق الحى: الملائكة والجن والإنسان؟

- كان الله ولا شىء غيره، وكان عرشه على الماء.

متى بدأ خلق الملائكة؟

أكان خلقهم قبل لعرش والماء؟ أم كان بعد العرش والماء؟

أكان خلقهم قبل السموات والأرض؟ أم بعد خلق السموات والأرض؟

إن الأمر المقطوع به هو أن الملائكة كانت قبل خلق آدم، وذلك أن الله سبحانه وتعالى قبل خلقه خاطب الملائكة قائلاً:

﴿إِنِى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

وكانت الأرض إذ ذاك مخلوقة تسطر من يعمرها.

ومن المرحح أن الملائكة خلقت قبل العرش، والماء، وذلك أن الله سبحانه يتحدث عن الملائكة حملة العرش، ومدد العرش تحمله الملائكة فمن اعفون أن تكون الملائكة خلقت قبله لتحمله فور خلقه.

وقد يتساءل إنسان عن الطبيعة الجسمانية للملائكة، وعن عملهم؟  
أما عن طبيعتهم الجسمانية فإن الإمام مسلم يروى عن عائشة رضى الله عنها قالت:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. «خلقت الملائكة من نور».  
أما عن عملهم. فإن الله سبحانه أقامهم في أعمال يقومون بها ويتصرفون فيها بإذنه. فمنهم حملة العرش، ومن الطريف أن حملة العرش مع قيامهم بمهمتهم فإنهم لا يهتزون عن التسبيح بحمد ربهم ويؤمنون به. أى يترقى إيمانهم به في كل لحظة ثم بسبب تسبيحهم بحمده المستمر. ولا ريب أن الذكر سواء أكان من الملائكة، أم من بنى البشر، قد جعله الله سبحانه سبباً في زيادة الإيمان ورقية.

ثم أن حمدة العرش هؤلاء فضلاً عن ذلك يستغفرون للذين آمنوا من بنى البشر ومن غيرهم.

ومن الطريف أنهم يطلبون للمغفرة بأن الله سبحانه قد وسعت

رحمته كل شيء.. ووسع علمه كل شيء.. ويدجأون إلى الله بالدعاء والصراعه طالبين منه المغفرة لكل من تاب واتبع الطريق الذى بينه الله ليسير فيه المؤمنون، ويدجأون إلى الله أيضاً بالصراعه طالبين منه سبحانه أن يحنب التائبين المتبعين لطريق الهدى عذاب جهنم، وأن يدخلهم جنات عدن التى وعدهم، وأن يقبهم السيئات، والآيات القرآنية لى ذكرت ذلك فى غاية الجمال أسلوباً ومعنى.

يقول الله تعالى.

﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم.. وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته، وذلك هو لغور العظيم﴾ (عامر آية. ٧ ٩).

وإذا كيف الانسان ظروفه بحيث جعلها لا معه من ذكر الله ومن الدعاء للمؤمنين فقد تشبه بعمله العرش، وما ذكرت لقصة فى القرآن إلا لتكون مثلاً يحتذى.

أنتك هى أعمال الملائكة فحسب؟ كلا.

إن الله سبحانه وتعالى قد أقام الملائكة فى أعمال يتصرفون فيها

بإذنه وما من شك في أن جميع حركاتهم هي بإذن الله، ولقد روى الإمام  
البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل: ألا ترورنا أكثر مما  
ترورنا؟

قال: فنزلت الآية الكريمة.

﴿وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك  
وما كان ربك نسياً﴾ (مريم آية: ٦٤).

فهم في كل ما يأتون وما يدعون إننا يصدرون عن أمر الله  
ولقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه يرسلهم أحياناً لنصرة المؤمنين في  
الحرب.

إنه يرسلهم أحياناً لتثبيت المؤمنين كما فعل ذلك في غزوة بدر قائلاً:  
﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾.

ويرسلهم أحياناً مدد كما فعل ذلك في غزوة بدر أيضاً، يقول سبحانه:  
﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة، فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ  
تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة  
منزليين. بل إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم  
بخمسة آلاف من الملائكة مسؤمين﴾ (آل عمران آية ١٢٣-١٢٥).

ومعنى مسؤولين: أى لهم سمات وعلامات يعرفون بها.

ولعل لقارئ الكريم قد لاحظ أن من الشروط التى علق الله عليها إرسال الملائكة: الصبر والتقوى.

ومن طريف ما تروى كتب السيرة من عمل الملائكة فى غزوة أحد القصة التى نقلها كما وردت:

دخل حمظله بن أبى عامر على زوجته أول ما دخل بها هوذى بالجهاد فى غزوة أحد من لينته، فحرح مسرعاً إلى المعركة، وظهر ضرورياً من البسالة والشجاعة حتى أتاه سهم مفاجئ فاستشهد، وبعد المعركة قال الرسول صلى الله عليه وسلم.

«لقد رأيت حمظلة بن أبى عامر تغسله للملائكة بماء المزن فى صحاف المضة بين السماء والأرض».

فذهب الصحابة إليه وهو فى القتل فوجدوا شعره يقطر ماءً، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال:

اذهبوا إلى زوجته فاسألوها:

فذهبوا إليها فقالت:

إنه لما سمع الداعى إلى الجهاد خرج مسرعاً وهو جنب، دون أن يفتسل فرجعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال.

من أجل ذلك غسلته الملائكة.

وللملائكة أدوار جميلة منها ما رواه الإمام البحارى

عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

«أحب الله العبد. نادى حبريل، إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه

حبريل، فينادى حبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه

أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض».

ولا يسعنا ونحن نقص بعض الأعمال التى أقام الله سبحانه فيها

الملائكة وأذن لهم فى التصرف فيها إلا أن نقص القصة لتالية لتى رواها

الإمام لبحارى وغيره من كتاب لسنة وكتاب السيرة.

قالت السيدة عائشة لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعص عليها ما لفيه من قومها

مبيناً أن أشد يوم كان يوم العقبة، إذ عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم

رساله على (عبد يابل) وطلب فى لوقت نفسه معاونته على تأدية الرسالة

وتبلغها، فلم يجبه ورده رداً فيه سخرية، وفيه قسوة.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم

فانطلقت وأنا مهموم على وجهى، فلم يستفق إلا وأنا بقرن الثعالب،

(وقرن الثعالب مكان على بعد يوم من مكة) هزعت رأسى فإذا أما بسحابة  
قد أظسى فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فنادانى، فقال:  
إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث لك ملك  
الحبال فلتأمر به شئت فيهم. ثم نادانى ملك الحبال فسلم علىّ، ثم قال:  
يا محمد قد بعثنى الله، إن الله قد سمع قول قومك لك وأما منك الحبال  
قد بعثنى إليك ربك لتأمرنى ما شئت. إن شئت أطبق عليهم الأخشبين،  
(والأخشبار حبلان يشرهان على مكة) فقال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم:

أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً..  
ومن هذا الحديث الصحيح نعلم أن الله قد وكل بالحبال منكاً يطبقها  
حزئياً أو كلياً على من يشاء الله إهلاكه.

أما رد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو فى غاية الروعة..  
لقد أساء إليه قومه بالكثير من وسائل الإساءة فلم يحاول أن يقابل  
السيئة بالسيئة وإنما كان رجاؤه أن يخرج الله منهم ومن أولادهم من يؤمن  
بالله ويوحده ولقد كان صلى الله عليه وسلم يقول فى مواقف كهذه الموقف:

اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون.

وإذا كنا قد ذكرنا هذا الموقف بالذات للرسول صلى الله عليه وسلم،

فلأن هذا الموقف الذي ذكرناه يتمشى مع قوله تعالى:

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾..

ومع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إنما أنا رحمة مهداة».



## الإيمان بالملائكة

إن الإيمان بوجود الملائكة حقيقة واضحة، والإيمان بأن الله وكل إليهم في العالم أدواراً يقومون بها ويصرفون فيها يادته، إن ذلك من أصول الإيمان ومن أجل أنه من أصول الإيمان الإسلامي، نزيد الأمر وضوحاً

عن أبي هريرة رضي الله عنه فيما رواه الإمام البخاري قال:

كان النبي صلى الله عليه وسلم، بارزاً يوماً للناس فأتاه حبريل فقال:

ما الإيمان؟

قال: إيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلغائه ورسله وتؤمن بالبعث.

لقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح

الإيمان بالملائكة جزءاً من الإيمان.

والقرآن الكريم يتحدث عن الملائكة في كثير من سوره وآياته، يقول

تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا، تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا

تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في  
الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴿٣٠﴾ (فصلت آية ٣٠ - ٣١).

إن القرآن الكريم، يرشد في هذه الآفة إلى أن الملائكة مرسل نوراً  
حقيقياً تبشر هؤلاء الدين امسوا وستقاموا بعدم الخوف وعدم الحزن،  
وتبشرهم بالجنة وتؤكد لهم أنها معهم بالمرافقة والرعاية والعناية في الدنيا  
والآخرة وفي هذا المعنى يقول الإمام الغزالي في كتابه لمفد من الضلال عن  
تحرية:

ومن أول الطريق ( لطريق الصوفي) تبندى لمكاشفات والمشهدات  
حتى أنهم في يفظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم  
أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد.

وإذا كانوا يزلون على المؤمنين المستقيمين، فهم من باب أولى يزلون  
على الأنبياء والرسل مبشرين ومؤانسين ومؤيدين.

وهاهو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى حريلاً يقطعه، ومما هو  
معروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتاجى للملائكة، وكان  
لا يأكل البصل والثوم من أجل ذلك يقول ابن خلدون عن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم في ذلك:

«إنه بجبلته يتنزه عن الأطعمة المستكرهة، فقد كان صلى الله عليه  
وسلم لا يقرب لبصل والثوم فليل له في ذلك، فقال - بنى ناسخ من  
لا تتاجون.

ومن الطريف الجميل العريب، ما حدث من محاولة السيدة خديجة رضوان الله عليها في أول بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم، من عمل تجارب على ملائكة لتثبت من أنهم ملائكة حقاً.

لقد أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بإتيان الملك وعرفها بالوحي، وأن الملك يأتيه حتى وهي معه في ليث فقال: أخبرني به حينما يأتي، وأخبرها حينما حضر

فقالت: اجعلني بينك وبين ثوبك، فلم فعل ذلك ذهب عنه.

فقالت: رضوان الله عنها. إنه ملك وليس بشيطان، ومعناه - كما يقول ابن خلدون - أنه لا يقرب النساء.

وكذلك سأله عن أحب الثياب إليه التي يأتيه فيها. فقال: البياض والحضرة فقالت: إنه الملك..

ويقول ابن خلدون في ذلك: يعني أن البياض والحضرة من ألوان الخير والملائكة، والسواد من ألوان الشر والشياطين.

خلق الله الملائكة قبل خلق الإنسان، وعن خلق الإنسان سيبدأ إن شاء الله الحديث.

\*\*\*

تبين مما سبق أن الخلق: الماء والعرش والملائكة والجن والأرض والسماء، كل ذلك كان قبل خلق الإنسان.

إن قصة خلق الإنسان، وما أحاط بها من ظروف فيها عطات وعبر  
يجب ألا نمر عليها غافلين

من قبل الخلق، رحيمًا كن في تقدير لعزير العليم، أن خلق آدم عى  
وشك التحقيق، خاطب الله الملائكة قائلاً:

﴿إني خالق بشرًا من صلصال من حمأ مسنون﴾.

وبين لهم وظيفته وعمله فقال سبحانه:

﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾.

لقد أخبرهم الله بذلك، كما يعنى عن الأمر العظيم قبل حدوثه.

وما من شك في أن خلق الإنسان أمر هائل وحدث ضخم، له حكمته  
ولم يكن الملائكة يتوقعون ذلك، ولم يكونوا ينتظرونه، إهم كانوا يرون أنهم  
يسبحون لله ويعبدونه لا يفترون، وأنهم لا يعصونه سبحانه فيها أمرهم،  
ويقولون ما يؤمرون. ولم يدركوا بخلدهم أن الكون دون الإنسان كان ناقصاً،  
وأنه لابد لكماله من وجود الإنسان.

ولقد نبهتهم كلمة.. من صلصال من حمأ مسنون-والصلصال هو الطين  
واحماً هو المتعمر منه الشديد السواد من طول محاورته للماء، والمسنون هو  
المصور، أو المصبوب منه مثل الجواهر المداية تصب في القوالب.. ونبهتهم  
أيضاً كلمة (في الأرض) إلى طبيعته هذا الكائن الذى يوشك الله سبحانه أن  
يحقق وجوده. لقد نبهتهم هذه الكلمات إلى أن طبيعة هذا الكائن ومطرته

ليست نوراً بحثاً كطبيعتهم وفطرته

وما من شك في أنهم عرفوا بصورة سهلة أن هذا الكائن يمكنه - بجهد  
مواصل - لتغلب على الطبيعة الطيبة فيسمو في مارل الأرواح، بيد أنه  
في الأكثر الأعم، ستغلب هذه الطبيعة فتتزل به إلى مستوى تتفاوت درجاته  
ويكنه مستوى دون مستوى الملائكة.

وتصور الملائكة ما سيحدث من هذه المستويات التي تغلبت عليها  
الطبيعة الطيبة من تنافس غير شريف، ومن ناسخ وتعارض فقالوا سائلين  
عن وجه الحكمة مستعصرين عما عرب عنهم من حكمة الله لا معترضين  
ولا مخنحين:

﴿أجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟﴾.

ثم بينوا من طبيعتهم ما الله أعلم به قائلين:

﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾.

أي أنا سزهدك، وبحمدك، ونقدسك على أن يعصيك ما أوحى.

علم يوضح سبحانه وتعالى لهم الحكمة في خلق الإنسان، وأحر سبحانه  
قوله الحاسم الذي سيفهمهم إياه بطريق عملي، وإنما أجاهم سبحانه بقوله  
الحاسم الذي يسد الطريق أمام كل تساؤل:

﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾.

## آدم

عليه السلام

لقد فاجأ الله الملائكة باعلان خلق آدم، ثم فاجأهم بأمر اخر لم يكونوا يتوقعونه أيضاً وذلك بأن أمرهم بالسجود لآدم فور خلقه.

﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾.

وكان الملائكة أمام أمر صريح من الله لهم بالسجود وكان هذا الأمر معللاً واصحة أسبابه عند ذوى النصائر النورانية فما دم الله سبحانه قد سواه بيديه، وما دام الله سبحانه قد نفخ فيه من روحه، فإنه كائن لا شك شريف بقدر كان الأمر بالسجود معللاً مسبباً..

وهب أنه لم يكن معللاً ولا مسبباً، وكان الأمر من الله مجرداً عن ذكر لأسباب والعلل ماذا كتب نطق الملائكة فاعلین ؟

إن طبيعتهم النورانية، وتقديسهم لله سبحانه تقديساً تاماً يفرضان عليهم، في صورة اتباعية تلقائية، استجابة الأمر الإلهي..

ومن أجل كل ذلك كانت الاستجابة من الملائكة فورية..  
﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾.

وكان مختلطاً بهم من يعبد الله على حرف - وهو إبليس - كان يعبد سبحانه في زهو وخيلاء، في حجر ركيزاء، وينتظر من وراء ذلك مدحاً وتكريماً، ولم تكن عبادته حالصة لوجه الله وإنما كانت مراعاة ومباهاة.  
فما صدر لأمر الإلهي وكان عاماً لجميع الموجودين، لم يسجد وخاف الأمر مع علمه بأن الأمر يشمله، بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾.

وهذه الآية الكريمة تبين في صراحة صريحة أن إبليس كان من الجن وأن الأمر كان له أيضاً لأنه أمر للجميع. وأنه فهم أن الأمر له، ولكنه فسق عن أمر ربه، أي خرج عن أمره سبحانه بترك السجود يقول الإمام البيضاوي في تفسير هذه الآية:

«وهيه دليل على أن الملك لا يعصى أبته، وإنما عصى إبليس لأنه كان حنياً في أصله».

ولا بد لنا من وقفة عند هذا الموضوع:

إن سيدنا موسى عليه السلام جتمع بأبينا آدم عليه السلام في الملأ الأعلى فكان من حديثه معه:

«أنت آدم أبو البشر الذى خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه،  
وأسجد لك ملائكته».

وهذه الكلمات التى هى تمجيد لآدم ذكرت فى حديث آخر فقد ذكر  
الشيخان، البخارى ومسلم عن أس بن مالك، عن رسول الله صلى الله  
عليه وسلم قال:

يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا بلى ربنا، فيأتون آدم  
فيقولون له فيما يقولون:

أنت أبو البشر خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته.

ولقد فهم الجميع أن هذه الأوصاف كلها تشرىف لآدم عليه السلام وهى  
كذلك فعلا ولكنها أيضا تشرىف للجس البشري كله فى صورة آدم، فهذه  
النقطة الإلهية فى أبينا آدم هى نفخة فى كل دريته، إن كل فرد من أفراد  
دريه آدم فيه من هذه النقطة الإلهية نصيب.. إن فىنا جميعا نفخة من روح  
الله:

وسعود الملائكة إدى لم يكن سجودا لحسم آدم الذى هو من طين، وإنما  
كان سجودا:

١ - ليديع صنع الله سبحانه..

٢ - ولهذا القبس من روح الله فى آدم.

٣ - وللأمر الإلهى الصريح لهم بالسجود..



وسجودهم إنما كان - إذن - لله سبحانه، وسجود الله دائما تشریف  
للساجد لقد سجد الملائكة ولم يسجد إبليس..  
ما مفزى ذلك؟

لقد سجدت الملائكة ولم يسجد إبليس، ويعبر الله سبحانه عن ذلك  
بقوله

﴿إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾..

ويبين الله سبحانه السبب الأصيل لعدم سجوده فيقول:  
﴿إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين﴾.

أما التعللة الكادية التي تعلل بها إبليس، وأما المنطق المزيف الذي توهم  
إبليس أنه عار له في عدم السجود فهو قوله:  
﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾.

ونقول : إنه منطوق مريف، لأن إبليس جعل مناط الخيرية للمادة والجسم  
مع أنها في أبسط مبادئ العقول ترجع إلى الروح التي هي النفخة الإلهية  
لا إلى المادة التي لا قيمة لها في موازين الخير.

وهذه القصة التي نمر عليها فلا نكاد نعبرها التفاتا، حديرة بالتأمل  
والاعتبار..

والقضايا التي نريد أن نذكرها عظه واعتبارا، وهي في نفس الوقت  
ذات دلالات عميقة: هي ما يلي:

١ - لقد صدر أمر إلهي بالسجود، واستجاب له طائفة، فنعوا  
برضوان الله، وشذ فرد، فطرد من رحمته سبحانه..

٢ - انه طرد، لانه لم يستجب للامر الالهي مع علمه بأنه أمر إلهي

٣ - كن عدم استجابته ناشئا عن كبرياء في نفسه، وعن تمرد في  
فطرته.

٤ - لم تلغ عبادته كبرياءه، فهي اذن لم تكن خضوعا، لأنها لو كانت  
خضوعا، لنفت الكبرياء وأرالتها، انها اذن لم تكن عبادة بالمعنى الصحيح  
لأن العبادة والكبرياء لا يجتمعان.

هذه الكبرياء كما قمشت في مخالفة الامر الالهي، قمشت في المحاولة التي  
أراد هذا المتمرّد أن يبرر بها موقفه مستندا بمطلقه وعقله فائلا.

﴿أنا خير منه خلقتني من نر وخلقته من طين﴾.

ولم يكن هذا لا مطلقا هو، ومطلق الكبرياء، فسجوده لأدم ليس  
عبادة له وإنما هو عبادة لله لأنه خضوع لأمر الله، وحسب

٦ - والمعري لما سبق وهو ما يرشد إليه روح القصة، بن وتعبيرها، إنه  
عند الأمر الإلهي، يجب أن تكون الاستجابة فورية، وربما كان هذا هو  
ما مرشدنا إليه في صراحه كلمة: إدا في قوله تعالى ﴿وما منعك أن  
لا تسجد إذ أمرتك﴾..

وهذه الفورية طعنا هي في كل أمر بما يناسب وضعه الرمائي والكمائي

٧ - والقضية التي تختتم بها هذه القصايا، أو هذه المفاهيم المستنبجة من القصة هي : أن الله إذا كن قد أمر الملائكة والجن بالسجود للإنسان الأول فليس معنى ذلك إلا لتصریح لصريح بأن طبيعة هذا لإنسان فيها الاستعداد الكافي للرقى من مدارج السمو الروحى، درجة قدرحة، حتى نسمو على الملائكة وعلى الجن، ولا معنى إذن بعد هذا لأمر الإلهى للملائكة والجن بالسجود للإنسان لأن يختلف علماء الإسلام فى المفاضلة بين الإنسان والملاك فإن الفيوضات الإلهية على الإنسان لا تنتهى إلى حد : « ما وسعى أرضى ولا سمائى، ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن ».

وباب الفيوضات لإلهية مفصوح على مصراعيه، وانقرب منه ميسور وإذا ما سعد لإنسان لله، رفعه الله إليه، وقربه منه وغمره برصوانه.

إن المبدأ الهام لذى تريد أن يجعله كل مؤمن نصب عينيه هو الإيمان ليس معرفة وحسب : ذلك أن إبليس كن يعرف أن الله موحد وقد عرف فيها بعد أنه أرسل نوحًا وإبراهيم ومحمدًا عليهم الصلاة والسلام.. أنه يعرف أن لا إله إلا الله، ويعرف أن محمدًا رسول لله ويعرف أن عيسى وموسى وبقية الأنبياء رسل الله، ومعرفة بهذه المسائل هي من لفوة والثبات بحيث تزيد على معرفة كثير من المؤمنين..

ولكنه مع ذلك مطرود من رحمته الله : ذلك أن الإيمان ليس معرفة فحسب، إنما خشوع واستجابة : إنه سجد، فإذا لم يثب السجود فلا إيمان. يشهد لذلك قوله تعالى :

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضت ويسلموا تسليماً﴾. (النساء آية: ٦٥).

لقد كان سعيد بن جبير رضى الله عنه يقول:

ما آسى على شيء من الدنيا إلا على السجود.

أما على بن عبد الله بن عباس ، فقد كانوا يسمونه «السُّحَّاد» لكثرة سجوده . وقد كان يكثر من السجود - كما هو المتبادر إلى الذهن ليكون على النقيض من إبليس.

وما من شك في أن السجود بهذه الحقيقى - أى سجود القلب والجوارح لله تعالى - إنما هو استجابة لله سبحانه وحضور له وهو هذا المعنى يقود الإنسان إلى الجنة..

يروى الإمام مسلم، رضى الله عنه، في صحيحه، عن أبي هريرة ربيع ابن كعب الأسدي خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أهل الصفة - رضى الله عنه - قال:

كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتته بوضوئه وحاجته فقال: سلني فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة. فقال: أو غير ذلك قلت: هو ذلك.. قال «أعني على نفسك بكثرة السجود».

والسجود إذر. مما يعين على ترويض النفس لتتركى. وهو بذلك من الوسائل التي توصل إلى الجنة..

وفي هذا المعنى يروى الإمام مسلم أيضاً عن أبي عبد الرحمن  
ابن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول، عليك بكثرة السجود  
فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك بها درجة، وحط عنك بها خطيئة.

والسجود الذي يريد رسول الله، صلوات الله عليه، والذي ورد في هذه  
الأحاديث ليس هو بمجرد الحركة المعروفة، وإنما هو - مع هذه الحركة  
المعنى العميق في النفس الذي يتمثل فيه جلال الله وعظمته، ورحمته وودده،  
ويتمثل فيه الخضوع لهذا الجلال، وهذه العظمة، والانقياد المطلق لرحمة الله  
التي تتمثل في الرسالة الإسلامية. أوامرها ونواهيها.

فإذا ما كان السجود تعبيراً عن النظام والتذلل لله سبحانه وتعالى،  
وذلك هو معناه الصحيح، عندما يكون السجود عبادة ويكون خضوعاً لله  
سبحانه.. فإنه يكون سبيلاً إلى الحنة وإلى أكثر من الحنة وهو القرب من  
الله سبحانه، يقول الله تعالى:

﴿واسجد واقترب﴾. أي اقترب من الله بالسجود.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد».

وهذا المعنى بلسجود هو الذي حققته الملائكة وهو الذي أباه إبليس لم  
يسجد إبليس بسبب كبريائه، لقد أبى واستكبر وكان من الكافرين وقادته

كبرياؤه إلى الإصرار على ما فعل: مرراً له، ولو أنه رجع إلى نفسه فندم واستغفر وتاب لقبل الله توبته، ولكنه عاند وأصر فطرده الله من رحمته وودده، وأحرقه من رياض رصونه ورأفته، حارماً إياه من نعمه، وقال له

﴿فهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين﴾. (الاعراف: ١٢)

ويعبر الله عن ذلك بصورة أخرى تشرح نسقاً آخر من الخطاب الإلهي له:

﴿فاخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾. (الحجر آية: ٣٤ - ٣٥).

يقول الإمام ابن كثير:

وقوله تعالى لإبليس: ﴿اهبط منها﴾ و ﴿اخرج منها﴾ دليل على أنه كان في السماء فأمر بالهبوط منها والخروج من الممرلة والمكانة التي كان قد نالها بعبادته، وتشبهه بالملائكة في الصلابة والعبادة، ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومحاالته لربه، فاهبط إلى الأرض مذموماً مسحوراً: أي مذموماً مطروداً.

وإلى هنا كان يمكن أيضاً أن يلجأ إبليس إلى الله ميباً مستغفراً، وذلك أن الله سبحانه، وإن كان قد صب عليه اللعنة فإنه سبحانه جوده بيوم الدين.

وقد كان من الممكن لو رجع إبليس إلى الله أن يعفو عنه سبحانه بعد يوم الدين

ولكن إبليس أصر أيضًا ولجَّ في عناده، والتمس من الله أن ينظره إلى يوم يبعثون؛ أي إلى نهاية العالم..

ماذا يريد من وراء ذلك؟

إنه يوضح غرضه فيقول:

﴿لَأَزِيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الحجر آية: ٣٩-٤٠).

ويوضح أيضًا غرضه فيقول:

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف آية: ١٦-١٧)

ومنذ هذه اللحظة بدأت في العالم - بالنسبة للإنسان - محاولة لا تفتر لقيادة الإنسان إلى المعصية والإثم والحكمة.

لقد بدأ لصراع بين الخير وشر منذ تلك اللحظة.

ولكن رحمة الله سبحانه قد أدرك الإنسان منذ أن وجد، وذلك بأن فتح له سبحانه باب المعرفة والعفو والرحمة، وذلك عن طريق التوبة؛ التوبة الخالصة النصوح..

إن الله سبحانه وتعالى يقول في حديث قدسي: وفي أسلوب أرق  
ما يكون الأسلوب:

« يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً  
فاستغفروني أغفر لكم».

ويقول تعالى في القرآن الكريم:

﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله،  
إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم، وأنبيوا إلى ربكم  
وأسلموا له﴾ (الزمر آية: ٥٣-٥٤).

يعفوها سبحانه بالتوبة الخالصة النصوح.

هذا ما كان من شأن إبليس.

\*\*\*

لقد فاجأ سبحانه الملائكة بقوله:

﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾

وفاجأهم بقوله

﴿اسجدوا لأدم﴾.

- ثم فاجأهم بأمر ثالث: وذلك أن الله سبحانه حينما خلق آدم  
لم يخلقه على سنة الخلق التدريجي نقطة فمضغة، فعلقة، موليداً فطفلاً يتدرج



مع المعرفة بتدرج الرمن، ويكتسب على مر الرمن ما يحتاج إليه من معرفة تختلف تفصيلاً واجمالاً بحسب حاجته وظروفه: كإله أنه لم يحلمه كذلك، وإنما سواه ونفخ فيه من روحه فنشأ خلقه مكتملاً.

هذا الخلق المكتمل تتردد فيه النعمة لإلهية بصرة يابسة تتألق بالمعرفة الروحية وتنعم بمشاهدة الملائكة الأعلى.

أما عالم الأرض فلم يكن عند آدم عليه السلام من علمه قليل ولا كثير.

- ومن أجل ذلك.. واعداداً له ليكون صالحاً للإقامة على وجه الأرض علمه سبحانه الأسماء كلها.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما:

«هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس. إنسان، ودابة، وأرض، وسهل، وبحر وجبل، وجل وحمار، وأشياء ذلك من الأمم وغيرها» اهـ.

ويؤيد الإمام ابن كثير رأى ابن عباس فيقول:

والصحيح أنه علمه أسماء الذوات وأفعالها، مكبرها ومصرها كما أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما. ولما كانت الملائكة إنما خلقوا للسماء كان مثلهم مثل آدم في مبدأ أمره، يجهلون شئون الأرض.

ومن أجل ذلك كانت المعجزة الثالثة لهم حين طلب إليهم سبحانه إخباره بأسماء الأمور التي تتعلق بعالم الأرض فقالوا:

﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمنا إنك أنت العليم الحكيم﴾  
(البقرة آية: ٢٣).

وهنا أمر الله آدم بأن يقف معهم موقف المعلم قائلاً

﴿يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ (البقرة آية: ٢٤).

وفي هذه المفاجأة الثالثة، إشارة لملائكة، وتنبيه للبشر إلى شيء من حكمه الله تعالى في خلق الإنسان، وهذه الحكمة هي المعرفة، المعرفة المتكاملة، والمعرفة بعالم السماء وعالم الأرض، المعرفة بالطبيعة وبما وراء الطبيعة

ب. من الحكمة في خلق الإنسان أن يوحد المخلوق المتكامل، المخلوق الذي فتح الله به آفاق المعرفة الدنيوية، المعرفة لأحروية، بأن مسحه الوسائل لذلك وهي البصر والبصيرة

ولقد أطلق الله سبحانه له العنان ليسير بوسائله التي منحها إلى ما لا حدود له، وإن من أجل شكر الله على منحة الخلق والحياة أن يترود الإنسان بالمعرفة وأن يتحلى بالعلم، وشعار المسلم هو شعار رسول الإسلام.

﴿رب زدني علماً﴾.

روى الإمام الترمذي في حديث صحيح عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم

على قدر الأرض : جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، واسهل  
والحزن (أى الصعب) وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك»

أما كلمة آدم فقد تعود الناس أن يقولوا في سبب التسمية بها : أنه  
سمى بآدم لأن حسده خلق من آدم الأرض أى وجهه، ولأن لونه يميل  
إلى السمرة، يقال رحل آدم، أى مائل لونه إلى السمرة.

- أما الرأى الجميل في سبب التسمية فهو أنه سمي بذلك

لما طيب به من الروح لمنفوخ فيه، المذكور في قوله تعالى :

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء آية. ٧٠).

ومن ذلك من قولهم «الإدام» وهو ما يطيب به الطعام.

- ولقد استشار رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم في لزواج فقال  
له :

«لو نظرت إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينك» أى يؤلف ويطيب.

- فالسمية بآدم على هذا لوجه الذى مرصيه إنما هى إشارة وتوجيه  
نحو التحلى بالكمال المستطاع، ودك بالخلق وبالعقل، وبالمهم والرواية،  
وبكل حسن طيب.

وأمرل الله آدم في دار ضيافته وهى الجنة، وحيداً قريداً لا أبس له،  
فكان يعيش فيها كما يقول ابن عباس، وابن مسعود وغيرهما رضى الله

عهم: مستوحشاً، ليس له فيها روج يسكن إليها، فنام نومة، فاستيقظ  
وعمد رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها: من أنت؟  
قالت: امرأة.

قال: ولم خلقت؟

قالت: لتسكن إلي.

ويتبع ابن عباس القصة فيقول: فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من  
علمه: ما اسمها يا آدم؟

قال: حواء.

قالوا: ولم كانت حواء؟

قال: لأنها خلقت من شيء حي

وعن هذه القصة الجميلة تتتابع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

- فلقد بين الله سبحانه حكمة خلق المرأة وحكمة الزواج، فركز  
الهدف في سكن النفس أى طمأنينتها، وفي المودة وفي الرحمة بين الزوجين  
فقال:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ  
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم آية:  
٢١).

ليس الزواج في الإسلام صفقة تجارية أو استغلالاً من أحد الطرفين.  
والرسول صلى الله عليه وسلم يقول فاطر بذات الدين.

وإنما هو سكن ومودة ورحمة.

- كان آدم وحواء مبدأ الخلق الإنساني وكأنا في الجنة منعمين: كيف  
خرجنا منها؟

قال الله تعالى لآدم:

﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ (لأعراف آية: ١٩).

أباح الله لهما أن يسمنعا فيها بما شاءا من روح وريحان، ومن فاكهة  
وأزهار، وصمن الله له أن لا يجوع فيها ولا يعرى، أى لا يتألم باطنه  
ولا ظاهره بالعري، وصمن له أن لا يظلم فيها ولا يضحى، أى لا تتألم  
من حر الظلمة في الباطن، ولا من حر الشمس على ظاهره.

ولكن الله سبحانه وتعالى حدد لهما شجرة معينة وأمرهما بأن لا يقرباها.  
وما من شك في أن عالم الإطلاق إنما هو عالم الألوهية، أما عالم الإنسان  
فإنه عالم الحدود والقيود.

بيد أن حدود الإنسان الدينية وتكاليفه التي أوحىها الله عليه إنما هي  
حدود من أجل رقيه وكماله، وكلما التزم الإنسان ما أحبه الله منه كان  
سائرًا نحو الكمال والصفاء والطهر.

وأنه لمن المعروف أن آدم - وهو سائر على ما أحب الله من الامتناع

عن الأكل من الشجرة - كان نعم هو وزوجته بطمأنينة النفس، وراحة البال وهدوء الصمير، كما نعم بذلك أصحاب الضمائر النقية، والسرائر الصافية..

لقد كان يقصى حياته ناعماً بسعادة البراءة وسكينة الأطهار مع رفيقة حياته وأصحاب هذه الحياة - حياة البراءة - لا يرون عورة، ولا يحسون بالحجل يغمرهم من أحل سيئة.

أترى لطفل يحس بذلك؟

إنهم وهم في براءة الأطفال لا يشعرون بخزي، ولا ينوء صميرهم بتأنيب

وكان آدم وحواء على ذلك حتى وسوس إليهما إبليس. لقد وسوس إليهما حتى يخرجهما عن براءة الطهر وبقاء العصمة، فيرياً ما لم يكن قد أُنِجَ لهما رؤيته من الشر والفيح، والعورات والسوءات، وحتى يشعرا بما لم يتأت لهما الشعور به من قبل، من تأنيب ومن شقاء بالمعصية. وإن صاحب السيرة السيئة معي أبداً بأن يجر الآخرين إلى مستواه، وأن ينزلهم إلى حضيفه، وأن يهوى بهم إلى مرالقه.

لقد وسوس إليهما الشيطان أياً من جانب انضعف في الإنسان، وهو حب الخلود، وحب الملك، وفل لهما متسائلاً مستعسراً متجهاً لآدم.  
﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ (طه آية ١٢٠)

وأتى لهما في صورة النياصيح، وأقسم لهما على إخلاصه وصدقه وبصحه :  
بصدقاه

صدقاه أولاً : لأنها في براءتهما عتقدا إخلاصه وبصحه، وصدقاه لأن  
ميولهما كانت إلى الخلود والملك كميول الأفراد من بني حسمهم.

وأكلا من الشجرة المنهى عنها، ورالت عنها مباشرة براءة العصمة  
وسكينة الطهر وأحسا بشقاء المعصية وعذاب الإثم. ويقول الله تعالى معبراً  
عن ذلك :

﴿ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من  
ورق الجنة ﴾ (الأعراف آية : ٢٢).

وكان هذا أول نجاح لإيليس في عالم الإنسان، بيد أن نجاحه انقلب  
إخفاقاً، وإذا كان قد مرح بنجاحه فإن فرحه لم يطل

\*\*\*

لقد حل بآدم وحواء الشقاء بسبب أكلهما من الشجرة، وأخذ آدم  
يمجى في الجنة من مكان إلى مكان بائساً حزيناً، وهو أينما حل يسمع النداء  
الإلهي يتردد في جنبات الجنة، ويخترق أذنيه رهيباً مدوّياً :

﴿ ألم أنهكما عن تلكما الشجرة، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو  
مبين ﴾. (الأعراف - آية : ٢٢).

ويجري آدم في الجنة، وتتعلق بشعره الأشجار، أو يعلق شعره بها، ولكنه  
يسمع لنداء الإلهي من جديد:  
«أفراراً مني يا آدم؟».

فيقول في خجل وفي حزن: «بل حياء منك يا رب».  
لقد شقى آدم بالمعصية وكذلك يشقى كل عاص بسبب ما اقترف من  
الإثم. روى الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:  
لا تصيب عبداً نكبة بما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه.  
أكثر، ثم قرأ: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾.  
وروى الطبري وابن عساكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:  
«والذي نفسي بيده ما من خدش عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج  
عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر».

ومن الرموز الجميلة في قصة آدم، ما رواه ابن عساكر عن مجاهد قال:  
«أمر الله ملكين أن يخرجوا آدم وحواء من جواره، فصرخ جبريل الناج عن  
رأسه، وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه، وتعلق به غصن فظن آدم أنه قد  
عوجل بالعقوبة، فنكس رأسه يقول: العفو، العفو، فقال الله: أفراراً مني؟  
قال: بل حياء منك يا سيدي.

ولجأ آدم إلى الله مستغفراً نادماً منيباً، فلما كان كذلك تاب الله عليه.



يقول سبحانه: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة آية: ٣٧).

أما هذه الكلمات التي اتجه بها آدم إلى الله فكانت نتيجتها توبة الله عليه فهي: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف آية: ٢٣).

وقد رويت في ذلك كلمات لا تخرج عن هذا المعنى منها ما قاله مجاهد: «لكلمات هي: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إني خير الراحمين

اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فتاب على إني أنت التواب الرحيم».

لقد كانت نتيجة التجاء آدم إلى الله هي ما عبر عنه بقوله: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (طه آية ١٢٢)

وإنه لقانون إسلامي عام، أن من ارتكب المعصية ثم رجع إلى الله في إخلاص وصدق، فبِرَّ الله سبحانه وتعالى يفتح له أبواب توبته

عفا الله عن آدم حين التجأ إليه، ولكمه سبحانه لم يبقه في الجنة، وإنما أنزله إلى الأرض قائلاً:

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَسْقَرٌ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (الأعراف آية ٢٤)

أكان يروله إلى الأرض عقاباً حقيقياً؟ أم كان نتيجة لسبب ظاهر شكلي؟ كان أكله من الشجرة معصية حقيقة؟ أم هي مفادير رتبت من أجل نتيجة أرادها الله سبحانه، وهي عمارة الأرض؟

لقد قال الله للملائكة من قبل خلق آدم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ إنه سبحانه لم يقل: إني جاعل في الجنة خليفة، أو إني جاعل في السماء خليفة، وإنما قال:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

وهذه الجملة حددت مصير آدم: إنه الأرض.

ومن أجل ذلك تحدث علماءنا في الموضوع، ورويت فيه آثار. من ذلك ما رواه خالد الخدام، قال:

خرجت خروجة لي فحدثت وهم يقولون: قال الحسن، فنيقته فقلت:

يا أبا سعيد، آدم للسماء خلق، أم للأرض؟

فقال: ما هذا يا أبا منازل؟ للأرض خلق،

قلت. أرأيت لو اعتصم فلم يأكل من الشجرة؟

قال: للأرض خلق، فلم يكن بد من أن يأكل منها.

ومن أحمل الآراء في قصة آدم وأعنفها رأى الإمام أبي الحسن الشاذلي: لقد شعر أبو العباس المرسى في يوم بضيق شديد ولم يعلم له سبباً، فذهب

إلى أبي الحسن الشاذلي، فلما رآه الشاذلي قال له مباشرة:  
آدم خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة نصف يوم -  
خمسمائة عام - ثم نزل به إلى الأرض.  
والله ما نزل بآدم إلى الأرض لينقصه، ولكن نزل به الأرض ليكمله.  
ولقد أرسله إلى الأرض من قبل أن يحمله بقوة.  
﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾

وما قال في الجنة ولا في السماء، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة  
لا نزول إهانة، فإنه كان يعبد الله في الجنة بالتعريف فأرسله إلى الأرض  
ليعبده بالتكليف، فلما توافرت فيه لعبوديتان استحق أن يكون خليفة.  
وأنت أيضاً لك فسطح من آدم، كانت يدايتك في سماء الروح في حنة  
المعرف، فأُنزلت إلى أرض النسي لتعبده بالتكليف، فلم توافرت فيك  
العبوديتان استحققت أن تكون خليفة  
والنفس على مر الزمن يمتلئ في موسهم نوع من الأسف على الأكل  
من الشجرة، وقد كانوا يتمنون أن آدم لم يكن قد أكل منها حتى يَكُونُوا في  
الجنة حيث النعيم والسعادة.  
ولقد عبر سيدنا موسى، حينما التقى في عالم الأرواح بسيدنا آدم، عن  
أسف الناس قائلاً:

أنت آدم الذي خلقك الله بيده وأسكنك الجنة، وأسجد بك ملائكته، ثم  
صنعت ما صنعت؟

ولم يلتزم سيدنا آدم الصمت، وإنما قال مسائلاً.

أنت الذي كلمه الله، وأنزل عليه التوراة؟

قال: نعم.

قال: فهل تجده مكتوباً على قبل أن أحل؟

قال: نعم.

وكانت الغلبة في النقاش لآدم عليه السلام

\*\*\*

وقبل أن تترك موضوع آدم عليه السلام عرج على مسائل تساءل عنها  
الأقدمون ويتساءل عنها أيضاً كثير في الأوساط المعينة بالدين، منها مثلاً  
السؤال التالي:

- هل كان آدم نبياً، أم أنه لم يصل إلى مرتبة النبوة؟

لقد حار هذا السؤال في ذهن الصحابي الجليل أبي ذر، فذهب إلى  
رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتحدث هو عن ذلك فيقول:

قلت يا رسول الله: كم الأنبياء؟

قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً.

قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟

قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير (أى عدد كثير).

قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟

قال: آدم..

قلت: أو نبياً كان؟

قال: نعم، نبى مكرم..

وفى الحديث الشريف تفرقة بين الأنبياء والرسل..

ولعل القارئ الكريم يتساءل: وما الفرق بين النبي والرسول؟

والفرق بينهما أن النبي لا يأتي بشرع جديد، وإن كان يلهم من قبل الله

ويوحى إليه.

أما الرسول فإنه يأتي بشرع وكتاب وصحف، ويبشر بمبادئ جديدة

أوحاها الله إليه.

ومن هنا كان لرسول أقل في عددهم من الأنبياء

هذا. والأمر الثاني لدى نريد أن نتحدث عنه هو أمر يثيره حب

الاستطلاع في بنى البشر.

لقد تساءل قوم عن شكل آدم ومكانته من ناحية الجمال الجسماني؛  
وإنه لمن المعروف المتداول بين الناس، وتؤيده الآثار والأخبار أن يوسف  
عليه السلام كان غاية في الجمال.

فهل كان آدم عليه السلام مثله أو أقل منه؟

والإمام ابن كثير يثير الموضوع ويقول:

قال بعض العلماء في قوله صلى الله عليه وسلم.

.. فمررت بيوسف (أى ليلة الإسراء) وإذا هو قد أعطى شطر الحسن.

قالوا: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام (لأن

الشرط هو النصف).

يقول ابن كثير: «وهذا مناسب، فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة

ونفع فيه من روحه فـ كان ليحقيق إلا أحسن الأشياء»

أما العبرة الأخيرة التي نأخذها من قصة آدم فهي أن الله سبحانه أشار

غير مرة في القرآن الكريم أنه خلق بني البشر جميعاً من نفس واحدة، هي

آدم عليه السلام وأنه جعل من هذه النفس نفساً أخرى هي حواء ليسكن

إليها، وأنه بث منها رجالاً كثيراً ونساء.

هذه الإشارات المتكررة التي ذكرها الله في القرآن، إنما كانت ليدل الله

بها على أنه لا عبرة بالأسباب، وإنما لعبرة بالعمل والمقوى، ومن بطؤ به

عمله لم يسرع نسبه.

وإن أكرمكم عند الله أتقاكم..

كلكم لآدم وآدم من تراب.

يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء آية ١).

كيف بث منها رجالاً كثيراً ونساء؟ لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث صحيح في كيفية الزواج والتناسل في المبدأ، ولم يرد في ذلك تفصيل في القرآن الكريم، ولكن روى عن كثير من الصحابة تفصيل في ذلك نرويه على ما ورد، إذ ليس ما يمنع من الدين أو العقل تصديقه

ومحمل الأمر.

أنه ما كان يولد لآدم عليه السلام مولود ذكر إلا ولدت معه أنثى فكان يروج غلام هذا البطل فتاة البطل الآخر، ويروج فتاة هذا البطل غلام البطل الآخر.

وقد انحبت حواء بطوناً كثيرة توائم، ذكراً وأنثى، ومن هنا كثرت التناسل وعمرت الأرض وبمجرد أن شب الفتيان ولعتياب بدأ التنافس والحسد بين الخير والشر.

وإذا كان آدم قد استعصى على إبليس بعد توبته لخاصة النصح.

وإذا كان بعض بني آدم من ذوى الفطر الطاهرة قد استعصى على إبليس أيضا فإن البعض الآخر من بني آدم قد استجاب لتسويل إبليس

ويصور لقرآن أول جريمة قتل وقعت في العالم على نسق التالي:

كان لآدم بنار: هابيل وقايل وهبيل، وكان قاييل وهو الأكبر قاسى القلب غلبط الطبع لا يستشعر النقوى، ولا يتحرك للصالحات، وكان هابيل وهو أصغرهما على العكس من ذلك، تقياً صالحاً مرضياً عنه من الله تعالى، وتنافس في تقديم ما يتقرب به إلى الله، وقدم قاييل شيئاً تافهاً رديئاً لا قيمة له، وقدم هابيل من أنفس ما عنده فتقبل الله من هابيل، ولم يتقبل من قاييل، فحز ذلك في نفس قاييل.

فقل لأخيه: لأقتلك

فكان جواب هابيل نصيحة يسديها إلى أخيه بوجهه بها إلى عمل الخير.

﴿إنما يقبل الله من المتقين﴾.

وما أريد بذلك هابيل إلا أن يوجه أحواله إلى لطريق مرصدة الله وتقبله للعمل وهو النقوى، ثم قل محاولاً بقوله إرشاد أخيه إلى خشية الله. إذا هممت بقتلى، ومددت يدك لذلك فإني لن أحاول قتلك ولن أتعمدته لأنى أخاف الله رب العالمين.



﴿لئن بسطت إلیّ یدک لتقتلنی ما أنا بهاسط یدی إلیک لأقتلک : إلی  
أخاف الله رب العالمین﴾ (المائدة آية. ٢٨).

وذكره بعد ذلك بأن القتل إثم عظيم يتحملة القاتل فوق ما اقترف من  
ثم سابق وأن القاتل جرائه النار، والنار جزء كل ظالم.

ولكن قابيل لم يرق قلبه، ولم يحشع فؤاده، وطوعت له نفسه قتل أخيه  
وهو ابن أمه وأبيه، فقتله وأصبح بذلك من شيعة إبليس في الشر ولإثم،  
وأصبح بذلك من الخاسرين في دينه ومن الخاسرين في دنياه فقد زال عنه  
الهدوء، وزالت عنه السكينة وكانت جثة أخيه أمامه ينعص منظرها عليه  
حياته، ولا يدرى ماذا يفعل بها؟ فبعث الله غراباً يحفر في لأرض ليدفن  
غراباً آخر ميتاً، ففعل قابيل مثلاً فعل العراب ليخفي بذلك آثار الجريمة

ما سبب هذه الجريمة: إن ظاهر النص انقراى يفيد أن السبب هو حقد  
النفوس الخبيثة على النفوس الصافية الطاهرة، وهو سبب يوجد في كل  
زمان ومكان، وهو سبب عام يدخل في نطاقه أسباب خاصة

ولقد التمس بعض أسلافنا سبباً خاصاً يدخل في نطاق السبب العام،  
وهو أن هابيل لما أراد - على سنة الرواج عندهم - أن يروج تلك التي  
ولدت مع قابيل في بطن واحدة، وكانت جميلة فاتنة، أبي عليه ذلك قابيل  
مدعياً أنه أحق لأنه أقرب إليها من هابيل، فكان التنافس وكان النزاع،  
وكان القتل، وهذا السبب أيضاً سبب يقع في كل زمان ومكان إذ يترك فيه

«لقاتل نفسه مسرَّحًا للسُّر، ومُحلاً لسُوَيْل إبليس، فتركب لِإِنَّم وَيُطْرَد  
بذلك من رَحْمَةِ اللَّهِ

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا، وَغَضِبَ اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء ٩٣).

## نوح

عليه السلام

سنطوى الآن الزمن في وثبة هائلة لا ندرى مداها فنصل إلى نوح عليه السلام..

ورداً تساءل متسائل عن الزمن بين آدم وروح عليها السلام. فإتينا بقول في يسر: إن جميع ما يقال في ذلك إنما هو صرب من لتحمين، وأر لآثار لق رويت في ذلك يكر تأويلها على أنحاء شتى فتكون ألد، وتكون آلافاً من السنين ولا يقين في الموضوع.

لقد أهبط الله آدم، وهو على عقيدة سليمة من عالم الألوهية وعالم الجنة وعالم الملائكة، وأهبطه مزوداً بالمبادئ الأخلاقية الصالحة، وبث آدم ذلك في أبنائه، واستجاب له من هده الله وشدعه كل من أراه الشيطان؟ وأخذ هؤلاء المنحرفون يزيدون شيئاً فشيئاً على مر الزمن، وعلى توالي العصور حتى شاع الانحراف في العقيدة نفسها، فعبد الناس الأصنام، وانغمسوا في الضلالة والكفر.

كيف بدأ الانحراف في العقيدة - وكيف دخل الشرك على التوحيد؟  
لقد كان آدم يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً فكيف انحرف بنوه؟  
إن التفسير القديم والحديث، تفسير أسلافنا، وتفسير بعض علماء  
النفس الحديثين فيما يتعلق بهذه الظاهرة على اختلاف العصور والبيئات،  
هو أنه من الطبيعي أن ينشأ من آراء الآخرين في بيئة من البيئات شخص  
صالح يحبه الناس لصلاحه وتقواه ويحبونه للمخلق الكريم، من ينل وعون  
وتضحية بالفساد والمال في سبيل إسعاد الآخرين ويحبونه لما يشيع فيهم من  
حو الثقة والطمأنينة والأمن لأحلافه الذي يفتقدونه فلا يكادون يجدونه  
فيكون له أتباع يفتقدون به، ويسرون على خطاه .

وحيثما يموت يعكفون على قبره في أوقات معينة، يستعيدون ذكراه،  
ويحدثون آثاره، ويسترجعون أقواله، ويحاربون أن يكون لديهم أثر من  
آثاره.

ويطغى عليهم الشوق قبصودونه، ويحملونه في منابرهم ومستدياتهم وكلما  
مر الزمن ضاقوا إلى مآثره مآثر من حبالهم، وإلى مفاخره مفاخر من  
ابتدأهم بكرمياً ، وزيدة قداسة.

حتى إذا بلغ استقديس منتهاه، يتوالى الزمن، عبد هذا الذي كان في  
ابتداء أمره داعية إلى الله، وإلى التوحيد الخالص.

والإنسابة إذن بدأت بالتوحيد، ثم انتهت شيئاً فشيئاً إلى الشرك

ولتعدد، وهذه النظرية على هذا الوصف تقرها الأديان الإلهية لكبرى كلها ويقرها كثير من الباحثين في علم الاجتماع، وهي تقلب نظريه «أوغسط كوت» رأساً على عقب، فقد كان «أوغسط كوت» يرى أن الإنسانية بدأت بالتعدد والشرك، ثم كان التوحيد حاكم المطاف فيها

وهذه النظرية «لأغسط كوت» لم تقف أمام الأبحاث الحديثة فانهزت كما انهار غيرها من نظريات هذا المفكر الذي كان يحتل يوماً مكان الصدارة بين المفكرين ، والذي أصبحت تدرس آراؤه الآن على أنها أثر تاريخي فحسب..

ومها يكن من شيء فإنه حينما تحررت الإنسانية في عقيدتها شاءت رحمة الله أن يرسل نوحاً عليه السلام مبشراً بالحق في مجال العقيدة، وبالخير في مجال الأخلاق، وبالعادلة في مجال التشريع.



تصعنا الصوص الصحيحة والأخبار أمام نوح عليه السلام، وهو رجل ناصح ، مكتمل، أرسله الله هداية قومه.

أما طفولته وشبابه وكل ما كان قبل الرسالة فليس لنا به علم. ولكن الله سبحانه وتعالى له سنن خاصة بمن بعثهم أنبياء ورسلاً، وذلك أن الله سبحانه يختارهم من ناحية السبب من أشرف الأسر. ولقد سأل هرقل أباسفان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً:

- كيف هو فيكم؟

فرد أبو سفيان قائلاً: هو فينا ذو حسب..

فقار هرقل. وكذلك الرس تبث في أحساب قومها..

ويعمل بن خلدون ستة الله في بعت الرسل في أحساب قومهم، بأن ذلك إنما هو لأجل أن يكون للرسو أسرة دت شوكة ومنعة تحميه من أذى الكفار حتى يبلغ رسالة ربه ويسم مراد الله من إكمال دينه وملته.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في حديث صحيح:

«ما بعث الله نبيا الا في منعه من هومه».

من هذه الستة الإلهية نوقس - وان لم تكن لدينا نصوص صريحة - أن نوحا كان من أسرة كريمة.. هذا من ناحية للأسرة.

أما من ناحية لإعداد لتربوي فإن الله سبحانه يصطنعهم لنفسه: يقول الله تعالى لسيدنا موسى:

﴿واصطنعتك لنفسى..﴾.

ويصنعهم على عينه:

﴿ولتصنع على عيني﴾.

أما سيدنا يحيى فإنه كان تقيا، ربيا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا. وسيدنا عيسى حبه الله مباركا أينما كان.

ورسولك صوات الله وسلامه عليه يقول له الله . ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

من هذا وغيره تؤكد أيضًا أن نوحًا عليه السلام لم يكن بدعًا من الرسل وأنه كان على خلق كريم

يقول ابن خلدون عن الأنبياء والرسل عامة:

ومن علاماتهم أنه يوجد لهم قبل الوحي خلق آخر والركاة، وبجدة المذمومات والرحس أجمع، وهذا هو معنى العصمة، وكأنه مفسطور على انتزعه عن المذمومات والمنافرة لها، وكأنها منافية لفطرته

كان نوح على خلق كريم ما في ذلك من شك، فبما انتهى إعداد الله له إلى غايته فاجأ الوحي، وبك أيضًا سمة الله في أنبيائه - فإنه حينما تصبح نفوسهم بتربية الله وعنايته - أهلاً للسقى عنه بدخولها لوحى مثلاً وهي سائرة في الوادى المقدس وفي لبقعة لمباركة، كما حدث لسيدنا موسى، يسي هو سائر مع أهله رثى ناراً فقال لأهله امكثوا هنا، وذهب نحو الصوء فإذا به يسمع المداء الإلهى:

﴿إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكري﴾. (طه آية .

(٢٤)

أو يفاحى الوحي النبى وهو فى العار فيأتى الملك أمرا:

﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾

وفاحاً الوحي نوحاً عليه السلام، على نحو من هذه الأنحاء.  
لقد فاجأه بالأمر: ﴿أنذر قومك من قبل أن يأتِيَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾  
بماذا يندرهم؟

بعث الله سيدنا نوحاً حينما عم الفساد ليبشر بالحق والخير والعدل.  
وبدا سيدنا نوح بالعقيدة:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ  
يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. (الأعراف آية ٥٩).

وهذا الذي قاله سيدنا نوح لقومه هو التبشير بالتوحيد، والتوحيد هو  
جوهر ارسالات السماوية جميعاً، والله سبحانه يؤكد لسيدنا محمد خاتم  
النبيين ذلك قائلاً:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا  
فَاعْبُدُونِ﴾. (الأنبياء آية: ٢٥).

والتوحيد هو ما يعبر عنه في الإسلام بأشهد أن لا إله إلا الله.. وقد  
جعله العالم الكبير أبو الريحان البيروني، العلامة الأصيل والطبع الحقيقي  
بلدين الإسلامى، ولكنه في الواقع هو جوهر كل دين سماوى صادق.

والمعنى الحقيقى للتوحيد هو الاعتقاد اليقيني أن كل ما فى الكون من  
خلق ورزق، وعطاء ومنع، وحياة وموت، وعنى وفقر وقوة وضعف، وعز



ودل، مرده إلى الله سبحانه.

وبدا آمن الإنسان بالتوحيد لم ينظر إلى غير الله فيكون خوفه منه، ورجاؤه إليه، وثقته به، وانكاله عليه، وإذا اعتقد التوحيد رأى أن كل ما سوى الله مسخر لله. وإذا اعتقد التوحيد تحرر من ذل العبودية لمخلوق لأن كل مخلوق مسخر لله ، إن الكون كله في قبضة الله. إنه في قبضة الله بالعلم والقدرة، والإرادة والحكمة والتدبير..

وتنكأ آيات الله وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم على دعوة الإنسانية إلى لتوحيد حتى تتحرر من رق العبودية..

يقول ربيعة بن عباد: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، بصر عيني بسوق ذي المحاز يقول:

يأها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا..

ويدخل فحاجها والناس مقصفون عليه (مجتعمون حوله) فما رأيت أحداً يقول شيئاً، وهو لا يسكت.

يقول: يأها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا.

أما النموذج الجميل الذي يسيل ربه وعدوبة في الدعوة إلى التوحيد أي إلى الالتجاء إلى الله في كل أمر فيه الحديث القدسي الذي كان يرويه أبو مسلم الخولاني فلا يرويه عن الكيفية التي يروي بها الأحاديث

الأخرى، وإنما يرويه وهو جاث على ركبتيه تقديسًا للحديث، واحترامًا له، وهو «الآق».

«يا عبادي إني حرمت الظنم على نفسي وجعلته محرّمًا فلا تظالموا.

يا عبادي كنكم صال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم..

يا عبادي، كنكم جائع إلا من أظعمته فاستطعموني أطعمكم

يا عبادي ، كنكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم..

يا عبادي، كنكم تحطنون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا..  
فاستغفروني أغفر لكم..

يا عبادي، إنكم لن تبخلوا، صري فنصروني ولن يبيعوا يعني فتتبعوني

يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب  
رجل واحد منكم مازاد في ملكي شيئًا

يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وإسكم وجنكم كانوا على أفجر  
قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد  
فسألوني فأعطيت كل إنسان مسأله، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما  
ينقص المحيط إذا دخل البحر.

يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد

خبراً فليحمد الله، ومن وحد غير ذلك فلا يومس إلا نفسه».

\*\*\*

بشر سيدنا نوح بالتوحيد، وبشر بالتوحيد جميع الرسل وإذا فهم  
التوحيد على حقيقته واحده الإلحاسية شعاراً لها يكون علاجاً لكثير من  
ألوان الضعف فى المجتمعات.

ولإلحاسية فى محلف أرمسها وأمكسها تخاف الموت وتخشاه، هذا يقوده  
إلى الاستعباد للأقوياء، والدلة أمام الطعاة

ولكن هذا الوضع لا يتمشى فقط مع عقيدة التوحيد، فإن مالك الملك،  
إما هو وحده الذى يملك الموت والحياة

إنه يملك إمانة لطةاة أو تركهم لحكمة يعلمها سبحانه، وهو لذى قدر  
الآجال وحددها، فإدا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

والحرص على الحياة، أو الجبن ليس من أسباب إطالة الأهل،  
والشجاعة والإقدام ليسا من أسباب تقصير الأجل، وقد بين الله ذلك فى  
كتابه الكريم الذى يعبر عن جميع الرسالات السابقة إبانة تامة، وكما أنه  
لكل أجل كتاب فإنه لكل أمة أهل.

أما هؤلاء الذين قالوا

﴿لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا﴾.

فإن الله سبحانه يرد عليهم:

﴿قل: لو كنتم في بيونكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾. (آل عمران آية: ١٥٤).

وهؤلاء الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا:

﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾.

فإن الله سبحانه وتعالى، يأمر رسوله صلوات الله عليه وسلامه أن يرد عليهم قائلاً،

﴿فدرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ (آل عمران آية ١٦٨).

أما الذين يفرون أدم أعداء الله، فهؤلاء..

﴿إنما استذلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾ (آل عمران آية: ١٥٥).

إذن، المؤمن الصادق الإيمان لا يعرف الجبن، ولا يستذله لشيطان، موسوساً له بالخوف من غير الله تعالى.

وإذا كان خوف الموت هو الدعامة الأولى في ذلة الإنسان واسترقاقه، فإن الدعامة الثانية هي هم الرزق..

ولناس عادة يساهم لقل، ويغمرهم الحرص على أفواتهم، ويدعأ بعضهم إلى وسائل لا تليق بالكرامه الإنسانية بل يصل الأمر ببعض إلى

مستوى التعلق والمداهنة والمراءاة، وبعضهم يصل به الأمر إلى العشر والرشوة والاختلاس، وتستعبد المادة والحصول عليها الإنسان فيصبح له عبداً مسترقاً.

ولكن الدين وقد حرر المجتمع من خوف الموت فقد حرره أيضاً من هم الرزق، فالرزق بيد الله..

﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها﴾. (هود آية: ٦).

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن الرزق في السماء محدد مقسوم، وأقسم سبحانه على أن ذلك حق واقع، لقد أقسم سبحانه لما يعلم من ضعف الطبيعة البشرية وإشفاقها وفلها بالسبب لأمر الرزق، يقول سبحانه:

﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون، ف ورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾. (لداريات آية ٢٢-٢٣)

على أن صاحب الثراء العريض الذي يعتمد على ثرائه غير ناظر إلى الله تعالى واهب الرزق والثراء وقد يخسف الله به ويداره الأرض، كما صنع بقارون، أو يطوف ببساتينه ومزارعه طائف منه سبحانه فتصبح حاوية على عروشها كما فعل سبحانه بأصحاب الجنة الذين قص علينا أمرهم في القرآن الكريم في سورة القلم

وما من شك في أن اسعى على الرزق مطلوب، وأن العمل الجاد

لكادح إنه هو من سمات الإسلام. كل ذلك حق، وإذا كان الرزق بيد الله تعالى، وإذا كان العمل مطلوباً، فإن ما يهيئ عنه الإسلام، إنه هو هذه الصورة المشبعة القلقة التي تحاول اقصاص المال من السبل غير المشروعة، أو التي ترى أن عبداً من عباد الله بيده الرزق إعطاء ومنعاً، وبيده الرزق زيادة ونقصاً، أو أخذاً وتركاً..

والتوحيد إذن علاج للجبن وعلاج للقلق من أجل الرزق. أخذ سيدنا نوح يدعو إلى التوحيد في همة لا تفتر، وفي نشاط لا ينوأي أخذ يدعو ليلاً ونهاراً، وأخذ يدعو جهراً حينما تتيح له الظروف الدعوة الجهرية، ويدعو سراً حينما يستلزم الأمر الدعوة سرّاً لم يكن يدع فرصة تمر إلا ويشرح فيها رسالته الله: مبشراً ونبيراً، مرغباً في ثواب الله وحنّته، ومخوفاً من عقابه وعذابه.

«لقد أحد يشرح لهم قدرته وشمول علمه قائلاً»:

«ألا ترون أنه خلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق؟ لقد كنتم تراباً، ثم نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم كنتم أجنة، وكنتم في جميع هذه الأطوار في رعاية الله، محفوظين بحفظه، محاطين بعنايته. وبعد ذلك كنتم أطفالاً فشباً، وهكذا. وستعودون إليه من جديد في أية لحظة شاء، فارجعوا إليه بالتوبة والإجابة والطاعة قبل أن تواجهوه وهو عنكم غير راض».

ثم: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماعات طباقاً، وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾. (نوح آية: ١٥-١٦)

ثم، ألم تروا كيف جعل لكم الأرض بساطاً وجعل لكم فيها مسالك  
وسيلاً للإقامة والانتفاع. وفي كل ذلك ما نرى في خلق الرحمن من  
تفاوت..

وأحد سيدنا نوح يعدد نعم الله : مبيناً إلى اليسير منها والعظيم، الظاهر  
منها والباطن ونعم الله كثيرة لا تحصى.

﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ (الحج آية ١٨)

ثم أعلن لهم قانون «الاستغفار» وسيدنا نوح أول من أعلن هذا  
القانون :

﴿استغفروا ربكم إنه كان غفراً﴾. (نوح آية: ١٠)

هذه هي مقدمة القانون أو قاعدته وأساسه.

فإذا ما كان الاستغفار الخالص للصوح، وإذا ما كان الالتجاء إلى الله  
بطلب المغفرة في صدق، كانت النتيجة.

والنتيجة هي :

﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾. أي ينزل الميث المحيي لأرضكم  
الحدياء، ولذي يملأ أنهاركم الحارية بالخير والسما.

﴿ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾.  
(نوح آية: ١٢).

إن الإمداد بالأموال واليدين - وقد أتى بها القرآن بصيغة الجمع -  
مرتّب على الاستغفار

وإن هبة الجنات ولأشهار - وقد أتى بها القرآن بصيغة الجمع أيضاً -  
مرتّبة على الاستغفار.

هذا هو قانون الاستغفار الذي أعطاه سيدنا نوح عليه السلام.  
وهذا القانون عام لا يحدده زمن ولا يحدده مكان، فمن التَّحَأُّ إلى الله في  
العصر الحاضر بالاستغفار الخالص النصوح الصادق، فإنَّ الله سبحانه  
يهيئ له من الظروف ما يجعله يعيش في سعة من الرِّق، وفي يسار من  
المال. إنه وعد الله الذي أوحاه إلى رسوله نوح ليعلِّمه للناس ووعد الله  
لا ينحلف.

ولقد أوضح رسولنا صلى الله عليه وسلم، فيها بعد رواية مهمة من زوايا  
قانون الاستغفار وهي عدم وقوع العذاب على المسفّر يقول تعالى  
﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. (الأنفال آية: ٣٣).

إن سيدنا نوحاً عليه السلام كان يبيد قومه إلى الظروف والملايسات  
التي تشير إلى صدقه.

إنه لا يسألم على دعوته أجراً.

﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَهْرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾. (هود آية: ٢٩).



إنه إذر لا يطالب مالا، ولا يدعو بدعوته من أجل القود  
وإذا ما سأله سائل عن السبب في قيامه بهذه الدعوة فإنه يقول:  
١ - أبلغكم رسالات ربي.

٢ - وأنصح لكم.

٣ - وأهديكم إلى ما أعلمه عن الله وذلك لأني: أعلم من الله مالا  
تعمون وهل من العجيب أن يأتيكم ذكر من ربكم فيه لكم هدى ونور على  
لسان رجل منكم من أجل أن يندركم ومن أجل أن تتقوا، ومن أجل أن  
يرحمكم الله؟

إن الإذار يعود عادة دوى النفوس الخيرة إلى التقوى، والتقوى سبب  
في رحمة الله، فهل من العجيب أن يرسل الله لكم - وهو أرحم الراحمين -  
من يقودكم بإذاره إلى رحمة الله؟

كان هذا هو منطق نوح عليه السلام، ولقد استجاب له بعض  
الأشخاص من قومه وكانوا من عامة الناس وضعفاءهم.

إن عامة الناس وضعفاءهم دائما هم أتباع الرسل في مبدأ أمرهم، وقد  
كانوا أتباع محمد صلى الله عليه وسلم في مبدأ أمره، ولقد سأل هرقل  
أبا سفيان عن أمر سيدنا محمد فقال له:  
أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟

فقال أبو سفيان: صفائهم.

فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

ولا يقصد بعامة الناس وضعفائهم إلا هؤلاء الذين ليسوا من أصحاب الثروات الطائلة والحياه العريض والنفوذ والواسع. وتعديل هذه الظاهرة هو أن شراف الناس على حد تعبير هرقل لهم مصالح ومافع وأعراض شخصية تحول بينهم وبين اتباع الحق. فمكائتهم وثروتهم تتيح لهم الخرى وراء الشهوات فى إسرائف، والدين لا يبيح من ذلك إلا لالحال الطيب، ومكائتهم تتيح لهم التعال واستعباد الضعفاء واستغلال النفوذ والدين لا يسمح بذلك ولا يقيم وزناً إلا لنتقوى

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

أما الضعفاء فقد خلصت نفوسهم من ذلك كله فكانت أقرب إلى اتباع الحق، وكانت مهياة للاستجابة فى سهولة ويسر، لا تصرفها عن ذلك شهوة، ولا يمنعها من ذلك مصلحة

وشىء آخر له ورثه يكثر فى محيط الأثرياء، ولا يكاد يوجد عند ذوى المكانة المتواضعة وذلك هو الكبر، الكبر لدى بسببه طرد إبليس من الجنة، الكبر الذى يمنع ذوى الشرف أن يتابعوا شخصاً من بينهم يرون أن لا ميرة له عليهم، فيصبحوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين، وهذا هو ما عبر عنه نوح بقوله.

﴿يقوم إن كان كبر عيكم مقدمى وتذكيرى بايات الله، فعلى الله توكلت﴾. (يوس آية: ٧١).

لقد استجاب لنوح قليل من الضعفاء فمادا كان موقف السادة والأشراف؟

اتبع نوحاً بعض ضعفاء قومه وكانوا قلة، وقد عبر القرآن عن ذلك بقوله:

﴿وما آمن معه إلا قليل﴾. (هود آية: ٤٠).

كان هذا القليل هو الذى أمكنه أن يستخلص نفسه من ترغيب السادة لكبراء ومن إرهابهم، إلهم الدين لم تؤثر فيهم رغبة أو رهبة، لقد خدصوا للحق.

على أن هذا القليل من المؤمنين كان من أسباب المنور الذى أبداه الملائ من قوم نوح.

وكلمة «الملائ» تعبير قرأى يسعمله انقرآن كبيراً فى قصة نوح، ويريد به «السادة الكبراء» على حد شرح الإمام ابن كثير للكلمة. لقد كان الملائ يقولون لنوح كلما دعاهم:

١ - ما نراك إلا بشراً مثلنا.

٢ - وما براك اتبعك إلا الذين هم أرادنا بادى الرأى (أى ابعدك

منذ اللحظة الأولى للدعوة دون تفكير).

٢ - وما نرى لكم علينا من فضل.

ولقد غفل هؤلاء أو تغافلوا عن أن الرسل ما كانت ولايتأتى أن تكون - إلا بشرًا من البشر، وما كان أبايعهم إلا من تمحص للحير، وكل من تمحص لبخير فإنه في ثذوبة من انفصل مهما كانت مكانته من الشراء وألح الملاء على نوح أن يطرد هؤلاء الذين اتبعوه فقال في ثقة ويقين:

﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾.

استمر نوح في دعوته وحده مع قومه ، لا يفتر ولا يلين حتى استخلص من بينهم كل من شاء الله له الهداية وحينئذ أوحى الله إليه:

﴿لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾.

(هود آية: ٣٦).

ولما علم نوح بذلك نادى ربه:

﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾. (نوح آية: ٢٦).

ثم علل سبب هذا الدعاء قائلاً:

﴿إنك إن تذرهم (أى تتركهم) يصلوا عبادك ولا يدعوا إلا فاجراً كفاراً﴾ (نوح آية: ٢٧).

و سنحاح الله إلى دعاء نوح ولكنه لم يهلك لكافرين فور لدعاء، وإنما

أمر نوحاً بأن يصنع سفينة وأخبره أنه سيغرق أعداءه.

وسنة الله سبحانه أن يرسل من يبشر بالهدى ويذر الطغاة بالعذاب فإذا كانت الاستجابة. كانت رحمة الله، وكان فضله، أما إذا كان الإباء والتمرد على الأوامر الإلهية فإن الله يهلك الظالمين. تلك سته، أجراها في قوم نوح وفي قوم هود، وفي قوم صالح وفي غيرهم. ولقد قص الله سبحانه في القرآن أخبار هؤلاء سوء كانوا أفراداً مثل قارون، أو كانوا أمماً مثل عاد وثمود والله سبحانه يقول لموسى عليه السلام:

﴿وذكرهم بأيام الله﴾.

وأيام الله: إنما هي لتاريخ وما فيه من عبر وعظات

وجاء يوم لم ير فيه الملائكة كثروا من قوم نوح، على عاداتهم كل صباح، وعلى عاداتهم على مدار الأيام في سنوات عدة لم يروا نوحاً يجوس بينهم على عادته مبشراً ومنذراً واعتقدوه، ويحوا عنه ملحين وكان يحسمهم لا يستقيم أمره بغير وجود نوح بينهم، يسحرون به، وهزأون منه، ومن أتباعه، وكان ذلك قد صار عادة لا غنى لهم عنها.

وفي خاتمة المطاف، وحدوه، هرقع مظرة منهم موقع القرابة العظمى في أول الأمر.

لقد وحدوه مع بعض أتباعه يعالجون قطعاً من أحشاب الأشجار ويصنعون ما يصنع النجارون نشرًا وقطعًا وتسويه وهديبًا وتشديبًا.

وعقدت الدهشة ألسنتهم، ثم أخذوا ينسبوا لـنوح عن الأسباب والعلل وعن الأهداف والنتائج ولم يحف نوح شيئاً من أمره، وإنما أعلن في صراحة، أنه يبني سفينة لينجو فيها هو وتباعه من الغرق حينما يعم الفيضان الأرض، وحيماً يهلك الله الكافرين.

كان الجو صحواً وكانت السماء صافية، ولم تكن العادة قد جرت في هذه المنطفة بهيضانات جبرهه أو سيول مدمرة، فكانت النفوس مطمئنة من هذه المحفة وكانت القلوب فاسية لا تؤمن بالمعجزات ولا حوارق العادات. فأحدث الابساعات بدور على الشفاء وأخذت السحريه تجري على الألسنة، ووجد المشركون محالاً حديداً للتندر والسخرية، فواحههم نوح مؤكداً:

﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾. (هود آية ٣٨ - ٣٩)

وأخذ نوح يعمل في بناء السفينة في هدوء وطمأنينة غير متعجل وغير متباطئ حتى أتمها

فكيف كانت السفينة طويلاً وعرضاً وارتفاعاً؟

انفق المنحدثون عن كيفية السفينة على ارتفاعها وأنه كان ثلاثين ذراعاً، وأنها كانت ثلاث طبقات كل طبعة عشرة أدرع، وقد تخصصت كل

طبقة فيها نوع معين، والطبقة السفلى للحيوانات، والطبقة الوسطى نوح وأهله ومن آمن معه، والطبقة العليا للطيور وكان بيها في عرضها، وكانت مغطاة من أعلاها.

وإذا كانوا قد اتفقوا على ذلك فإنهم احتلوا في نوع الخشب واختلفوا في طول السفينة وفي عرضها. أما التوراة فإنها حددت الخشب بأنه من خشب الصنوبر، وحددت التوراة أيضًا طول السفينة بأنه ثلاثمائة ذراع، وحددت عرضها بأنه خمسون ذراعًا وقد قال بذلك بعض علماء المسلمين وليس في نصوص الدين الإسلامي الصحيحة ما يتعارض مع ذلك، وبالرغم من هذا فقد قال مثلاً الحسن البصري

إن طوها كان ستمائة ذراع وعرضها ثلاثمائة ذراع.

وقال ابن عباس غير ذلك، ولايسد واحد منهم رأيه إلى نص من قرآن أوسنة.

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام أن البعثات العلمية أوربية وأمريكية لا تزال توالى البحث عن السفينة ولم تنته بعد إلى نتيجة مرضية.

\*\*\*

أمر الله نوحًا أن يصع الصنع حسب إرشاد الله وتعاليمه، لينجو فيه ومن آمن معه، وعرفه أنه سيهلك الملائ من قومه غرقًا.

فلما أتم نوح بناء السفينة جاء أمر الله إلى الأرض أن تصحر بماء.

والى السماء أن ترسل بالماء هطالاً، وأمر نوحاً أن يحمل فى سفينته من كل أنواع الحيوانات والطيور ، ذكراً وأنثى، وأن يستوى هو ومن معه فى السفينة، وأن يعلن بأن الحمد التام لكامل إيمان هو لله الذى نجاه ومن معه من القوم الظالمين.

وما أن بدأت السفينة تتحرك وتحمدها المياه، ونوح فى غمرة من الرضا والحمد، حتى حدث أمر لم يكن يتوقعه نوح ولم يكن له على بال. لقد رأى أحد أبنائه على مرتفع توشك المياه أن تغمره فصرخ فيه منادياً له.

﴿يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾

ولم يكن ابنه هذا قد آمن به، وبداء نوح له وإنما كان نداء للإيمان أولاً وبالذات

وما من شك فى أن كلمة «يا بنى» فيها الشفقة، وفيها العطف، ولكن الشفقة والعطف لم يلبعا بنوح عليه لسلام إلى أن يتسامح مع ابنه فى الركوب، ولو لم يؤمن، كلا، إنه يقول له فى لغة مفهومة:

الحق بالمؤمنين فى إيمانهم لتنجو فى سفينتهم ولا تمكث مع الكافرين فى كفرهم فيحقيق بك سوء خاتمته. ولو أراد نوح أن يأخذ ابنه رغباً عنه فى السفينة بفعل، إنه لو أراد أن بطرحه أرضاً ويوثقه كتافاً فيلقيه فى لسمية لأمكنه ذلك، ولكن لأمر لم يكن أمر نجاه جثمانية، وإنما كان أمر إيمان



ولم يكن لنوح على قلب ابنه من سبيل.

ولم يستحب الابن لأبيه، ولكنه أبى وعبد وقال:

﴿سأوى إلى جبل يعصمني من الماء﴾

فقال له الأب في شفقة متزايدة:

﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾

أى أنه لا رحمة اليوم، ولا عصمة من أمر الله إلا للمؤمنين، وأنه سيعم  
الفرق جميع الكافرين. ومع هذا البيان استمر الابن معاندا متكبرا.

ولم يفقد نوح الأمن في هداية ابنه وفي نجاته بسبب هذه الهداية، فأنجاه  
إلى الله راحيا متضرعا مستعطفا قائلا:

﴿رب إن ابني من أهلي، وإن وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين﴾.

وقول نوح عليه السلام: ﴿وإن وعدك الحق﴾، إنما هو إشارة إلى وعد  
الله له بنجاته ونجاة أهله معه، وفهم نوح أن أهله - إنما هم أهله من السبب،  
وعزب عنه في تلك الساعة، وهو يرى ابنه يوشك على الغرق، أن الله  
استثنى من أهله. ﴿من سبق عليه القول﴾.

أى من لا يهتد بنور الله فكان في سبق عدم الله من المالكين المفرقين.

وعزب عنه شيء آخر هو أن أهل الرسول إنما هم المهتدون بهديه  
أما من لم يؤمن، ولم يتبع هدى الرسول، فإنه ليس من أهله. وقد بهه الله

سبحانه إلى ذلك فعال له:

﴿إنه ليس من أهلك﴾.

علل الله سبحانه ذلك بقوله:

﴿إنه عمل غير صالح﴾.

إن الإيمان في الجو الديني رابطته أقوى من رابطة النسب.

\* \* \*

عندما أمر الله سيدنا نوحًا أن يبني سفينة ويأخذ فيها من آمن معه نفذ نوح ما أمره به الله سبحانه وتعالى وسارت السفينة في موج كالجبال، وحال الموج بين نوح وابنه الذي لم يؤمن برسالته وأبى أن يركب معه.. وغرق الابن مع الغارقين.

وكما غرق الابن فقد غرقت الروح، ولقد ضرب الله بها المثل للذين كفروا هي وامرأة لوط مذكرًا لكفر بأنها حين خانتا زوجيهما فإن الروحين نوحًا ولوطًا عليهما السلام - لم يغنيا عنها من الله شيئًا فقد أحدهما الله بذنبها، وقيل لها ادخلا النار مع الداخلين.

وقد يتساءل إنسان عن خيانة امرأة نوح ماذا كانت؟ والأمر في هذا سهل: إن النظام الإلهي في الزواج أن تكون الزوجة سكنًا وزوجها، وأن تكون مودة ورحمة، فإذا كانت سببًا في الضيق والشر واسوء قباها تكون قد خانت أي انحرفت عن الوضع الإلهي الخاص بالزواج.

هذه الحياة قد يكون أمرها هيناً في اوضع العام للزوج، حين يكون الزوج من الأفراد العاديين، ولكنها تبلغ الذروة في الصوء حين يكون الزوج من النبيين المرسلين، لأنها إذ ذاك تكون خيانة في حق الرسالة نفسها التي كلف الرسول بشرها، فتكون الحياة كفرًا، وقد كانت خيانه مرأه نوح كفرًا به وبرسالته، لقد كذبت وكذبت برسالته

ولقد سئل بن عباس رضى الله عنه عن خيانه امرأه نوح ما هى ؟ فقال كانت تقول روحى محنوں. ولقد كان مصيرها الفرق.

ولم يعن نوح عن ابنه، رغم حبه له، شيئاً.

ولم يعن نوح عن امرأته - رغم صلتها به - شيئاً

ولقد أبان الله سبحانه عن ذلك لأمر عدة:

الأمر الأول - أن العدالة الإلهية تأخذ المجرم بجريمته وتعاقب الآثم بإثمه، لا تنظر في ذلك إلا إلى العدل في ذاته، ولقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم معبراً عن الوضع الصادق:

والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها

وما ينبغي أن تكون القرابة أو الصلة أو الشعاعة سبباً في اهمال الآثم، أو سبيلا إلى عدم الضرب على يد المحرم.

الأمر الثاني: أن الروابط في المجتمع يجب أن تقوم على الحق والخير

والفضيلة، أو بتعبير آخر على الإيمان، فما كان الإيمان في يوم من الأيام إلا الحق والخير والفضيلة، لا على الأساب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول عن سلمان الفارسي:

سلمان منا آل البيت.

وما كان سلمان رضى الله عنه ذا صلة بسببة بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنه من آل البيت بخلفه ودينه، بخيرته وفضائله

وعلى العكس من ذلك أبو هب، فإنه مع صلته بالرسول صلى الله عليه وسلم فإن القرآن يقول عنه:

﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾.

والدين في أكثر من مناسبة يبين أن العبرة عند الله إنما هي التقوى:

﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَوْكُمْ﴾.

سارت السفينة في موج كالجبال، ولكنها سارت باسم الله بحريها ومرسأها، أي أن عناية الله رافقتها في سيرها فلم يحدث لها مايسوء.

ولقد كانت عناية الله ورعايته تراقب نوحًا في كل خطواته، فمضى صنع السفينة يقول الله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا﴾.

أي على مرأى من وبارشادنا في كل خطوات، فعناية الله كانت تراققه في بناء السفينة.

ويقول الله عن سير السفينة:

﴿تجرى بأعيننا﴾.

أى أن سيرها كان فى مجال لرعايه لإلهية وملاحظه لربانية، ولم تترك السفينة للعواصف تلعب بها ولا للأعاصير تدمرها.

هذه الرعاية والعناية كان يرافعها ويقابلها من نوح عليه السلام وصبيان ذكرهما الله سبحانه حيث يقول عنه

﴿إنه كان عبداً شكوراً﴾.

لقد حقق نوح عليه السلام العبودية لله سبحانه والعبودية لله سبحانه أشرف ما يوصف به الإنسان بالنسبة لله، وإن من حقها فقد حقق الذى من أجله خلق الله الإنسان والحان، يقول سبحانه:

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

أى لينتحفوا بالعبودية، فإذا ما تحفوا بالعبودية كفهم الله كل ما أهمهم. أترى إلى التعبير القرآنى كيف استعمل كلمة «عبد» وقال: ﴿أليس الله يكاف عبده﴾.

لقد تحقق نوح عليه السلام بالعبودية لله، ومن أحمل مظاهر العبودية الشكر لله سبحانه وتعالى.

ولم يكن نوح عليه السلام عبداً شاكراً وإنما كان عبداً شكوراً، وذلك

أن شكورًا أبلغ في الشكر من شاكر، والله سبحانه وتعالى يقول  
﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾.

ولقد كان من مظاهر شكره لله سبحانه وتعالى كثرة صيامه.  
روى ابن ماجه بسنده عن عبد الله بن عمرو قال:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى، وصام داود نصف الدهر،  
وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر، صام الدهر وأفطر الدهر.  
ومعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم عن إبراهيم عليه السلام،  
صام الدهر وأفطر الدهر. أنه ما دامت الحسنة بعشر أمثالها فصوم يوم  
إغنا هو بمثابة صوم عشرة أيام، وصوم ثلاثة أيام من كل شهر إذن، ثم بمثابة  
صوم كل شهر، فكأن إبراهيم عليه السلام قد صام الدهر كله، ومع ذلك  
فإنه لم يصم من كل شهر إلا ثلاثة أيام وهي أيام قليلة فكانت قد أفطر  
الدهر كله.

نير قصة سفينة سيدنا نوح عديدًا من التساؤلات. كم يومًا سارت  
السفينة؟ أين موقع لجودي الذي رست عليه، هل شمل الطوفان الأرض  
جميعها؟ هل كان سكان الأرض بعد الطوفان كلهم مؤمنين؟.

عندما جاء أبناء الإلهي للأرض أن تبتلع ماءها، وللسماء أن تكف عن

إرسال المطر، أخذ الماء في القمصان، واستوت السفينة على الجودي، والجودي - كما يقول صاحب القاموس - «جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام ويسمى في التوراة أراط. ا هـ».

أما عن عدد الأيام التي سارها اسفينة فعلم ذلك عند الله، وكل قول فيه إنما هو ضرب من التحمين..

هإذا عدنا للتساؤل عن الطوفان، هل كان عامًا شمل العمورة كلها أو كان خاصًا بالإقليم الذي كان به نوح؟ نجد أن الإمام محمد عبده يعرض لهذا الموضوع ويبين أن أهل الكتاب وعلماء الأمة الإسلامية يجمعون على أن الطوفان كان عامًا لكل الأرض وقد وافقهم على ذلك كثير من أهل النظر، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المسحورة في أعالي الجبال، لأن هذه الأشياء مما لا يتكون إلا في لبحر فظهره في رؤوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عم الأرض.

ولكن بعض أهل النظر من التأخرين يرى محالمة هذا الرأي، ويقول إن الطوفان لم يكن عامًا، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها

وأيا كان الأمر فإنه عندما رست السفينة قيل:

﴿يَا نُوحُ اهْبِط بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّنْ مَّعَكَ﴾

ونزل نوح ومن معه في رعاية الله وعنايته، وقد ظهرت لأرض من الشرك، ومن لأوثان والأصنام، ومن الشر على جميع أنواعه

مرلوا وليس على وجه الأرض كافر، وأحدوا يعملون ويعبدون..  
ولقد ذكر عن الرسول صلى الله عليه وسلم حديث صحيح معناه..  
أن نبي الله نوح لما حضرته الوفاة قال لابنه:  
ي فاص عليك وصيه: أmerk باشتين، وأنهاك عن اشتين..

مرك بلا إله إلا الله، فإن السماوات السبع والأرضين السبع  
لو وصعت في كفة، ووصعت لا إله إلا الله في كفة، رجعت هين لا إله  
إلا الله..

وأمره بسبحان الله وبحمده، فإن بها صلات كل شيء وبها يرزق  
الخلق

وأنهاك عن الشرك، والكبر.  
فيل يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر؟ هل هو أن يكون  
لأحدنا نعلان حسنان وشراكان حسنان؟  
فقل: لا..

فيل: أهو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟  
قال: لا..

فيل: أهو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟  
قال: لا..



قيل: هل هو أن يكون لأحدنا أصحاب يحسون إليه؟

قال: لا..

قيل: يا رسول الله: فما الكبير؟

قال سفة الحق وغمط الناس، أى التكذيب بالحق والتعالى على الناس.  
مما تقدم ومن حديث النبي عليه الصلاة والسلام عن نوح عليه السلام  
يتبين أن الله سبحانه طهر الأرض من الكفر بالطوفان وعاد بنو البشر إلى  
التوحيد.

\*\*\*

عندما جاء الطوفان على أيام سيدنا نوح، طهر الله العالم الأرضى مدة  
وروحاً. طهره مادة بهذا الطوفان الذى كان فيه الموج كالجبال، وطهره  
روحاً بأن دمر الشرك بالفرق الذى لم يترك على ظهر البسيطة كافرًا باقه،  
وعاش هذا الجيل من المؤمنين مع سيدنا نوح فى أمن وروحى وفى نعيم ماضى.  
ولقد كانت الثقة متبادلة.. وكان التعاون تماً، وكان الإيمان مسيطراً  
وكانت تعاليم لسماء مطاعة والزمين يمر فى رخاء.

- ولكن كم استمرت هذه الحياة سعيدة. لا شك أنها استمرت  
بطبيعة لجان مدة حياة نوح عليه السلام استمرت طيلة حياة الجيل  
الأول.

- ولكن الناس هم الناس أيما كانوا، فما أن نشأ الفتيان والفتيات حتى بدأ التنافس والسارع من أجل المال والثراء. ومن أجل لجمال والاستمتاع به

ومن أجل الجاه والنفوذ والسيطرة والاستعلاء، فالتحكم في الزعات والأهواء ليس من السهولة بمكان، والتسامي بالفرائض صفة لا ينالها إلا أولو العزم.

وما من شك في أن الانحراف لم يشأ طفرة، بل نشأ بصورة معللة على مر الزمن، وأخذ طريقين متلازمين متفاعلين يزيد كل منهما بزيادة الآخر وهما طريق العقيدة وطريق الأخلاق.

- ولا ريب أن أساس الانحراف إنما هو العقيدة، ومن أجل ذلك كان إصلاح العقيدة إصلاحاً للأخلاق وكان فساد العقيدة فساداً للأخلاق.

- بدأ الانحراف في العقيدة مسجهاً نحو لشرك.

- بدأ الانحراف في الأخلاق متجهاً نحو الكبرياء والتعاهر والترف الفساد.

- وتركز هذا الانحراف أقوى ما يكون في إقليم عربي سماه القران بالأحقاف فبلغ فيه قمته.

كان هذا الإقليم في اليمن بين عمان وحصر موت، وكان أرضاً

وودياناً مطلة على البحر تسمى الشحر.. وقد سمي هذا الوادي أيضاً باسم  
له مغزاه وهو اسم مغيث. فقد كان غيثاً بالخير والنعم

- كان يسكن هذا الوادي قبيلة تسمى عاد، وقد منحها الله من نعمه  
الكثير، أما من ناحية إقليمهم فقد هياهم الله لهم وادياً أمدهم فيه بأنعام  
وبنين، ومنعهم فيه بحبات وعيون، ورادهم الله في الخلق بسطة، فجعلهم  
ضحام لأجسام أقوياء، وكانوا من لقوة بحيث قالوا يوماً ما في خيلاء  
وفخر:

﴿من أشد منا قوة﴾.

- ولما كان الله قد وهر لهم كل أسباب الحياة طيبة الماعمة وعمر عن  
ذلك سبحانه بقوله:

﴿وأترفناهم في الحياة الدنيا﴾

كان من المنتظر أن يحمدا الله ويشكروه على هذه النعم الظاهرة  
والباطنة.

ولكن صدق الله العظيم إذ يقول:

﴿إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى﴾.

أي ان الإنسان إذا رأى نفسه في غنى ونعيم طغى وبغى وقد كان هذا  
شأن عاد.

## هود

### عليه السلام

يروى ابن حبان بسنده عن أبي در عن الرسول صلى الله عليه وسلم حديثاً طويلاً خاصاً بالأنبياء والمرسلين يقول فيه .

مهم أربعة من العرب هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أباذر.

وهود عليه لسلام هو النبي العربي الذي أرسله الله إلى عاد القبيلة العربية وهي من العرب العاربة.

والعرب العاربة هم العرب الذين كانوا قبل نشأة إسماعيل عليه السلام ومهم عاد وتمود.

أما العرب الذين كانوا بعد إسماعيل ومن ذرية إسماعيل فهم العرب المستعربة.

ولقد بلغ الاحراف بقوم عاد أن أشركوا بالله وعبدوا الأصنام فكانوا بذلك أول من عبد الأصنام بعد الطوفان فأرسل الله لهم هوداً عليه السلام.

- وأخذ هود يبشر بالتوحيد شأنه شأن الأنبياء جميعاً فقال لهم:  
﴿يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ (الأعراف آية ٦٥).

وكان موقف السادة الكبراء أو على حد التعبير القرآني كان موقف الملأ  
الدين كفروا من قومه، العداوة والبغضاء والرمى بالسفاهة والكذب.  
- ولم يبأس هود منهم وإنما أخذ يذكرهم بنعم الله انظاهرة والباطلة  
التي ينقلبون فيها والتي تستوجب الحمد والشكر.

وأعلن لهم قانون الاستغفار والتوبة مبيناً زاوية أخرى - غير الزاوية  
التي ذكرها نوح عليه السلام من قبل - وهي زاوية زيادة القوة.  
- ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم  
مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ (هود آية ٥٢).

ثم هددهم بالقانون الإلهي الثابت وهو أنهم إذا أعرضوا ورفضوا وأبوا  
واستكبروا فإن عقاب الله لا ماص يارل بهم وبلك سنة الله في خلقه.  
- ومع ذلك فلم يستحيوا لنعمه ولا لتهديده واستمروا يتابعون  
أهواءهم فينبون على لروبي والمرتفعات قصوراً هي ابات في القس،  
ويصنعون من أدوات الزينة ولترف كل ما تهمر إليه النزعت وتنطبه  
الأهواء.

وظلوا سادرين في غيهم لا يستحيون لنداء الحق ولا يرجعون عن الباطل.

- بل عادوا في باطلهم، وسخروا من هود عليه السلام ومن اتبعه، وأعلنوها صريحة سافرة.

- ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾  
(المؤمنون آية ٣٧).

وطلبوا من هود عليه السلام أن يعجل لهم العذاب الذي وعدهم به - وفي يوم من الأيام رأوا في أفق السماء شيث أشبه بسحابة داكنة ظلوها سحابة ممطره لكنها كانت الريح المدمرة المهلكة، لقد أهلكهم الله بريح باردة شديدة سخرها عندهم سبع ليال وثمانية أيام متتابة لا تهدأ ولا تفتقر فصرعتهم جميعاً ولم تبق من الكافرين أحداً ونحى الله هوداً ومن آمن معه.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا عصفت الريح:  
اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك  
من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به.

## صالح عليه السلام

- انفصل حيش المسلمين عن المدينة مسرعاً في اتجاه تبوك وكان على رأسه الرسول صلى الله عليه وسلم قلماً وصل إلى الحجر عند بيوت ثمود بعد أيام من رحلته نزل الناس يستقون من آبارها ويتزودون من مياهها وعذبوا منها وبصبو، القدور بها، أما الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه لما قرب منها قنع رأسه وأسرع راحلته ونه الناس إلى أن دخول مثل هذا المكان يقتضى التفكير لما مر به من أحداث وعظمت وعبر تدمع لها العين ومحزن لها القلب وتغلاً لإسار بخشية الله والخوف من عذابه.

ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المسلمين تزودوا من مياه الآبار وعذبوا منها وجعلوه في طعامهم ينضجونه على النار يادى الناس قائلاً:

لا تشربوا من مائها شيئاً، ولا تتوضأوا منه للصلاة، وما كان من عجين

عنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً ولا يخرج أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له .

ويقول بن هشام: لما مر الرسول صلى الله عليه وسلم بالحجر سجد ثوبه على وجهه . أى غطاء به - واستحث راحلته ثم قال : لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم

ما قصة هذا المكان.. ومن هم أهله؟

أما المكان فهو الحجر فيما بين الحجاز وتبوك، أما أهله فقوم وهى قبيلة من العرب العاربة، كانوا رسمياً بعد عاد قوم هود، وقد انحرفت بهم العفيدة وانحرفت بهم الأخلاق ونزلوا إلى المستوى الذى لا يتناسب مع بنى الإنسان فعبدوا الأصنام.

وأرسل الله لهم النبى العربى الثانى الذى نشأ فى الجزيرة وهو صالح عليه السلام. وأخذ صالح يبشر برسالة التوحيد:

﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهِ﴾ (هود آية: ٦١).

وأخذ صالح يذكرهم بنعم الله عليهم ويقول:

لقد جعلكم الله حلفاء الأرض بعد أن دمر عاداً حين كذبت برسولها.. ولقد أحلكم الله فى قلم من الأرض تتخذون فيه قصوراً تشيدونها فيها الترف والنعيم.. ولقد مكنكم الله من الجبال تنتحون فيها البيوت التى تمتاز



بعوها الرطب في الصيف فتقيكم الحر وقتاز بعوها الدافئ في الشتاء  
فتقيكم البرد.

أتركون فيها ها هنا أمين، في حنات وعيون.. وبخيل محملة بالثمار؟  
أتركون في هذا النعيم الذي أسبغه الله عليكم ثم تكفرون، وتعبدون  
غيره؟

هل يتأتى ذلك في منطق الحق؟

كلا.. لا بد من أن تعبدوا إلى الله حتى يستمر في الإِنعام عليكم وحتى  
يبقيكم في هد النعيم وإلا فلا تلومن إلا أنفسكم

واستمر صالح يبشر برسالة التوحيد والخير فاستجاب له أهل الصدق  
من نُمود

بدأ نبي الله صالح يبشر برسالة التوحيد في وسط مشرك يعبد الأصنام،  
ولقد اجتهد ما شاء الله له أن يجتهد. مذكراً بنعم الله تعالى التي تتوالى  
على هؤلاء الذين أقامهم الله في جنات وعيون مهيئاً أنه في دعوته رسول  
أمين ويعلى:

﴿وما أسألكم عليه من أجر، إن أجرى لا على رب العالمين﴾  
(الشعراء: آية ١٠٩).

إنه لا يطالب بدين ولا مال، ولا يزاحمهم في حاه ولا رئاسة، ولا يريد

منهم إلا أن يتقوا الله ويطيعوه، فطاعته إنما هي طاعة الله لأنه مجرد رسول من لده

وآمن به بعض الدين استضعفوا، ووقفوا جبهة واحدة في وجهه جميع الملأ الدين استكبروا من قومه يناقشون ومجادلون، ويكذبون ويقولون للذين استضعفوا لمن آمن منهم:

﴿أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه﴾.

فردون عليهم: ﴿إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾.

وفي يوم من الأيام دخل عليهم صالح وهم مجتمعون في ناديتهم وأخذ يدعوهم، فاعلموا أنهم لن يؤمنوا، لا إذا أتى لهم بمعجزة قائلين: ﴿ماأنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين﴾ (الشعراء آية. ١٥٤)

ولم يكتفوا بهذا بل اختاروا هم المعجزة، وذهب بهم خيالهم ما شاء لهم أن يذهب.. لقد اقترحوا عليه أن يأتيهم بآفة صحمة تشرب ماء البئر اليوم لنحيله إلى لبن في العدة.

وكان نسي الله صالح حريصاً على هدايتهم، محباً لصلاحهم، فأخذ يدعو الله متضرعاً أن يحقق المعجزة، أخذ يدعو الله وهو الذي أعلن:

﴿إن ربي قريب مجيب﴾.

واستجاب له القريب المحيب وأرسل الناقة، وأعلن صالح أنها ناقة الله  
دعوها تسرح وتأكل في أرض الله.. ﴿ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب  
أليم﴾. (الأعراف آية: ٧٣)

لكنهم لم يؤمنوا، فإن الكبرياء كانت قد تمكنت من قلوبهم بحيث  
أصبح لا فكاك لهم عنها، وكمن للناقة أحدهم فرماها بسهم أصاب ساقها،  
وشد عليها آخر بسيفه فتحرها، ووصل بهم الاستهتار أن طلبوا إلى صالح  
عنه السلام أن يحقق لهم ما وعدهم به من عذاب فقال صالح:  
﴿ثمتعوا في داركم ثلاثة أيام، ذلك وعد غير مكذوب﴾ (هود آية:  
٦٥).

فما انقضى الأيام لثلاثة، وعند شروق الشمس أخذت لذين ظلموا  
صيحة من السماء من فوقهم، يصحبها رجفة من الأرض من تحتهم فماتوا  
عن آخرهم..

وبحى الله صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منه

## إبراهيم عليه السلام

يقول الله تعالى:

﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً﴾ (مريم آية: ٤١).

نشأ سيدنا إبراهيم بإقليم بابل وعاصر عهد الملك الخبار: انمرود  
وشب سيدنا إبراهيم على عين الله ورعايته، وآتاه الله رشده في سن مبكرة  
ثم آتاه الله النبوة، ووصفه بأنه صديق..

وصديق كلمة لها جانبان: جانب الصديق، وجانب التصديق.

ولقد كان إبراهيم عليه السلام صادقاً لا يكذب.

أما جانب تصديق، فإنه الإيمان اليقيني المباشر السريع بالأخبار التي  
تُرد عن الله سبحانه، أو عن أحد المعصومين، وهو الاعتقاد اليقيني السام  
فيما لا يقتضى عملاً، وتنفيذ ما يترتب على الاعتقاد من عمل فيما إذا  
اقتضى عملاً

وما من ريب في أن الاعتقاد اليقيني يتمخض حتماً عن عمل إذا استلزم الأمر ذلك

ولقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا أبا بكر بالصديقية، ولقد كان سيدنا أبو بكر صادقاً لا يكذب، وكان يسارع إلى تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما يخبر به، وكان يسارع إلى العمل بما تقتضيه الأخبار إن كانت تقتضي عملاً.. وكان وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا أبي بكر بالصديقية في مكة قبل الهجرة بمناسبة حادثة معينة هي حادثة الإسراء.

ففي يوم من الأيام رأى أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً فجاء حتى جلس إليه وقال له كالمستهزئ:

هل كان من شيء؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم.

قال: ما هو؟

قال: إنه أسرى في الليلة.

قال: إلى أين؟

قال: إلى بيت المقدس.

قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟

قال: نعم.

قال. فلم ير أن يكذبه مخافة أن ينكر الحديث إذا دعا قومه إليه.

قال: أرايت إن دعوت قومك تحدثهم بما حدثتني؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم. نعم.

عندئذ انطلق أبو جهل إلى قريش فقال: هيا يامعشر بني كعب بن لؤى فانتفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما.

فقال أبو جهل: حدث قومك بما حدثتني.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني أسرى في الليلة.  
قالوا: إلى أين؟

قال: إلى بيت المقدس

قالوا: ثم أصبحت بين ظهرايين؟

قال: نعم.

فإذا بالقوم بين مصعق. وبين واصع يده على رأسه متعجبا..

يقول الحسن: إنه في يوم الحديث عن الإسراء: ارتد كثير ممن كان أسلم! وذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا له. هل لك يا أبا بكر في صاحبك؟ إنه برعم أن قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة.

فقال لهم أبو بكر إنكم تكذبون عليه.

فقالوا: لا، ها هو ذلك في المسجد يحدث به الناس

قال أبو بكر والله لئن كان قاله: لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك؟

فوالله ليحبرى أن الخبر ليأتيه من لسماء إلى الأرض في ساعة من ليل  
أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه.

ومن يومئذ سمي أبو بكر رضى الله عنه بالصديق.

ولقد كان سيدنا إبراهيم عليه السلام صديقاً تتمثل فيه جانباً الصديقية

وهذا الصديق وسرعة التصديق لخبر الله تعالى.



لقد تساءلنا في نهاية الحديث الماضى عن مظاهر الصديقية في حياة

سيدنا إبراهيم. وأول مظهر يحدث عنه هو امتثاله عيه السلام لأمر الله في

مجابة قومه بأن دينهم باطل وأن عبادتهم فاسدة، وأن آهتهم مزيفة

لقد كانوا يعبدون الأصنام. كانوا يعبدون أحجاراً ينحتونها بأيديهم ثم

يسجدون لها، واتجه إبراهيم عليه السلام، أول ما اتجه، إلى أبيه، وكان

حريصاً على هديه محباً لصلاحه، فخاطبه قائلاً.

﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئٌ﴾ (مريم

آية: ٢٤).

وشرح لأبيه أنه مرسل من قبل الله، وأنه يعلم عن الله ما لا يعلمه أبوه وأنه يدعو إلى الله، وأن من اتبعه فإنه ينبع الطريق الذي رسمه الله للهداية ولرشد وشرح لهم أن عبادة الأصنام إنما هي اتباع لاغواء لشيطان، وسير في طريق إبليس، فهي في الواقع عبادة لإبليس نفسه لأنه الذي زين هذا الطريق وحببه إلى نفوس الصالحين

ثم بين أن مآل العصاة أن يحل بهم عذاب الله، وأنه يخاف على أبيه أن يحسبه عذاب منه، من أجل ذلك يدعو إلى الأسلوب الرباني في العبادة. ولكن الآلهة والعادة كان قد تمكنا من نفس أبيه، ولهما منطقها الذي لا يستند إلى غير الآلهة والعادة، فقال لإبراهيم،

﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم، لئن لم تنته لأرجمنك﴾ (مريم آية: ٤٦)

ثم أمره بأن يذهب عنه ويفارقه إذا لم يكف عن دعوته تلك. وما كان إبراهيم عليه السلام أحق أو سفيهاً، وما كان عاقلاً لأبيه ومن أجل ما فطر عليه من هذه الصفات الكريمة كانت إحابته لأبيه.

سلام عليك أي أنبي بالسببة لك سلام تدم فلن أسوء إليك، ولن أحاول القيام بما تكره، بل بالعكس من ذلك سأستغفر لك رب عسى أن يغفر لك ويتوب عليك، فإنه سبحانه كان بي حقياً: أي لطيفاً، وهو سبحانه دائماً لطيف لعباده الذين يحققون العبودية له لا لغيره



على أنى سوف أعتزلكم فى عبادتكم، ولن أدس جبهتى بالسجود لهنم وإنما سأتجه بعبادتى ودعائى إلى الله وحده، وأرجو أن أنجو من عذابه ولن أكون بدعاء ربه شقيًا.

واستمر إبراهيم يستغفر لأبيه برأ به، وشفقة عليه فلما تبين له أنه عدو الله كف عن الاستغفار وتبرأ منه..

روى الإمام البيهقى بسنده، عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قفرة وغبرة، فيقول له إبراهيم:

لم أقل لك لا تعصنى؟

فيقول (له) أبوه: فليوم لا أعصيك.

فيقول إبراهيم يارب إلك وعدتى أن لا تخزىنى يوم يبعثون، فأى خرى أخزى من أبى الأبعد؟

فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين

ثم يقال يا إبراهيم ما نحت رجلحك؟ فينظر فإذا هو بذبح مسلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار.

لم يستسلم إبراهيم إلى اليأس حين رأى موقف أبيه منه مع أنه أقرب

الناس إليه، وما من شك في أن أصحاب الهمم العالية لا يستسلمون إلى اليأس، فإذا ما سدت في وجوههم بعض المواقف حاولوا أن يعالجوا نوافذ أخرى عليهم يسبحون في صحتها بل إن العصبية تزيد أرباب الهمم العالية عزماً على عزم ونشاطاً مضاعفاً.

الحمد سيدنا إبراهيم إلى قومه بعد أن لم يسبح مع أبيه، انجبه إلى قومه قائلاً:

﴿اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ (العنكبوت آية: ١٦).

ثم اخذ يبين لهم أن لدى يعبدونه إنما هو أصنام نحتوها بأيديهم، وأنهم حين يسمونها آلهة، فإنهم يكذبون على أنفسهم، وعلى الحق فهؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله، الرزق، واعبدوه وحده لا شريك له، وشكروا له إحسانه فإنكم راجعون إليه لا محالة

وإذا كذبتهم فإن ذلك له أمثلة سبقتم إن إنما من السابقين كذبوا رسلهم فأتاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ويندمون حيث لا ينفعهم الندم..

ثم ما شأن هذه الأصنام؟

هل يسمعونكم إذ تدعون؟

هل ينفعونكم أو يضرون؟

بل أملكون لأنفسهم نفعًا، أو ينعون عن أنفسهم ضرًا؟

إنتى برىء منهم جميعًا، إنهم عدو لى إلا رب العالمين، إنه هو الذى خلقنى، وهو الذى يهدينى سواء السبيل..

ثم إنه هو الذى يررقنى فيطعمى ويسقن، وهو الذى يملك الشفاء، وإذا مرضت فهو يشفين

وهو الذى بيده أمر الإنسان: إماتة وأحياء، وهو الذى يأمر بالتباعد سبيله.

أطمع أن يعرف لى خطيئى

﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾

وما كان جواب قومه إلا أن قالوا-

﴿وجدنا آبائنا لها عابدين﴾.

لقد أقرروا بأجابتهم هذه أن أصنامهم لا تسمع لمن يدعوها ولا سمع من عبدها، ولا تضر من كفر بها أو اعتدى عليها، ولم يأخذهم الخجل حينئذ عترفوا بأن الحامل لهم على عبادتها مجرد الاقتداء بسلافهم الذين سبقوهم فى الضلال والاحراف.

والواقع أن التقليد، والعادة، والالتف هى العقبات الصعبة فى طريق

المصلحين وقد كن ذلك منذُ ن بدأ المصلحون دعوتهم، ولقد كان بعض ما صادف رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته، لقد قالوا له هم أيضا:

﴿حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا..﴾

ويرد القرآن عليهم في صوره لاذعة فيقول:

﴿أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون﴾ (المائدة آية: ١٠٤).

إن النفوس إذا ألفت شيئا فترة طويلة من الزمن لم يكن من السهل انصرافها عنه..

والإلف - لا العقل ولا المطلق - هو الذي يعرقل دائما المصلحين خلال التاريخ، وإن الذي يرلزل الإلف إنما هو شعور الإنسان بالمسئولية.

ومن أجل ذلك حاول كل الأنبياء أن يشعروا الإنسان بأنه مفكر وأنه مسئول عن كل تصرفاته ومحاسب على أعماله وكل إنسان بما كسب رهين.

جاء الأمر لإلهي إلى إبراهيم عليه السلام أن يحطم الأصنام

وأخذ إبراهيم ينتظر إتاحة الفرصة التي تمكنه من تنفيذ الأمر الإلهي. وما كن سقيده هذا الأمر بالشيء الهين، فإنه لو بدأ في تحطيمها على مرأى منهم لحطموه قبل أن يحطمها فلا ماص من انتظار الفرصة..

ولقد كان يعلم أن هذه العرصة وشيكة الحدوث فقد كان لهم عيد يحتفلون به في كل عام خارج مدينتهم وكانوا يذهبون إليه فتخلو المدينة أو تكد، ولما جاء يوم العيد وخرجوا يلهون ويعيشون ويحتفلون أسرع إبراهيم عليه السلام بعدته التي كان أعدها من قبل إلى قصر الأصنام فوجد عجباً:

لقد وجد القوم قد وضعوا طعاماً أمام الأصنام قرباناً إليها، فأخذ يسخر من عقليات قومه التي صبقتها العادة وأثر فيها الإلف إلى هذا الحد يخاطب الأصنام قائلاً:

﴿ألا تأكلون؟ مالكم لا تنظفون؟﴾ (الصافات آية: ٩١، ٩٢).

ثم أخذ يحطمها صنماً صنماً، وأخذت تنهاوى تحت معوله واحداً واحداً حتى أصبحت حطاماً. اللهم إلا الصنم الأكبر فإنه لم يصبه بسوء وذلك لحكمة قدرها في نفسه..

ورجع القوم من عيدهم ورأوا ما حل بالأصنام وتساءلوا:

﴿من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين﴾ (الأنبياء آية ٥٩)

وحاء الرد من البعض.

﴿سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ (الأنبياء آية ٦٠).

وأسرعوا إلى إبراهيم في غضب وغبط، رأوا به في لساحة الكبرى

وكانت قد متلات بالناس، وهذا ما كان يتوقعه، ويوحود إبراهيم  
تكون المناقشة علنية، وفي أكر جمع ممكن.. وسألوه:

﴿أأنت فعلت هذا بأهنت يا إبراهيم﴾؟ (لأنبياء: ٦٢).

وبلغت سخريته بهم قمعتها فقال:

بل فعله الصم لأكر الذي تبقى سماء، لقد نار غضبه عليهم، فقام  
إليهم وفنك هم فم يدع منهم إله إلا حطمه، واسألوهم عن السر فهم به  
أعلم، لأنهم هم الذين نالهم الأذى، وهم يعرفون من الذى فعل بهم ذلك.  
اسألوهم إن كانوا يطقون..

وأدركت القرم عند ذلك حيرة شديدة، وعادوا إلى أنفسهم باللوم  
ولعتاب، وجالب بارقة من التفكير المستقل الحر بأدهامهم، وأوشكوا أن  
يعترفوا باحق المحص بل لقد قالوا لأنفسهم إنكم أنتم الظالمون..  
لكن سرعان ما استعاد الالف والتعديد والعادة المكاة الأوى من  
نفوسهم فبكسوا على رءوسهم وعادوا إلى ضلالهم، وقالوا فى انفعال  
وغضب:

﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ (لأنبياء آية: ٦٥).

وكانت فرصة نبيسة أن يسأل إبراهيم هذا الجمع وهذا الملائة قائلًا فى  
تهكم لادع.

﴿أفتعبدون من دون الله م لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم.. أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾؟ (الأنبياء آية ٦٦، ٦٧).

حطم إبراهيم الأصنام تبعاً لأمر الله، فأى به قومه على أعين الناس ليحاكموه وليشهد الناس بحاكمته، فجادلهم وسخر منهم، فما كن منهم إلا أن قالوا: ﴿احرقوه وانصروا آلهتكم﴾

لقد استقر رأيهم على إلقائه في النار ليموت حرقاً.

ولقد روى القرآن عنهم أنهم قالوا أبصاً.

﴿ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم﴾ (الصافات آية ٩٧)

لقد كان الجو في غاية من التوتر، فقد سفه إبراهيم أحلام الملائ من قومه وسخر بأهنتهم فأثار في نفوسهم عيظاً مكبوتاً، وما أن صدر الحكم حتى حاول كل واحد أن يساهم فيه.

وما من شك في أن التفاصيل التي يذكرها من كبر عن القصة لا يستند كثير منها إلى أصل موثوق به، ولكن لا بأس من أن نذكر من هذه التفاصيل، أنه حينما اجتمع الملائ الدين كفروا من قوم إبراهيم وعلى رأسهم التمرد، وأصدروا الحكم أخذوا يهثون وسيلة التنفيذ، فحبسوه في بيت وبنوا بنياناً بقرية يقال لها «كوش» ثم جمعوا - كما يقول الشيخ الصاوي - صلاب الخشب وأصاف الخشب مدة شهر، حتى كان الرجل يمرض فيقول: لو عوفيت لأجمعن حظاً لإبراهيم، وكانت المرأة تعزل

وتشتري الخطب بفزلها احتساباً في دينها، وكان الرجل يوصى بشراء الخطب وإلقائه في المكان الذي ستشعل فيه النار

فلما جمعوا ما أرادوا أشعلوا في كل ناحية من الخطب ناراً فاشتعلت النار واشتدت حتى أنه كان الطير ليعمرها فيحرق من شدة وهجها وحرها، فلما أرادوا أن يلقوه فيها أعيهم الخيل في كيمية إلقائه فصنع لهم رجل من الأكراد يسمى «هيرن» مكنياً فعمدوا إلى إبراهيم فأخذوا يفيدونه ويكتفونه، وهو يقول - حسبنا رواد العالم الثقة بالإمام ابن كثير - لا إله إلا أنت سبحانك، لك الحمد ولك الملك، لا شريك لك

ويروى الإمام البخاري بسنده عن ابن عباس أنه قال:

﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد حين قيل له:

﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾ (ال عمران آية: ١٧٣-١٧٤).

أما الشيخ الصاوي فإنه - من جانب - رأى إبراهيم صورة من صور الإخلاص لله ولاستجابة له والتفاني في طاعته وهو يوشك أن يلقى في النار، ورأى من جانب آخر أعداء طغاة ظلمة يوشكون أن يلقوا به في النار فأخذ يذكر الأمر في صورة شاعرية، وذلك أنهم حينما كانوا على وشك



قذف إبراهيم عليه السلام في النار صاحت - كما يذكر - السماء والأرض  
ومن بينهما من الملائكة وجميع الخلق لا الثقلين صيحة واحدة.

أى ربنا إبراهيم خليلك يلقى في النار وليس في أرضك أحد يعبدك  
غيره فأذن لنا في نصرته

فقال الله تعالى . «إنه خليلي ليس لى خليل غيرى وأنا الإله ليس له  
إله غيرى.. فإن استغاث بأحدكم أو دعاه فلينصره فقد أدنت له فى ذلك،  
وأن لم يدع غيرى فأنا وليه وأنا أعظم به ، فخلو بينى وبينه  
وماذا حرى بعد هذا؟

إنه حميل ذك التصوير العاطفى الذى صورت به تلك اللحظة الحاسمة  
التي أوشك الطغاة أن يلقوا فيها إبراهيم فى النار، فإن إبراهيم - فيما رأى  
هؤلاء الكتابيون - صورة للبراءة البريئة لتي يوشك الغاشعون أن ينكلوا  
بها فى صورته بشعه إرصاء لاهوتهم، وإشباعاً لجبروتهم وهذه الصورة على  
هذا الوصف تستثير دائماً كتاب العاطفة فيتمسون فى التصوير والعرض..

لقد كان إبراهيم عليه السلام فى هذه اللحظة محل عناية الملائكة الحلائق ما عدا  
الثقلين، وكان على الخصوص محل عناية الملائكة، وقد استأذنوا الله فى  
نصرته فأذن الله لهم بشرط ألا يتدخلوا فى الأمر، لا إذا طلب إليهم  
إبراهيم ذلك

وأناه الملك الموكل بالمياه ولطر، وعرض عليه أن يطفئ النار بمطار

من السماء وبمياه تنفجر من الأرض، ورد عليه إبراهيم بأن لا حاجة بي إليك: حسبي الله ونعم الوكيل

رأه ملك الهواء وعرض عليه أن يرسل لريح عاصفه مرللة فتطير النار في الهواء، فقال له إبراهيم

لا حاجة بي إليك: حسبي الله ونعم الوكيل..

وأناه جبريل عليه السلام يعرض عليه كثيراً من وجوه الإنقاذ، وقال له: ألك من حاجة؟ ويرد عليه إبراهيم.

أما إليك فلا..

ويرى جبريل الموقف، ويشفق على إبراهيم، ويؤمن أن إبراهيم لو دعا ربه لاستجاب، ولكنه لا يسمع دعاء ولا يرى تضرعاً فيقول له. فاسأل ربك!

ويرد إبراهيم: حسبي من سؤالى عنده بحالى..

هذه الصورة لإبراهيم هي حق صورة الرجل الذى ألقى بقاده تأملاً كاملاً إلى الله سبحانه، إنه الرجل الذى يفد ما يؤمر به من غير تردد ولا فتور، وينتهى عما ينهى عنه في تصميم وعزم، ولا يسأل غير الله أحداً، بل إن ثقته بعلم الله الكامل المطلق الشامل تمتعه من سؤاله، والله سبحانه وتعالى يقول في حديث قدسى:

«من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفصل ما أعطى السائلين..»

ولقد كان إبراهيم عليه السلام مشغولاً بذكر الله عن مسألته. وكان إبراهيم عليه السلام مهوياً بالأمر إلى الله تفويضاً كاملاً، مسلّ وجهه إليه إسلاماً تاماً ومن أحل ذلك جاء الداء الإلهي.

﴿يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾.

وانظر إلى التعبير الإلهي، إنه سبحانه لم يقل يا نار كوني برداً على إبراهيم، ولو كان هذا هو التعبير لادته النار ببردها، ولكنه سبحانه وهو حكم الحاكمين - أضاف إلى ابرد السلام فكانت برداً غير صار، وكانت سلاماً ممتعاً..

وما من شك في أن الله سبحانه لا يخلى عن عباده المخلصين في هذه اللحظات الحاسمة، وهو سبحانه الذي يقول.

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾  
(الطلاق آية: ٢).

أي يجعل له مخرجاً من كل ضيق، ومن كل أزمة، ومن كل كرب، ومن كل عَم، وييسر له وسائل الرزق بحيث يأتيه من حيث لا ينتظره.

لقد ألقى إبراهيم في النار ولا يتأثر أن نحرم القارئ الكريم من لصویر اللطيف الذي رسمه أسلافنا لفرة مكث إبراهيم في النار..

قضيه إبراهيم عليه لسلام هي فضيه دع إلى الله، أمره سبحانه  
بتحطيم الأصنام فحطمها، طاعة لأمر الله، وهو في سلوكه محب لله، متفان  
فيه، يجاهد بكل ما يملك في سبيل هداية الناس إلى الله.

وهاهم أولاء الطاعة، يوثقونه كُتُاعًا، ويلقونه في النار، وليس له من ذنب  
إلا أن يقول ربى الله..

ولا يحول بجلد إسماعيل أن الله سبحانه يتركه دون إنقاذ، ولقد أمر الله  
النار أن تكون بردًا وسلامًا عليه.

هل فعل الله به غير ذلك؟

لقد أراد المفسرون للقرآن الكريم أن يشرحوا إكرام الله له في هذا  
الموقف، فقالوا:

إن الملائكة تلقتة بحمله في رفق حتى وضعتة على الأرض فإذا عين ماء  
عذب وإذا ورد أحمر، وإذا ترجس يحيط به، وأتاه جبريل بقميص من  
حرير الجنة وأتاه بـريكة يحس عليها، وألبسه القميص، وأجلسه على  
الأريكة وحلس معه يتحدث ويؤسه ويقول له فيما يقول:

يا إبراهيم، إن ربك يقول لك: أما علمت أن النار لا تضر أحياء؟

ومكث إبراهيم في النار بضعة أيام، ويتحدث المفسرون أيضًا عن  
شعوره فيخبرون عنه أنه قال:

«ما كنت أيامًا قط أنعم من الأيام التي كنت في النار»؟

ومهما يكن من شيء: فإن الله قد حفظ إبراهيم فلم تضره النار،  
ويتحدث الله عن أعداء الله فيقول عنهم:

﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُم الْأَخْسَرِينَ﴾ (الأنبياء آية ٧٠)  
ويقول سبحانه:

﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُم الْأَسْفَلِينَ﴾ (الصافات: ٩٨)

لقد أرادوا أن ينتصروا فكان نصيبهم الخذلان الواضح، ولقد أرادوا  
الرفعة فكان عاقبة أمرهم أن اتضعوا، ولقد وطبوا أنفسهم على العلية  
فدبرت عليهم الدائرة وغلبوا..

وهكذا كاس حادثة إبراهيم تحقيقاً للوعد الأزلى بنجاة رسله وبسحابة  
للمؤمنين.

يقول سبحانه:

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾  
(يونس آية: ١-٣).

ثم ماذا كان بعد ذلك؟

إن الذي كان بعد ذلك، هو ما أخبر الله عنه بقوله

﴿وَنُجِّنَاہُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء  
آية: ٧١)

فلتدفع إبراهيم في مقره الجديد.

ولكننا نقول في ثقة كاملة، إن حادثة إبراهيم لم تمر دون أن تترك أثراً هائلاً بين عبّاد الأصنام هؤلاء..

لقد رأى الناس أن رب إبراهيم حفظ إبراهيم، وأن آلهتهم لم تتمكن من حماية نفسها هي فضلاً عن حماية غيرها، وترلزلت العميدة في أنفسهم، ولا بد أن يكون التيار الإيماني في هذه لمبة قد غير اتجاهه وأحد يستشرف إلى الوضع الصحيح.

إن حادثة إبراهيم لم تمر دون أن تترك أثراً عميقاً، ودون أن ترلزل الشرك من حدوده، وحكمة الله فوق كل حكمة، وتدبير الله أسنى من كل تدبير.

يقول شاعر لعرب هذا البيت من الحكمة العميقة:

قد بنعم الله بالبنوي وإن عظمت      ويبكى الله بعض الناس بالنعم  
وقد أكرم الله على إبراهيم عليه السلام بمحاولة قومه أن يقتلوه حرقاً  
بالسار، وفي مقابل ذلك ابتلى الملك الطاغية نمرود بالملك

لقد ابتلاه بالملك فلم يقل كما قال سليمان عليه السلام:

«هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر، ومن شكر فينمنا بشكر  
لنفسه ومن كفر فين ربي غنى كريم» (السل آية: ٤٠).

كلام لم يقل ذلك، وإنما كان مثله كمثل فرعون، فقد اسحفت غرود قومه فأطاعوه.

أنا ربكم الأعلى.

فقالوا: سمعاً وطاعة.

ولما رأى هذا الطاغية سيدنا إبراهيم يدعو لتأليه غيره، استدعاه وسأله عن شأنه وعن ربه فقال إبراهيم:

ربي الذي يحيى ويميت.

وحاول الطاغية المغالطة فقال:

أنا أحيى وأميت.

وفي تفسير مغالطته يقول محمد بن إسحاق:

«يعنى أنه إذا أتى بالرجلين قد تحتم قتهما، فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر، فكأنه قد أحيى هذا وامات الآخر» اهـ.

وما إلى هذا قصد سيدنا إبراهيم، ورأى عليه السلام أن الاستمرار في هذه الحجة لا طائل نحت، فإن الطاغية سيمارى ويجادل، فعدل عليه لسلام عن ذلك حجة لا يتأتى للمتأله الرد عليها قال:

﴿فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾ ! (البقرة

آية: ٢٥٨)

يريد أن يقول. إن هذه الشمس التي حلقها الله من قبل أن تولد أنت،  
وسخرها تحرى لمسهرها، وجعلها شرق كل صباح من لشرق، وتغرب  
كل مساء في المغرب

إن هذه الشمس التي جعلها ربى تسير على هذا السق، حاول أنت أن  
تعكس سيرها فاجعلها تدور في طريق عكسى بحيث تشرق مما نسميه  
بحن المغرب، وتغرب فيما نسميه المشرق

ما رد الطاعية عن هذا فهو ما صوره الله تعالى بقوله:

﴿بَهِتَ الَّذِي كَفَرَ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة آية:

٢٥٨)

وبعض الناس في كل زمان ومكان يعرفون لكبرياء، وتشتاق نفوسهم  
إلى التأله، ويصلون من ذلك إلى قبيل أو كثر، وذلك إن الكبرياء تأله،  
والخيلاء تأله، هيئتهم الله لما رعتهم إياه في صفات الألوهية

ولقد عاقب الله هذا الطاعية، وجعل عقابه يأتي عن طريق خلق الله  
ضعيف، هو الناموس.

لقد عذبه الله بالناموس، وأهلكه بالناموس، وكان مصيره مصير جميع  
الطغاة.

غضب من الله في الدنيا، وعذاب ألم في الآخرة.

\*\*\*



صد أن خلق الله الكون والبشر يحبون معرفة سر الحياة والموت، وكيفية إحياء الموتى، والأنبياء وهم محبوبون لله، وهم محبوبون من الله يحبون دائماً أن يعرفوا من أسرار الله ما خفى عنهم.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول دائماً:

﴿رب زدني علماً﴾.

ومن هذا القبيل - قبيل ريادة العلم والاطلاع - طلب سيدنا إبراهيم من الله أن يريه كيف يحيى الموتى، فقال مخاطباً ربه:

﴿رب أرني كيف يحيى الموتى﴾.

ويرد الله عليه قائلاً:

﴿أو لم تؤمن﴾

أي أو لم تؤمن بابتعت وافتدة المطلقة الشامة؟

وكان إبراهيم عليه السلام مؤمناً أقوى ما يكون للإيمان، بيد أن بين الإيمان والمشاهدة فارقاً ملموساً. ومن أجل ذلك كان المثل الأعلى في الإسلام يعبر عنه بالشهادة فيقال أشهد أن لا إله إلا الله.

وأجاب إبراهيم في سرعة سريعة. إني مؤمن، وما أردت بالمشاهدة إلا الاطمئنان القلبي الذي يحدث عن المشاهدة، يقول الإمام بن كثير. وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله على إحياء الموتى علماً

يقبلاً لا يحتمل النقيض، ولكن أحب أن يشاهد ذلك عياناً، ويرقى من  
علم اليقين إلى عين اليقين، فأحابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله»  
هـ

فقد قل لله له:

حد أربعة من الطير فاضمهم إليك، والقهن بحيث يأتينك إذ ناديت  
وتأمل أشكالها وهيئتها لئلا تلتبس عليك بعد الإحياء، أو تتوهم أنها غير  
ذلك، ثم اذبحها وحملها أحزاء وفرقها على الجبال المحيطة بك، فاحص  
على كل حين من حرها، وبعد ذلك ادعهن فسيأتينك سعيًا، واعلم أن الله  
عزير حكيم.

والواقع أن افتران معنى كل لعابة بإقامة الأدلة على إثبات البعث،  
وإحياء الموتى، وقد عدلح الموضوع من روايا متعددة وأقام عليه محلف  
الأدلة ومثل له بعدة ألوان من التمثيل.

وقد سأل الجاحدون للبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين: من  
الذي يحيى العظام بعد أن أصبحت هالكة؟

ويرد الله سبحانه بأن لدى يحيى العظام هو الذى نُشأها أول مرة،  
وبعد نُشأها أول مرة من العدم، وكل موجود إنما كان عدماً ثم وحده، فإذا  
كان الله ينشئ من العدم فإنه من باب أولى يعيد جمع ما تفرق وأن ذلك  
أسهل، ويعبر الله عن ذلك في إنجيل بلقيس فيقول

﴿قل يحييها الذي أنشأه أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ (بس آية -

(٧٩).

ثم أيتأتى في الذهب أن الذي خلق السموات والأرض في عطلتها  
وسعها، وفي إبداعها وتنسيقها، لا يمكنه إعادة ما مات وإيجاد ما تفرق، مع  
أن ذلك أسهل من خلق السموات والأرض؟

إن الله سبحانه يخلق في كل لحظة خلقاً جديداً يراه وتؤمن به،  
وما لبعت إلا ظاهرة هي أسهل من الخلق والإشياء وما يحدد بها  
إلا الذين لم يتدبروا صنع الله الذي أنشأ كل شيء خلقه

كان إبراهيم عليه السلام معنياً بتطهير العقيدة عن الله من كل  
ما يحيط بها من شرك

وما من شك في أن عبادة الأصنام إشراك بالله سبحانه، ولا يفيد في هذا  
المقام أن يقول عبادة:

﴿وما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾.

فإن ذلك لا ينفي أنهم يعبدونها من دون الله أو مع الله، وعبادتها من دون  
الله كفر بالله، وعبادتها مع الله إشراك به.

وقد يتدهش بعض الناس من موقف الإنسانية في بعض الأزمنة، وفي  
بعض الأمكنة من عبادة الأصنام ويتساءل:

أما كان هؤلاء العابدين للأحجار من عقل يعقل، أو فؤاد يدرك؟  
أحوز في أفهام السس أن يعبدوا أحجاراً أو معادن صعبوها لا عقل لها  
ولا شعور فيها؟

أنتأى أن هوى الإنسانية إلى هذا المستوى من البلاء؟  
وهنا نأتى إلى تفسير هذه العقيدة في بعض الأقاليم التي نشأت بها.  
بن الكواكب في السماء تشرق متألثة وضاءة ترتاح النفس إلى صونها،  
وتستريح إلى لمعانها.

والنور يرسل شعاعه الفضى إلى الأرض فيبدد الظلمات، ويكون هادياً  
ودليلاً، وبفس الشعراء والعاطفين ينوده الخافت، وأصواته، ثم هاهى ذى  
الشمس ترسل شعاعها الذهبى حينها تشرق، وترسل شعاعها الذهبى في  
ساعه الأصيل وهى حين ذلك تتألاً في قوة هائلة، وتوهج في جيروت  
طاغ، وفي كل لحظاتها بعث لدفء والحياة في جميع أرجاء المعمورة.  
كانت هذه لكواكب على مر لمرن مشار حاديه وتأم، ثم مشار حب  
وافقتان، ثم مشار إكبار وقديس، وانتهت الإنسانية في أمرها إلى العبادة.  
والإنس دائً يجب أن يكون معه أثر من آثار معبوده، وصورة له أو  
تمثال له، صغير أو كبير.

وصُورت الكواكب، واتخذت لها التماثيل، وكانت الأصنام على شكل

الهياكل العلوية على ما يقول الشهر ستاني، وكانو يعبدونها باعتبارها رمزاً  
للهياكل العلوية. وهذه الهياكل العلوية التي هي النجوم والكواكب  
ما كانت في أدهاسهم إلا ممرا للأرواح، ومحالاً للعقول الروحانية  
ولقد كانوا يعبدونها لتقريبهم إلى الله زلفى

فأصل عبادة الأصنام ناشئ - في بعض أسبابه - عن عبادة  
الكواكب

أما عبادة الكواكب فلأنها مقر الأرواح العالية التي هي في عرفهم -  
الملائكة. فقد كانوا يعتبرون أنفسهم أحقر من أن يتحجوا مباشرة إلى  
المخلوق العظيم بالعبادة فتوسلوا إليه ملائكته ليشفعوا لهم عنده في القرب،  
وفي الرزق، وفي السلامة من الكوارث، وفي العافية على وجه العموم  
ولقد بين الإسلام أن الله أقرب إلى الإنسان مما يكون بجواره، وأنه مع  
الإنسان أينما كن، وأنه هو وحده الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف  
السوء.

ولقد صادف سيدنا إبراهيم هذا العريق أبصاً من عبده الكواكب وكان  
له معهم موقف محدد.

لقد صادف سيدنا إبراهيم أنوياً من الانحرافات في عقيدة الألوهية  
فقد صادف أولاً عبدة الأصنام، ثم صادف عودحاً من المدعين للألوهية  
يزعم أنه يحيى ويميت، ولقد أبار سيدنا إبراهيم لكل من هذين الفريقين

درجة الحق في عقيدة الألوهية.

ثم صادم فريقاً ثالثاً يعبد الكواكب، في أسلوب ساهر ودرن وساطه،  
من أصنام وأوثان.

وكاتب العقيدة في الكواكب متغلغلة في نفوسهم، بحيث لا يتأق  
بجاستها، بأسلوب مباشر من الرفض يبدأ به الإنسان في أول كلامه، وكان  
لا بد من استعمال الافتراض، ومن إفساح المجال للأخذ والرد في  
الموضوع.

وافترض إبراهيم عليه السلام افتراضاً لا يؤمن به ولا يتمشى مع  
الحقيقة، افترضه ليقود الخصم إلى الصدق والحق الواضح.

لقد جلس مع هؤلاء الذين يعبدون الكواكب، وربما كانت جلسة في  
معيدهم الذي يجتمعون فيه إذا أمسى المساء يتطعون إلى الكواكب في  
صورة شاعرية وفي نوع من التأمل في هذه الكائنات لظاهرة الخفية،  
الو صحة المحهولة، التي يروها مضيئة لامعة ولكنها مصعة لا تبدى أسرارها،  
ولا تعلن عن خفاياها، وأمسى اسماء، وبدأت النجوم تظهر او حدة تلو  
الأخرى.

وما أن أشرق أول كوكب حتى أشار إليه إبراهيم عليه السلام مفترضاً  
أنه الله، فهش الجميع وبشوا، وبدأ على وجوههم الأنس به والمودة له؛ إنهم  
يعرفونه رجلاً ناضجاً، حكيمًا متبصرًا، وما هو ذا يحترف بآلهتهم.

وأخذوا يظلمون إلى الكوكب في مسيره ثم في انحداره إلى لغروب،  
ثم هاهم أولاء يرونه قد رآل عن أعينهم واختفى، وبدأ الامتعاض على  
وجه إبراهيم، وقال:

﴿لا أحب الآفلين﴾.

«لا أحب إلا الحاضر باستمرار، أما ما يعيب ويختفى ويزول فلا تكون  
له صفة الثبات والدوام والخود فإننى لا أقدره ولا أعبره إله، فالإله باق  
مستمر خالد قريب».

بدأوا يفكرون ويتشككون ويضيقون ذرعاً بألمتهم وإبراهيم  
وخاتمهم، المنطق في الرد عليه، وبب عاداتهم ومألوفاتهم أن تستحيب  
للعقل والمنطق فكان الضيق البادى عليهم.

ولكن إبراهيم فاجأهم بما خفف عن عقولهم ونفوسهم، باقتراضه حينما  
رأى القمر بازغاً أنه لله، وسرب في «قوم همسات الارتياح، وأصوات  
لاستحسان، وطمعوا إلى القمر مصويين بشعاعه الفضى وبجماله المتألق،  
ولكنهم رأوه هو لآخر بسحدر، فأخذت قلوبهم تحقق مع انحداره، وتوقعوا  
الخاتمة، وتوقعوا ما سيقوله إبراهيم الذى أعد لهم حتى زال القمر  
واختفى:

﴿لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين﴾.

مبيناً بذلك أن هدى الله ليس فى عبادة الكواكب، ولا فى عبادة القمر،

وعلا وحوه القوم سهوم، ولزموا الصمت، واستمروا في تأمل إلى الصباح  
وإذ بالشمس تشرق ساطعة جميلة، فيقول إبراهيم

﴿هذا ربي هذا أكبر﴾.

ولكنها هي لأحرى غير مستفزة، إنها إلى زوال فلما رأت قال:

﴿يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر  
السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ (الأأنعام آية: ٧٩).

خلص إبراهيم عليه السلام عمدة الألوهية من جميع ألوان الشرك  
المعروفة لعهد.

لقد خلصها من عبادة الإنسان، وخلصها من عبادة الأصنام، وخلصها  
من عبادة الملائكة، وخلصها من عبادة الكواكب، وأعلن في النهاية.

﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من  
المشركين﴾.

إلى اتوحيد المخلص كان يدعو منذ أن آماه الله رشده في سن مبكرة  
وهو في بابل، وإلى اتوحيد المخلص كان يدعو وهو في رحلته من بابل إلى  
بلاد الشام.

كان يرافقه في رحلته زوجته، وكان يرفقه لوط عليه السلام، وكان من  
أول من آمن به وقد كان ابن أخيه.



وما كان الركب متعحلاً في رحلته، إنها رحلة إلى الله، ولذلك كانوا ثلاثتهم، ينتهزون الدعوة إلى الله كلما حاست الفرصة، وإذا اقتضت الدعوة الإقامة أياماً، أو أسابيع أقام الركب يدعو بسلوكه لتسامي ويقول له العذب وبمطقه القصيح.

ثم استقر المقام في النهاية بالشام، وهي ما عناه الله سبحانه بالأرض المباركة في قوله تعالى:

﴿وَنَجِّنَاهُ وَلَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء آية: ٧١).

أقام إبراهيم في أرض الشام ما شاء الله له أن يفيم، ثم جاءت فترة أمسكت السماء فيها مطرها وجذبت بسبب ذلك الأرض، فلم تثبت ولم تشر فهاجر إبراهيم ومن معه إلى مصر

أقام في مصر يدعو إلى الله ويتأخر، ويبدو أن تجارته عت وأصبحت له شهرة، ويبدو أن صله قامت بينه وبين الفصر الملكي في مصر، بيد أن دعوة التوحيد ترعج دائماً الطعنة والخبائير ومدعى الألوهية، ومن أجل ذلك لم تطب الإقامة لإبراهيم في مصر، فقد تنكر به الملك، وتسكرت له الحاشية، ولكنه مع ذلك خرج من مصر على موده ظاهريه شكلية بادية، وكان من مظاهرها إهداء الفصر لإبراهيم عليه السلام «هاجر» تقوم على خدمته وخدمة أسرته.

وكان أبو هريره رضى الله عنه يذكر هاجر ويقول لقريش  
تلك أمكم يا بني ماء السماء.

وتذكر كتب السير أن إبراهيم عليه السلام، رجع من بلاد مصر إلى  
أرض الشام ومعه أبعام وعبد، ومال جليل، وصحبهم هاجر الفبطية  
المصرية

فلما استقر به المقام من حديد بأرض الشام، وكان لوط عليه السلام في  
هذه الفترة قد بلغ من الصبح بحيث يمكنه أن يستقل بالدعوة، رأى  
إبراهيم عليه السلام - لمصلحة الدعوة - أن يرسل لوطاً إلى بقعة أخرى  
ليكون للدعوة مركزان:

مركز يقوم عليه إبراهيم عليه السلام، ومركز يقوم عليه لوط عليه  
السلام

ولعل لوطاً كان قد نبئ في تلك الآونة.

ولعله لم ينبأ إلا في مكانه الجديد.

ومهما يكن من شيء فقد ارتحل لوط إلى سدوم ليدعو إلى الله  
وسندعه مؤقلاً مستغنياً في دعوته وبواصل مرافقة إبراهيم عليه السلام.

\* \* \*

نارق إبراهيم عليه السلام ديار مصر إلى الشام هو ولوط وسارة، ومعهم

هاجر وكان معهم مال كثير، واستقر إبراهيم في أرض الشام، فأرسل لوطاً إلى سدوم

فلم يستقر بإبراهيم المقام، وهدأت الأمور، رأت سارة أن حياة إبراهيم عليه انسلام بدون ولد يلعب في البيت ويبتسم ويضحك حياة بنقصها عنصر من عناصر لبهجة، ورأت أن حياة الدعوة محتاجة إلى ولد يشرب مبادئها، ويشب في حوها، ويسير على قواعدها، ثم يتابع الرسالة ويحمل لدعوة بعد أبيه، فعرضت على إبراهيم أن يدخل هاجر

وماذ في ذلك؟

إن هاجر - فيها رأت سارة، وفيما رسم لها تفكيرها - خادمتها، وستستمر هي رغم دخول إبراهيم هاجر سيدة البيت الأولى، وستستمر منزلتها من هاجر هي: منزلة ربة البيت وبجوارها حادمة قد كرمتها فوهبتها لزوجها مجرد مهمة محددة هي إنجاب الولد.

وتم الزواج، وحدث هاجر، وشعرت هاجر بأن الوضع قد تغير بسبب هذا الحمل، وشعرت بأنها رشيكا ستكون أمًا، وسيكون روحها أبًا: أي شديد النصبة بها، وثيق الرابطة بابنها، وشعرت بأنها تمتاز بما ينقص سارة، وأنها لم تعد مجرد الخادمة التابعة، بل أصبحت من الأسرة، لها حقها، ولها كرامتها.

ورما كانت في كل ذلك لا هم لها إلا تهديد جو كريم يشب فيه بنها

بحيث لا يرى أثرًا لماضى أمه المتواضع، ولا يرى حواء تكون أمه فيه أقل من باقى الزوجات.

ولعلها لم تكن فى كل ذلك ناظرة إلى نفسها، وإنما ناظرة إلى هذا الأمل الحلو الذى يوشك أن يتحقق، وإلى هذه السعادة التى توشك أن تثبت، إنها ستعطى إبراهيم ما يملأه حين دعا الله أن يهب له ولدًا من الصالحين، وستسعد هى بأن تكون أما.

وشعرت سارة بالوصع الجسيم، ولاحظت فى مسلك إبراهيم عليه السلام من هاجر تغييرًا. لقد أصبح يعاملها كزوجة بعد أن كان يعاملها كخادمة، ومع أنه لم يكن يهينها أو عتتها فيما مضى، لأنه على خلق كريم ومع أن نضجه وتزانه ورويته كانت تمنعه من إظهار ألوان من الخفة تبدو فى مسلك من حرم الولد فترة طويلة من الدهر ثم إذا به فجأة وعلى لطف إلى الولد يرى الأمل العذب يوشك أن يتحقق.

ومع أنه كان رفيقًا بسارة محبًا لها متوددًا إليها.

مع كل ذلك، شعرت سارة بأن الموقف قد تغير.

وهاهى ذى تتبع حركات هاجر، الصغيرة منها وكبيرة، بفؤاد يقظ تسمع أذنها ما تقول هاجر وما لم تمل، وترى عينها ما تفعل هاجر وما لم تفعل وكذلك كانت يضا - بل ومن باب أولى - فيما يتعلق بإبراهيم عليه السلام وكتبته عاطفتها أول الأمر، ولكنها فى النهاية

لم تحتل كبت عاطفتها، وأخذت تبتدئ ما خفي في نفسها شيئاً فشيئاً، وأخذت هاجر تتلطف وتستر حتى ليقول الروايات.

«إنها اتخذت أثواباً طويلة لذيّل لتعفى أثرها على سارة أى لتخفى سيرها ومواضع أقدامها فتضيع المعالم ولا يتأتى لسارة أن تعلم خط سيرها حينما تتبعها في حلها وترحالها.

إلام انتهى هذا الوضع بالنسبة لها؟

ذلك ما سنتحدث عنه:

اتجه إبراهيم إلى الله متضرعاً وقل:

﴿رب هب لي من الصالحين﴾ (الصفات آية: ١٠٠).

واستجاب الله دعاءه وبشره بغلام حلیم.

ولد هذا لعلام بأرض الشام، ولدته هاجر التي وهبتها سارة لإبراهيم زوجة له، فلما دخل بها حملت، وجاء يوم رأى فيه بيت إبراهيم عنصراً جديداً في حياته هو إسماعيل المولود الحديد

ودبت الغيرة في قلب سارة فلم تحتل رؤية إسماعيل وأمه، فلشارت على إبراهيم أن يتخير لها مكاناً آخر، واستجار إبراهيم ربه، ثم حمل الأم وطعنها إلى المكان الذي أمره الله بإقامتها فيه إلى مكة

لقد وضعها عند شجرة كبيزة «فوق زمزم في أعلى المسجد» وليس بمكة

يومئذ أحد، وليس بها ماء إذ لم يكن ماء زمزم قد تفجر بعد.

لقد وضعها هنالك وترك لها شيئاً يسيراً من الزاد يتمثل في جراب من تمر وفي سقاء من ماء.

وهم إبراهيم بالعودة من حيث أتى، وتطلعت هاجر هنا وهناك، وأحالت بصرها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً فلم تر أنيساً، ولم تلمح أثراً للحيية فتعلقت بإبراهيم ترحوه في أن لا يتركها بهذا الودي الذي لا أنيس به، وصمت إبراهيم عليه السلام، وأعدت هاجر الرجاء، وصمت إبراهيم عليه السلام، وكررت هاجر الرجاء فلم تجد إلا صمتاً، صمتاً تتمثل فيه الرحمة والمودة، والحب والحنان، ولكنه صمت مُصرٌّ وسكوت عازم

ف قالت هاجر: الله أمرك بهذا؟

فقال: نعم.

ف قالت: إذن لا يضيعنا

وتركته يصرف وعادت إلى ابنها تضمه بين ذراعيها في حنان وحب. وسرحت بخيالها في المستقبل المجهول، وفي تصاريف القدر، وكدها ثقة في عناية الله ورعايته.

نطلق إبراهيم عائداً حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا الله رافعاً يديه قائلاً:

﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم،  
ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم، وارزقهم من  
الثمار لعلهم يشكرون﴾ (إبراهيم آية: ٣٧).

وهدأت نفسه، وسار في طريقه مقوضاً الأمر إلى الله لا تهمس في الكون  
همسة ولا تطرف فيه عين إلا بعلمه وإرادته.

أما أم إسماعيل فقد انعدت في هذا المكان مع ابنها الرضيع تجول  
نظرانها في عالم الإشفاق، ويجول إيمانها في حو الثقة، تحررها طبيعتها إلى  
الخوف، وينزع بها يقينها إلى الأمر، ثم ألقت بقيادها إلى الله.

وضمت طفلها إلى صدرها، وأغمضت عينيها، وأرسل الله العاس نقاداً  
لها من التردد بين ما نوحى به طبيعتها وفطرتها، وما يوحى به إيمانها  
ويقينها.

وعاشت أم إسماعيل على جرب التمر وسقاء الماء مقتصدة، مسرفة في  
الاقتصاد، ولكن حربت التمر وسقاء الماء ما لث أن نقد

وضع إبراهيم عليه السلام ابنه الرضيع إسماعيل وأمه هاجر عند بيت  
الله الحرام وتركها، ومعها زاد قليل م يلبث أن نفد، وحاعت الأم  
وعطشت وجاع ابنها وعطش، وجعل يتلوى باكياً، صارخاً في منظر بفتت  
القلوب، وم تتحمل الأم رؤيته على هذه الحالة، فانطلقت كراهة أن تنظر  
إليه على هذه الحالة فوجدت الصفا أقرب المرتفعات إليها فأسرعت نحوه،

وارتقت عليه وأحدث تجيل بصرها في الوادي هل ترى من أحد، فلم تر  
أحدا.

بهبطت من لصفاً حتى إذا بلغت لوادي رفعت طرف ثوبها مشمرة  
ملابسها ثم سعت سعي لإنسان المجهود، لقد كانت تسعى، وقد أنهكها  
الجوع والعطش تدفعها عاطفة الرحمة بابنها، كانت تسعى وكلها رحمه هذا  
الرضيع الذي يلوح أمام عينيها وفي ذهنها منظره يتلوى جوعاً وعطشاً.  
قد أخذت تسعى حتى جاوزت لوادي، ووصلت إلى جبل المروة،  
فارتنته وأخذت تنظر، وعادت من حديد هابطه، وهكذا أخذت تتردد  
حيرى والهة بين الأكمتين سبع مرات:

وهذا هو أساس منسك السعي بين لصفاً والمروة في شعيرة الحج

قال ابن عباس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

فلذلك سعى الناس بينها.

والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِنَّ الصَّامِ وَالْمُرُوَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾.

إن الحاج إلى بيت الله الحرام يسعى بين لصفاً والمروة سبع مرات، إنه  
في هذا يترسم خطأ هذه السيدة، إنه يرسمها مستشعراً ما كانت تشعر به  
من رحمة وحنان.



وإذا كانت رحمتها وحنانها إنما كانا من أجل ابنها الرضيع المسكين فإن الرحمة التي يسعى أن يستشرف إليها لحاج راحياً أن تملأ نفسه وأن تفعم جو نوحه، إنما هي الرحمة بالإساييد جمعاء، الرحمة بكل من يحس بالألم، أو يشعر بالضيق بسبب ما يحل به من جوع أو طمأ، أو بسبب ما يحيط به من مكر وكبد، أو بسبب ما يشعر به من خوف وقلق، الرحمة بكل من كان في حاجة إلى الرحمة.

ونعود إلى أم إسماعيل فنحنها ينوح لها بريق من الأمل، فها هي دى تسمع صوتاً وخيل إليها وهي في عنفوان عاطفتها - أن نبضات قلبها، أو خفقان ثوبها يحرك عليها السماع فقالت صد أي أسكب - وكانت تريد نفسها بذلك - ثم تسمعت وكلها أذان، وصمتت وكلها شعور، فسمعت صوتاً من جديد، فصاحت بأعلى صوتها مستنجدة في لهفة قائلة.

قد أسمعت إن كان عندك غوث.

فإذا هي بالملك عند موضع زمزم يهر الأرض، فإذا بالماء يظهر، وإذا بأسع يتفجر، وإذا بالسعادة كلها تنوح عند هذا الماء المتلألئ في شعاع الشمس.

وإذا بقلب هذه السيدة يسجد لله شكراً، وإذا بلسانها يطلق ثناء وحمداً، ثم إذ بها تسمع الملك يقول:

«قال الملك لأم إسماعيل»:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَهْلَهُ».

شربت أم إسماعيل وأرضعت ولدها - وقال لها المنك كما روى الإمام البخاري - لا تخافوا الضيعة فإن هذا البيت يبيح هذا العلم وأبوه، وأن الله لا يضيع أهله.

هل كان بيت الله مبنيًا قبل ذلك؟ ومن بناه؟

إن إبراهيم عليه السلام يقول:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.

فهل كان بيت الله المحرم موجودا قبل إبراهيم؟

إن حديث الإمام البخاري يقول:

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السبيل فتأخذ عن يمينه وشماله.

ويقول الله تعالى في تحديد لا لبس فيه:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾.

وبكة في قول الله تعالى هي مكة، معني بنى البيت؟

يرد الإمام البيهقي في دلائل النبوة بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

بعث الله حبريل إلى آدم، فأمره ببناء البيت هناك آدم.

ثم أمره بالطواف به وقيل له:

أنت أول الناس، وهذا أول بيت وضع للناس.

وروى عبد الرزق عن عطاء رضى الله عنه أن آدم أول من بنى البيت.

والأحاديث النبوية متسقة مع القرآن الكريم تشير إلى أن أول بيت وضع للناس إنما هو البيت الحرام، وأن أول من بناه هو آدم.

وما من شك في أن البيت كان يهمل ويترك أحياناً فيتهم ولكن معاملة تيمى حتى يأتى من يحدده

وقد جدد سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل، والله سبحانه وتعالى يقول.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾.

ولم يقل سبحانه:

وَإِذْ يَصْعَ إِبْرَاهِيمُ لِقَوَاعِدِ.

وإبراهيم وإسماعيل كما إذا يرفعان القواعد التي وضعها آدم عليه السلام.

ولا بأس بأن نتعجل سير التاريخ من أجل تكميل قصة البيت حتى لا تكون متفرقة مشتتة.

لا بأس من أن نتعجل سير التاريخ فنصل إلى إسماعيل عليه السلام،  
وعد أصبح شاباً فنياً يأتيه أبوه فيقول له - كما يروى الإمام البخاري:  
الله أمرني بأمر.

قال: فاصنع ما أمرك ربك

قال: وتعينني؟

قال: وأعينك.

قال فإن الله أمرني أن أهي ه هنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة على  
ما حوها.

قال فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت. فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة  
وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه به فقام عليه  
وهو يبني وإسماعيل يدوله الحجارة وهما يقولان:

﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾.

قال: فحجلا يبتيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان:

﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾.

قال إبراهيم عليه السلام:

﴿إني ذاهب إلى ربي صيهدين﴾.

وحزم أمره فغادر العراق متجهاً إلى الشام، وفي أثناء الطريق أحس إبراهيم بأنه يسير دون أن يكون في صحبته ولد يؤسسه ويعينه

لقد شعر بالحاجة إلى وريث للدعوة معين فيها، أحس بالشعور الفطري شعور الأبوة، يريد أن تتحقق لأبوة، والحنين إلى الأبوة كالحنين إلى الأمومة فطري في الإنسان.

ولم يكن إبراهيم عليه السلام قد أنجب إذ ذاك أولاداً، فاتجه إلى الله في تبتل وضراعة وخشوع، وقال:

﴿رب هب لي من الصالحين﴾.

الصالحين للدعوة، والصالحين للحياة، والصالحين في أنفسهم، والصالحين لله.

إن كلمة الصالحين فيها من المعاني ما فيها.

ويجيب الله سبحانه وتعالى دعاءه قائلاً:

﴿فبشرناه بغلام حليم﴾.

وما من شك في أن الحليم من الأسس الأصيلة للنجاح في الدعوة. أتى هذا الغلام على كبر من سن والده، وأتى وله هفة للولد، وأتى بكر والده، وكان وحيداً، وكان أمل والده فيه في مستقبله كبيراً، وخصوصاً لأن الله منحه عقلاً ودكاءً وبجاية، ومن أجل ذلك كان قرة عين والديه وكان

حبها له كبيراً.

أخذ العلام يشب وترعرع. حتى بلغ السن التي يتمكن فيها من السعى والعمل وبلغ أيضاً من حب والديه مبلغاً عظيماً، وكان الحب يزداد مع الأيام، ويكثر عى مر السنين، وإذا بوالده يرى فيها يراه النائم أنه يذبح ابنه؛ وكان الوالد يعلم أنها إشارة له بذبح ابنه، إنها إشارة طيبة فما كان للشيطان عليه من سبيل، إنه ابتلاء جديد من نوع الابتلاء الذي اختبره الله به من تحطيم الأصنام والإلقاء في النار، لقد نصح في الاختيار السابق واجتارته في ثقة بالله لأحد لها.

بيد أن الابتلاء السابق كان واضح المعنى، وكان سافر الملامح. لقد كان أمراً صريحاً بتحطيم الأصنام، وكان نخطيئ مفهوم الدلالة، فما ينبغي أن يعبد مع الله أحد، وما يجوز في منطق العقل والقلب والشعور السليم أن ينصرف الإنسان عن مانع النعم.

وكان الإلقاء في النار أيضاً واضح المعنى، إنه في سبيل الله، وفي سبيل الله يهون كل ألم

لقد نجح في الابتلاء الماضي وحفظه الله سبحانه وكتب له المنة كما يفعل سبحانه بكل من والاه.

ولكن هذا الابتلاء الجديد غير مفهوم المعنى، وليس واضح الملامح، إنه قتل إنسان، إنه ذبح إنسان، وهذا الإنسان ابن، والوالد هو الذي يذبحه.

سبحانك ربى : لقد حفظت هذا العلم رضيعاً، وفجرت له الدم رحمه به،  
وقد كان من الممكن أن تنهى به الحياة بذلك، ولكنك سبحانك جئت  
حكمتك، أبقتة وحفظت حياته، فكان من المفروض أن تستمر به الحياة إلى  
أن تبلع غابتها.

عل مثل هذه الآراء جالت بذهن إبراهيم، أو بذهن إسماعيل، ولكنها  
كانت في مقابلة الإشارة الإلهية بانذبح كاطباء في الهواء، لم تثبت، ولم تقف  
على قدميها، وكان لابد مما ليس منه بد، وتنبأ إبراهيم عليه السلام لديح  
ابنه، بكره، وحيد، لقد تنبأ لديح إسماعيل، فما هى الحكمة.

أشار الله إلى إبراهيم فى الرؤيا بدبح ابنه.

والحكمة فى ذلك كما يقول الإمام ابن القيم. أن الله سبحانه أجرى  
العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الولدين ممن يولد بعده.  
وإبراهيم لما سأل ربه الولد، ووهب له، تعلق شعبة من قلبه بحبته،  
والله سبحانه وتعالى قد اتخذ خليلاً، والخلة منصب يقتضى توحيد المحبوب  
بالحبة، وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها

فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد، أحب الله سبحانه لخيله أن  
يكون له كلية، فأمره سبحانه بذبح هذا الذى أخذ حبه شعبة من قلبه،  
وذلك ليخلص له كاملاً. وجاء إبراهيم عليه السلام فى يوم من الأيام إلى  
ابنه قائلاً:

﴿يَا بَنِي إِدْرِى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ، فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ (الصافات آية: ١٠٢)

أما قوله لابنه: فانظر ماذا ترى فإنه لم يكن تخييراً له، وإنما أحب الولد أن يأبى ناسه رغبة وطاعة فيكون له الأجر والثواب، ولو تردد الابن أو أبى أو خالف أباه لأخذته رغم أنفه.  
يقول الإمام الرازى:

الحكمة فى مشاورة الابن فى هذا الباب أن يطلع ابنه على هذه الواقعة فيظهر له صبره فى طاعة الله فتكون منه مرة عين لإبراهيم حيث يراه قد بلغ فى الحلم إلى هذا الحد العظيم، وفى الصبر على أشد المكاره، إلى هذه الدرجة العالمة.

ويحصل للابن الثواب العظيم فى الآخرة، والثناء الحسن فى الدنيا.  
وحينما سمع إسماعيل عليه السلام من أبيه هذا الخبر وكان يشعر شعوراً واضحاً أن أباه لا يسير فى حياته إلا بتوجيه إلهى، وأن الشيطان لا سبيل له على أبيه أحاب فوراً:

﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمِرُ، سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾  
(الصافات آية: ١٠٢)

ماذا حدث بعد ذلك؟



عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

قال لابن يا أبت اشدد رباطي كيلا أضطرب، والفف ثيابك حتى لا ينتصح عليها من دمي شيء فيقص أخرى، وتراه أُمي فتحزن، واستحد شفرتك، وأسرع بها على حلقى لكون أهون علي.

وإذا أتيت أُمي فاقرأ عليها السلام مني، وإن رأيت أن ترد عليها قميصي فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني.

فقال ابراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا بني على أمر الله.

لقد تهيأ كل شيء لتعبد الرؤيا، ومع ذلك فإن الذبح لم يتم فماذا حدث؟

هم سيدنا ابراهيم بدح ابنه، وتهيأ كل شيء لتعبد الذبح.

الأب موقن بأن رؤياه إلهام من الله، والابن موقن بأنه على صواب حينما رضي بالموافاة بغير الأمر الله.

لقد استسلم الأب لأمر الله واستسلم الابن لأمر الله، والفران حينما تحدث عن جالتهما هذه قال.

﴿فلما أَسْلَمَا﴾.

لقد أسلم رغم محاولة الشيطان أن يلعب دوراً في هذا الاختبار ولا يتلاء.

لقد جاء الشيطان يوسوس إلى ابراهيم عليه السلام موحياً بأن الأمر

لا يخرج عن أن يكون رؤيا، وكم في الرؤى من أضغاث أحلام، وهل من العقل أن يذبح إنسان ابنه مطيعاً رؤياه.

لعلها وهم من الأوهام، ولعلها خيال، بمجرد خيال.

على أنه في الرؤيا - حسب وسوسة الشيطان - لم يؤمر بذبح ابنه، ولكنه رأى أنه يذبحه، وفرق بين أن يؤمر بذبحه، وبين أن يرى أن يذبحه،

وأحس سيدنا إبراهيم بالشيطان يريد أن ينفذ إلى قلبه، وإلى تفانيه في الله، وإلى موطن اليقين والرضا من قلبه، فرحم الشيطان بسبع حصيات ورده خاسئاً مدحوراً.

ولم يئأس الشيطان، وهو العنيد اللجوج، لقد انصرف عن الأب إلى الابن قائلاً:

إنها مجرد رؤيا، أذبحه أبوه من أجل رؤيا.

وأحس الابن بالمحاولة الخبيثة، وعرف أنها محاولة شيطانية، فرجم الشيطان بسبع حصيات.

ولم يئأس الشيطان وهو العنيد اللجوج، فذهب مسرعاً إلى الأم:

أدركى «بنك»، إن أباه يريد أن يذبحه، استنقديه منه، قبل فوات الأوان.

ورحمته، لتقتها بأن زوجها لا يتصرف إلا في إطار الوحي، لقد رجته هي الأخرى بسبع حصيات، لقد رحم الجميع مصدرًا من أهم مصادر الشر

وهو الشيطان، وهذا الرمز الحميل، أعنى رجم مصدر من مصادر الشر هو الذى يتكرر كل عام حينها يوشك الحجاج إلى بيت الله الحرام، أن ينتهوا من حجبهم

إن حكمة رمى الحمار فى الحج، إنما هى رجم مصدر من أهم مصادر الشر والإثم والمعصية وهو إبليس.

رجمه مراراً وتكراراً.

وسهى أعمال الحج بهذه الصورة الرائعة، صورة العرم المصمم على الابتعاد المطلق عن الإثم والمعصية، وذلك تسحيل مؤكد، وإعلان مشهود وإشهاد سافر على أن الحاج قد عزم لا تزغزه أعاصير الشهوة أو معريات الفتنة، على أن يصبح خير كله لا يحمل لزعزعات الشيطان لتسلل إلى نفسه فقد أصبح - بتطهير نفسه، وبرجم الشيطان - من عباد الله المحلصين الذين لا سلطان للشيطان عليهم

لقد أسلم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فلما أسلما، أى حلصا لله كلية واستسلما إليه استسلاماً مطلقاً جاء لئداء، وذلك أنه فى اللحظة الأخيرة نودى إبراهيم عليه السلام.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا، إِنَّا كَذَبُكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ، وَقَدْ إِنَّا بَذَحَ عَظِيمٌ﴾ (الصافات آية ١٠٤-١٠٧).

لقد أسلما إسلاماً استتبع لئداء، والإسلام لله على هذه الصورة أى

الاستسلام الكامل لله يستتبع حثماً الفداء في كل عصر، وفي كل مصر.  
إن من أسلم نفسه لله عاملاً في سبيله، قائماً بما يرضيه، تكفل الله به  
حماية ونصراً، عناية ورعاية في الدنيا والآخرة:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا  
وَكَانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (يوس آية:  
٦٢-٦٤)

لهذا تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرؤى، وذكر من ذلك  
الأحاديث الصحيحة التالية:

● الرؤيا لصديقة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من  
النبوة.

● وأر رؤيا لمؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة  
وأنه لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا: وما المبشرات؟

قال: الرؤيا الصالحة.

هذه الأحاديث التي نقلناها عن الإمام البخاري روى الله عنه تساندها  
أحاديث أخرى، وينتهي الأمر بالأحاديث إلى تقسيم ما يراه الناس إلى ثلاثة  
أقسام:

● قسم من الله وهو الرؤيا الصادقة.

## ● وقسم من الشيطان.

● وقسم مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة مراء في النوم وهذه الأقسام تشتمل على جميع ما يراه الإنسان في النوم

أما العلم الحديث فقد بين في وضوح تام أثر العوامل الخارجية، والعوامل الداخلية الباطنية في الرؤيا. وجعلها كلها أثراً لحديث النفس، أى للشعور، فتكون متداداً لجو اليقظة أو للاشعور، فتكون تنهياً للكبت وهذا الذى يذكره العلم الحديث تفسيراً للرؤيا حق لأمراء فيه والدين يذكر كى ما يذكره العلم الحديث، ويزيد عليه ما هو بديهي عند كل إنسان من وجود نوع ثالث.

وهذا النوع من لرؤيا الصادقة تعترف به الأديان السماوية، الكبرى جميعها فهي تتحدث عن رؤيا يوسف عليه السلام، ورؤيا الملك الذى استدعى يوسف عليه السلام من السجن لتأويل رؤياه ويقول القرآن الكريم في شأن رسولنا عليه الصلاة والسلام:

﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تحفون﴾ الفتح آيه:

(٢٧)

بيد أن الطريف في موضوع الرؤيا: أن لها معبرين، أو مؤولين أو مفسرين فإنها في الأغلب الأعم، دمرية، وحل هذه الرموز إنما هو من قائم بنفسه اشتهر به رجال، وكتبت فيه كتب.

وَلَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسْأَلُ الصَّحَابَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ عَنْ رُؤْيَاهُمْ وَيُعْبَرُهَا لَهُمْ وَيُحَدِّثُهُمْ هُوَ أَحْيَانًا عَنْ رُؤْيَا لَهُ. وَتَعْبِيرُ الرُّؤْيِ وَتَفْسِيرُهَا فَن يَشْتَرِكُ فِيهِ الْآنَ عُلَمَاءُ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُلْهِمُهُمُ اللَّهُ التَّعْبِيرَ مِنَ الصَّالِحِينَ.

يَبْدُو أَنَّ عُلَمَاءَ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ يَقْتَصِرُونَ عَلَى تَعْبِيرِهَا فِي جَوَابِهَا الْحَسِيَّةِ الْمَادِيَّةِ وَيَكْتَفُونَ بِذَلِكَ، أَمَّا الْآخَرُونَ: فَإِنَّهُمْ يَعْبُرُونَهَا فِي جَوَابِهَا الْغَيْبِيَّةِ الصَّادِقَةِ

وَلَا يَضُرُّ الْحَقُّ أَنْ يَسْحَنَ عُلَمَاءُ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ أَنْفُسَهُمْ، وَأَنْ يَسْجَنَ الْعَمَمُ الْحَدِيثَ نَفْسَهُ، فِي سَحْنِ الْمَادَةِ وَالْخَوَاسِ، فَإِنَّ الْحَقَّ فِي أَمْرِ الرُّؤْيَا وَاصِحُّ أَبْلَجٍ، وَلِنَاسٍ - مِنْ شَرْقِيِّينَ وَغَرْبِيِّينَ، وَمِنْ قَدَمَاءَ وَمُحَدِّثِينَ يَلَاحِظُونَ وَجُودَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةِ وَوُقُوعَهَا بِحَرَى فِي دَائِرَةِ مَحَارِمِهِمْ

\* \* \*

إِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ هُلَاهُ، وَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ فُجِّرَ مَاءُ زَمْزَمَ رَحْمَةً بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّهِ هَاجِرَ، وَمَا أَنْ تَفْجُرَ الْمَاءُ حَتَّى حَامَ حَوْلَهُ الطَّيْرُ وَكَأَنَّهُ كَانَ مِنْهُ عَلَى مِيعَادٍ وَكَانَ مِنْ تَدْبِيرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ مَرَّتْ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ بِالقَرْبِ مِنَ الْمَاءِ الْمُتَفَجِّرِ قَافِلَةٌ مِنْ جَرَاهِمَ، فَلَمَّا رَأَوْا الطُّيُورَ تَحُومَ حَوْلَ مَكَانٍ رَمَرَمَ أَخَذَتْهُمْ الدَّهْشَةُ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الطُّيُورَ لَا تَحُومُ إِلَّا عَلَى مَاءٍ، وَيَعْلَمُونَ مِنْ جَانِبِ آخَرٍ أَنَّ هَذَا الْمَكَانَ - وَقَدْ مَرَّ بِهِ مِنْ قَبْلِ - لَا مَاءَ فِيهِ.

ولأحل أن يقطعوا الشك باليقين أرسلوا رسلاً منهم يستبشرون الخبر فإذا هم بالماء فرجعوا إلى قومهم فرحين مهللين وأخبروهم فأقبل الجميع وكانت أم إسماعيل على الماء.

فقالوا: أنادين لما أن نثر عندك؟

قالت: نعم، ولكن لاحق لكم في الماء، وقبلوا شرطها، ونزلوا بجمعهم ثم أرسلوا إلى أهلهم فجاءوا ونزلوا معهم.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنس ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس.

أنست أم إسماعيل بهم، وعاشروها فأحسنوا معاملتها، وشب ابنها عندهم وكانت لعنتهم العربية، فأخذها إسماعيل عنهم وأصبحت لعته ولغة ذريته من بعده.

ولقد اشتهر بالعربية الفصيحة البليغة حتى لقد قال بعضهم: إن عريته كانت أفصح من عربية «يعرب بن قحطان».

شب إسماعيل عليه السلام بين جرهم فيه الفتوة، والرجولة، والدكاء والمرورة، وأعجبتهم أخلاقه فزوجوه فتاة منهم.

وكانت أم إسماعيل قد تقدمت بها السن فاختارها الله لجواره. وكان إبراهيم عليه السلام يأتي بين القينة والفينة «يطالع تركته» على

حد تعبير الحديث الشريف، أن يتفقد حال من تركهم بحور البيت الحرام.. وذات يوم جاء ابراهيم على عادته، وكانت هاجر قد ماتت، وكان اسماعيل قد تروح، وطرق إبراهيم الباب فحترحت له روجة اسماعيل، فسأها عنه، فصالت خرح يطلب الرزق فسأها عن عيشتهم فقالت به. نحن بشر حال، نحن في ضيق شديد، وشدة محرته، وأحدث تشكو إليه أمرها. ضيقة بحياتها، بطرة بعيشها.

ولقد رأى من خلال حديثها أنها ترى العالم بمظار أسود، وتغلب على كل شيء فيه حاسب التشاؤم وتجرى بغيها في أودية اهوم حتى وإن كانت اهوم بعيدة عنها، ورأى أن هذا النوع من النساء يجعل الحياه بعيدة عن السعادة.

وما من ريب في أن من آيات الله أن خلق لنا من أنفسنا أرواجا لسكن إليها وجعل بيننا مودة ورحمة، فإذا فقد ذلك فإن الزواج يكون مأساة مستمرة، رأى ابراهيم كل ذلك فقال لها: إذا جاء روحك فاقري عليه السلام وقولي له: يغير عتبة بابه.

وكما قبلته بتحهم فقد ودعته باستخفاف.

فلما جاء اسماعيل، كأه أس شيئاً فقال. هل جاءكم من أحد؟

قالت. نعم، جاءنا شيخ من صفته كذا وكذا، وكانت في حديثها كالسنخفة به وقالت. كالتخدية، وأخبرته أننا في جهد وشدة.



فقال اسماعيل: هل أوصاك بشيء؟

قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول غير عتبة بابك.

قال ذلك بي، وقد أمرني أن أباركك، فالحق بأهلك، فطلقها.

لقد وصل الأمر بسيدنا إبراهيم عليه السلام أن كان خليل الله سبحانه

وتعالى، يقول عز وجل:

﴿واتخذ الله إبراهيم خيلاً﴾ (النساء: آية ١٢٥)

وقد يتساءل إنسان عن الصفات التي أهلت إبراهيم عليه السلام لهذه

المنزلة العظيمة، وهذا يجزنا إلى الحديث على شخصية سيدنا إبراهيم من

الناحية الخلقية

يقول عبيد بن عمير، فيما رواه ابن أبي حاتم:

كان إبراهيم عليه السلام يضيف الناس، فخرج يوماً يتمسك أسنانه

بضيفه فلم يجد أحداً يضيفه، فرجع إلى دهره، فوجد فيها رجلاً قائماً فقال:

يا عبد الله ما أدخلك داري بغير اذن؟

قال: دخلتها بإذن ربها.

قال: ومن أنت؟

قال: أنا منك الموت أرسلني ربي إلى عبد من عباده أبشره بأن الله قد

تخذه خيلاً.

قال: من هو؟ فوالله إن أخبرتنى به ثم كان بأقصى البلاد لآتينه، ثم لا أهرع له جاراً حتى يفرق بيننا الموت.

قال: ذلك العبد أنت.

قال: أنا؟ قال نعم.

قال: فيم اتخذني (ربي) خليلاً؟

قال: بأنك تعطى الناس ولا تسألم.

وجوهر هذه لقصة التي رويناها من أحله أن إبراهيم عليه السلام كان يعطى الناس ولا يسألم.

وما من شك في أن ذلك عامل من أهم العوامل التي تقرب إلى الله سبحانه، ومعنى ذلك أنه كان يعطى الناس ولا يسألم، إنه كان يضحى ويبذل ولا ينتظر من وراء ذلك من الدس جرء ولا شكوراً.

وهذه الصفة من مظاهر الكرم، وقد كان سيدنا إبراهيم عليه السلام كريماً وصفه الكرم فيه مشهوره معروفه، يقول صاحب كتاب «الصدق»

روى لعلماء أن إبراهيم الخليل صلوات الله عليه كان لا يأكل إلا مع الضيف، فرعاً لآيابه الصيف ثلاثة أيام فيطويها، ورمعاً كان يمشى العرسح (العرسخ قريب من ثلاثة أميال) أو أقل، أو أكثر، تلقياً للضيف.

على أن الله سبحانه وتعالى قد أشار إلى كرم سيدنا إبراهيم، وذلك حينما

أنته الملائكة في صورة بشر. فقدم لهم عجلًا سمينًا مشويًا يقول سبحانه:

﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى، قالوا: سلامًا، قال سلام، فلما  
لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾ (هود آية: ٦٩) (أى بعجل سمين مشوي)

لقد طن إبراهيم عليه السلام أن هؤلاء بشر، فلما قدم لهم العجل  
الشهي لم يمدوا أيديهم إليه، فلما رأى ذلك منهم أحس بشيء من الخوف  
وذلك - من عادة الناس إذ ذاك - أن العدو لا يأكل من طعام عدوه، وأن  
من هم بفتك إنسان لا يأكل طعامه.

فلما رأى الملائكة ما بدا على وجهه طمأنوه وعرفوه أنهم لا يريدون به  
شرًا.

ولا ريب في أن من أسلم وجهه لله لا يتأذى منه. لا أن يكون كريمًا، ولقد  
روى الله سبحانه عن قوم أخذوا وجوههم لله فكانوا يؤثرون على  
أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

وما من شك أن صفة الكرم من الصفات التي تقرب إلى الله. ولكنها  
وحدها لم تكن اسبب لدى جعل إبراهيم خليلًا، وسذكر بعض الصفات  
الأخرى إن شاء الله.

لقد تحدث الله سبحانه عن إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم في  
حوالي خمسة وثلاثين موضعًا ومن جمعها فيما يتعلق بشخصيته وبخلقه، وفيما  
يتعلق بالثناء عليه، قوله تعالى:

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ (البقرة آية: ١٣٠، ١٣١).

ومفتاح الأمر في خلق إبراهيم عليه السلام، وفي الثناء عليه أيضاً، هو إسلامه، وهو لم يكتب بأن أسلم في نفسه وإنما قد وصى بهذه العقيدة بنيه، يقول تعالى:

﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب، يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ (البقرة آية: ١٣٢)

والإسلام الذي دار به إبراهيم عليه السلام، ووصى به بنيه إنما هو إسلام الوجه لله سبحانه: أي التسليم لله في جميع الأمور ما صغر منها وما كبر.

إن الله سبحانه وتعالى نظاماً معيماً في الأوضاع الأخلاقية، والأوضاع الاجتماعية، في العالم الإنساني.

وتبتدئ هذه الأوضاع بإسلام الوجه لله سبحانه وهذا هو أساسها وبقد حدد ابن الأثير المتوفى سنة ٣٢٨ هـ معنى الإسلام من الناحية اللغوية ليحتمل، فقال:

المسلم معناه: المخلص لله في عبادته، من قولهم سلم الشيء لفلان: خلص له، فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى

ولقد مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الإسلام فقال:

أن يسلم لله قلبك، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك.

والإسلام بهذا المعنى لا يختص ولا يشير إلى بيئة معينة ولا إلى شخص

معين، ولا إلى زمن معين..

إن هذه الكلمة: مجرد الكلمة. تصعنا مباشرة في جو عالمي مطلق، بل في

جو عالمي يسخطى حدود هذا العالم الأرضي إذا أمكن ذلك فلا يتقيد

به ولا يتحدد بحدوده..

إن إسلام الوجه لله هو دين الملائكة، وهو دين الأنبياء، وهو دين الله

الذي لا دين غيره، وهل لله دين غير إسلام الوجه لله سبحانه؟

ومن أجل ذلك كانت كلمة: إسلام، وكلمة دين بمعنى واحد.

إن الدين في أي عصر، وفي أي زمن، معناه الخضوع لله، ولا إسلام

له. والعمل على مرضاته، وهذا نفسه هو معنى الإسلام، والدين والإسلام

إذن بمعنى واحد.

هذا المنهج - من إسلام لوجه الله والخضوع له، إما كان المنهج

الإبراهيمي وهو المنهج الذي رسمه الله سبحانه ديناً للإنسانية أجمع، ومن

هنا كان قول الله تعالى:

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾.

وملة ابراهيم هي منهجه في الحياة، ومنهجه في الحياة هو الإلقاء بقياده  
كلية إلى الله سبحانه.

الإلقاء بقياده إلى الله في القول، والإلقاء بقياده إلى الله في لقب  
والإلقاء بقياده إلى الله في العمل.

وإذا ما ألقى الإنسان بقياده إلى الله سبحانه في حياته كلها كان مسلماً  
وحفظه الله كما حفظ إبراهيم عليه السلام.

وصف الله سبحانه وتعالى سيدنا ابراهيم عليه اسلام فيقول:  
﴿إبراهيم الذي وفى﴾ (النجم آية: ٣٧)

وكلمة (وفى) من الكلمات التي تتضمن معان لا تكاد تجد، يقول الإمام  
ابن كثير: «وفى جميع ما أمر به، وقام بجميع حصال لإيمان وشعبه، وكان  
لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصحة الأمر القليل، ولا يسيه  
القيام بأعباء لمصالح الكبار عن الصغار.

وشرح الإمام ابن كثير لهذه الكلمة هو أيضاً شرح عم يتضمن ما لا  
يكاد يعد من الجزئيات، ولا ريب أن ابراهيم كان دنيئاً عند مرصاة الله  
لا يوجد إلا حيث يحب الله تعالى، ولا يتكلم إلا بما يحب الله سبحانه..  
ولقد اعتبره الله سبحانه، فصر على الاختبار، ونجح فيه، وابتلاه الله  
سبحانه، فحمل الابتلاء، ورضى الله في شأنه، وكان كلما نجح في اختبار  
كانأه الله سبحانه بالحياة.

لقد حطم الأصنام استجابة لأمر الله، وأرادوا حرقه بأسار، فكانت النار عليه برداً وسلاماً، ونجاه الله من بلاء ذبح ابنه، وهذه بديع عظيم..

ولقد حاول حبر الأمة الصحابي الجليل ابن عباس رضي الله عنه وعن أبيه أن يحدد لجو نب التي تتضمنها كلمة «وفى» ورأى أن إبراهيم عليه السلام وفى بجميع شعب الإيمان التي يسميها ابن العباس سهام الإسلام. ولقد حددها حبر الأمة بثلاثين جانباً أو شعبة أو سهماً تتضمن عشراً منها آية:

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾.  
(التوبة آية: ١١١).

ففي هذه الآية الكريمة يذكر الله سبحانه لإيمان باعتباره الأساس ثم يصف المؤمنين بأنهم:

﴿التائبون، العابدون، الحامدون، السائحون، الراكعون، الساجدون،  
الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله﴾ (التوبة  
آية: ١١٢).

وقد يسأل إنسان عن السائحين في هذه الصفات الكريمة.  
والسائحون في لعرف الديني هم الذين يهاجرون في سبيل الله سواء  
كان ذلك للعبادة، أم كان للجهاد.

ويسمى ابن عباس رضى الله عنه في تعدد السهام التى وفى بها ابراهيم عليه السلام، ويرى أن عشرة أخرى مما ذكرتها سورة الأحزاب فى الآية الكريمة لى تبدئ بقوله تعالى:

﴿إن المسلمين والمسلمات﴾<sup>(١)</sup>.

ومن السهام فى الآية الصدق والصبر، والخشوع، والذكر ولقد تضمنت سورة. «المؤمنون» من أولها ستة سهام، أداء الزكاة، ومنها مراعاة الأمانة<sup>(٢)</sup>.

أما لسهام الأربعة الباقية فيها فى سورة «المعارج» تبدئ بقوله تعالى: ﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾<sup>(٣)</sup>

(١) الأحزاب آية ٣٤ وهى ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والتقيات والصادقين والصادقات، ولصابرين والصابرات، والخاصين والخاصات والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائيات، والحافظين فروجهم والحافظات، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً﴾

(٢) قال تعالى ﴿قد افلح المؤمنون، الذين هم فى صلاتهم خاشعون، ولذين هم عن النغو معرضون، ولذين هم للزكاة فاعون، ولذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمنهم فإنهم غير ملومين، فمن أبغى وراء ذلك، فأولئك هم العادون، ولذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، ولذين هم على صلواتهم يحفظون﴾

(٣) المعارج آية ٢٦ والآيات هى ﴿إلا المصلين، لذين هم على صلاتهم دائمون، ولذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، ولذين يصدقون بيوم الدين، ولذين هم من عذاب ربهم مشفقون، إن عذاب ربهم غير مأمون، ولذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن أبغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، ولذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، ولذين هم بشهادتهم فاعون، ولذين هم على صلاتهم يحفظون﴾



والرأى الذى رآه هو ما قال به الحسن رضى الله عنه وهو أنه ما أمره الله تعالى بشيء إلا وفى به.

\*\*\*

من الصفات الباهرة عند سيدنا إبراهيم كثرة التحاته إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء، والدعاء صورة محبة إلى الله سبحانه إلى درجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«من لم يدع الله يغضب عليه».

وهذا الحديث يسير فى نسجهم مع ما روه الإمام أحمد عن النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ:

﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾. (غافر: ٦٠)

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنه قريب، وبأنه محيب، وبأنه رؤوف رحيم، وبأنه ودود، وقال:

﴿وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أحيب دعوة الداع إذا دعان﴾ (البقرة: ١٨٦).

ومزلة الدعاء بهذه المثابة لأنه تضرع إلى الله، والنجاء إليه وحده،

وتحقيق لقوله تعالى:

﴿وإياك نستعين﴾

ودلك إنما هو تحقيق لإسلام الوحه لله هو أحص خصائص التدين  
السليم.

ولقد كان سيدنا إبراهيم يدعو الله ويلجأ إليه في كل أموره حتى أنه في  
الحالات التي كان يقبه فيها الحياء من الله فيصمت لسانه، كان حاله فيها  
ناطعاً بالدعاء.. لقد دعا الله من أجل انجاب الأولاد فقال:  
﴿رب هب لي من الصالحين﴾ (الصافات: ١٠٠).

ولما ذهب لرؤية ابنه ووجده غائباً سأل زوجته عن طعامها فقالت:  
الدحم، فسألها عن شربها، فقالت الماء، فدعا الله قائلاً:

للهم بارك لهم في اللحم والماء

ولما ببى هو وابنه الكعبة أخذاً في الدعاء قائلين:

﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ (البقرة آية: ١٢٧)

ولقد كانت هذه الكلمة في مفتتح دعائهما، وكانت بين كل فقرة من  
الدعاء وأخرى، وكانت في محتمم الدعاء..

ولقد كان من دعائهما وهما ينيان:

﴿ربنا واجعنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا

مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴿ (البقرة: ١٢٨).

أما الدعاء الذي يشكر عليه كل مسلم سيدنا إبراهيم فإنه الدعاء الجميل الذي دعا به سيدنا إبراهيم عند البيت وفي وسط الجزيرة العربية. ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ (١٢٩).

وكان لله سبحانه وتعالى يستجيب دائما دعاءه، فإذا ما صمت سيدنا إبراهيم ولم تنطق شفعا بالدعاء أدركته أيضاً رحمة الله فأذهبت عنه السوء وقد يتساءل إنسان عن السر في أن الله سبحانه وتعالى كان دائماً يستجيب دعاء نبيه إبراهيم.

ولاستجابة الدعاء شروط إذ توافرت تمت الاستجابة: منها ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال:

تليت الآية عند النبي صلى الله عليه وسلم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾

فقام سعد بن أبي وقاص فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال:

ياسعد، أطلب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً، وأما عبد نبت لحمه من السحت، والربا فالار أولى به.

والشرط الأساسي في استجابة الدعاء أن يحقق الإنسان العبودية في نفسه بالنسبة لله وحده، تحقيقاً صادقاً، وتحقيق العبودية ليس كلمة تنال، وليس عملاً بدون نية ولا نية بدون عمل، وإنما تتكاتف الجوارح واللسان والقلب، فتتحقق.

﴿إياك نعبد، وإياك نستعين﴾.

هي أن يؤدي الإنسان الفروض، ويكثر من النوافل، ويخلص قلبه لله وجماع كل ذلك إنما هو ما يقوله الله تعالى في حديث قدسي:

«من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي من أداء ما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب لي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذ بي لأعبدنه.

ولقد حقق سيدنا إبراهيم العبودية فكان لله في صدق، فكان لله به استجابة ورعاية، وعناية وتوفيقاً.

حاقد إبراهيم عليه السلام في سبيل الله ما شاء الله له أن يجاهد وأخذت السون تمضي فإذا به يرى الشعيرات البيضاء تتناثر في رأسه وفي لحيته، ويسأل عن معراها فيقول له: إنها علامة الوقاء، فيقول اللهم ردي وقاءاً.

وانتهت به الحياة كما تنتهى بكل مخلوق، انتهت به راضياً عن ربه، مرضياً عنه من ربه، انتهت به الحياة، وقد تجاوز المائة عام بكثير، أمضاها كلها في عمل دائب في سبيل الله، وتولى دفنه أباه اسماعيل واسحاق صلوات الله عليهم أجمعين.

يقول الإمام ابن كثير:

قبره وقبر ولده اسحاق وقبر ولد ولده يعقوب في المربعه التي بناها سليمان بن داود عليه السلام، ببلد حبرون، وهو البلد المعروف بالخليل اليوم.

وهذا متلقى بالتواتر أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، من زمن بنى إسرائيل وإلى زماننا هذا، إن قبره بالمربعة تحقيقاً. فأما نعيه منها فليس فيه خبر صحيح معصوم فينبغي أن تراعى تلك المحلة وأن تحترم احترام مثلها، وأن تبجل وأن يحل أن يداس في أرجائها، خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد أولاده الأنبياء عليهم السلام تحتها.

ويروى أنه وجد عند قبره هذه الأبيات السهلة الحميلة العميفة المغزى:

إلهى جهولاً أمله	بموت من جا أجله
ومى دنا من حتفه	لم تغر عنه حيله
وكيف يبقى آخراً	من مات عنه أوله
والمرء لا يصحبه	في النير إلا عمه

وخير ما يمكن أن يتأتى تقديرًا لحياة سيدنا إبراهيم إنما هو قول الله تعالى:

﴿ولقد اصطفيناه في الدنيا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾.  
وإن بلسادة الصوفية شرحًا جميلًا لكلمة «الصالحين» حينها ترد في مثل هذه المقامات:

إنهم يقولون - الصالحون للحضرة الإلهية، فيكون معنى الآية للكرامة وإنه في الآخرة لمن الصالحين، لحضرتنا.

ولقد أتت عدة أوصاف لإبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم تذكر منها أنه كان مسلمًا، أي أسلم وجهه لله وأخلص له العبادة.

وأنه كان أمة والأمة والجماعة من كان على الحق ولو كان وحده فهو قدوة يفتدى بها في الحق، وهو إمام.

وأنه كان قانتًا: والقانت هو الخاضع الخاشع.

وأنه كان حنيفًا: والحنيف هو الذي لا يسحر ولا يميل ميل بزعات، أو ميل شرك

وأنه كان حبيًا.

وأنه كان أواهًا: والأواه كثير التأوه، وذلك يعنى رقة القلب.

وأنه كان منيبًا: والمنيب هو الراجع إلى الله في كل أموره.

كان شاكرًا لأنعم الله، أى قائمًا بشكر الله على نعمه التى لا تحصى وأنه فى النهاية كان خليل الله. يقول سبحانه . واتخذ الله إبراهيم خليلًا.

ولقد امتد أثر سيدنا إبراهيم حتى وصل فى الجزيرة العربية إلى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام. لقد كن فى الجزيرة العربية أريج طيب لا يزل باقيا ينبعث شدهاء أثناء العصر الجاهلى، إنه أثر الدين، الدين لدى بشر به إبراهيم عليه السلام.

وكان فيها عبير زكى من لخلق الكريم ممثلا فى هـد، أو فى داك ممن يمكن أن نسميهم «الإبراهيميون».

والإبراهيميون هم هؤلاء الذين يسمون «الحنفاء» وهى تسمية تطلق على كل من كان يبحث عن دين إبراهيم وسبعه، وكانوا متناثرين فى الجزيرة العربية هنا وهناك تجمعهم غاية واحدة هى البحث عن دين إبراهيم، وكان من أنبه هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، وكان الخطاب - والد سيدنا عمر - أخاه لأمه

وتبدأ قصة زيد مع دين إبراهيم على الكيفية التالية:

اجتمع زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعثمان ابن الحويرث، وعبدالله بن ححش فى عيد لقريش عند وثى لهم كانوا يدمحون عنده الذبائح، فلما اجتمع لقريشون وبدأوا يدمحون الذبائح ويشربون ويلهون، تفرد زيد وصحبه وقال بعضهم لبعض -

تصادقوا وليكنتم بعضكم على بعض.

فلما أعطوا المواثيق والعهود على الصدق والإخلاص والكنتمار قان قائلهم: تعلمن والله ما قولكم على شيء، لقد أخطأوا دين إبراهيم وخالسوه . ما وثن بعبد لا يصبر ولا يسمع؟ فابتغوا لأنفسكم..

والتزموا فيما بينهم أن يبحث كل ما استطاع عن دين إبراهيم، وأن يخبر كل واحد منهم الآخرين بما أدى إليه بحثه.

يقول كتاب السير عن هؤلاء مقارنين بينهم:

ولم يكن فيهم أعدل أمراً، وأعدل ثباتاً، من زيد بن عمرو بن نفيل.

وبدأ هؤلاء الأربعة باعتزال، لأوثن وهارقوا، لأدبان من اليهود ولصاري والملل كلها بحث عن دين إبراهيم، أو - بتعبير آخر - بحثاً عن الحقيقة: والحنيفية هي دين إبراهيم. اعتزل زيد بن عمرو وكان لا بد له بسبب ذلك من أن ينطوي على نفسه نوعاً ما، فلما اعتزلهم وما يعبدون شق عليهم ذلك واعتبروه إهانة لهم أن يعتزل ألفتهم وكان أشدهم عداوة له ويذاء هو أحوم لأمة: الخطاب.

بعد أداه الخطاب كثيراً حتى لقد أخرجته إلى أعلى مكة، ووكل به شبائياً من قريش، وسفهاء من سفهائهم وأمرهم أن ينعوه من دخول مكة محافة أن يفسد عليهم دينهم، أو يتابعه أحد على ما هو عليه

وحال الشبان بينه وبين مكة فكان لا يدخلها إلا سراً، فإذا علموا به



أخرجوه ونالوا منه الإيذاء.. ولكن الإيذاء لم يفت من عضده ويوهن عزيمته . كلا.

أذت قريش زيد بن عمرو، وكان لخطاب أشدهم في ذلك ، وصمد زيد، وقد كان يروحو أن يحد في زوجته المعين، وقد عز المعين، والنصر، حيث عر التصير ولكنها كانت مثل امرأة بوح، عرباً لأعدائه ونصيراً لهم

لقد كانت عيناً للخطاب عليه، ولكن ذلك كنه لم يصرفه عن البحث عن الحق . وها هو ذا يعادر مكة طنباً للحق . فقد خرج إلى الشام يلتبس ويطلب في أهل الكتاب لأول دين إبراهيم، وسأل عنه.

ولم يزل في ذلك حتى أتى الموصل والجزيرة كلها، ثم أقبل حتى أتى الشام، فجال فيها حتى أتى راهباً ببيعة من أرض البلقاء كن ينتهي إليه كما تذكر كتب السير - علم المصرية فيما يزعمون فسأله عن الحنيفة. دين إبراهيم.

فقال له الراهب، إنك لتسأل عن دين ما أنت بوجد من يحميك عليه اليوم، لقد درس من علمه وذهب من كان يعرفه ولكنه قد ظل خروج يبي وهذا زمانه.

وفرّج ريد حين علم أنه في رمن يخرج فيه نبي يهدي إلى الحق، ولكنه مع ذلك لم ييأس من الوصول إلى دين إبراهيم في انتظار النبي الجديد. وكان كلما سمع يراهب عالم أو خير ضلع يم شطره يسأل عن دين

إبراهيم، وكانت جابتهم تقريباً واحدة، فقد قال له راهب آخر:  
أراك تريد دين إبراهيم يا أخا مكة، إنك لتطلب ديناً ما يوحد اليوم  
أحد يدين به وهو دين أبيك إبراهيم: كان حنيفاً، لم يكن يهودياً  
ولا نصرانياً، كان يصلي ويسجد إلى هذا البيت الذي يبلدك، فالحق ببلدك  
فإن الله يبعث من قومك في بلدك من يأتي لدين إبراهيم الحنيفية، وهو  
أكرم الخلق على الله.

ورغم ذلك ما وهن لريد عزم، ولا فترت له همة  
وفي يوم من الأيام رآته أساء بنت أبي بكر رضى الله عنها مستنداً ظهره  
إلى الكعبة يقول.

يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده، ما أصبح أحد منكم على دين  
إبراهيم غيرى.

ماذا كانت عقيدته؟ ما الذى وصل إليه؟ ما هى ثمره أبعائه  
وسياحاته؟

لقد وصل حقاً إلى جوهر عقيدة إبراهيم عليه السلام.  
وهذا الجوهر هو إسلام الوجه لله، لقد نظر زيد إلى الكون فوجده  
محكوماً بنواميس لا تتخلف، ووجد أن هذه النواميس رتبته بحكمة  
حكيمه، ويتدبر متقن لا حظ فيها للمصادفة، فعلم أنها استجابة للحكيم

الذى أحكمها وطاعة لتخير الذى فصلها، لقد أسلمت الأرض فكأت  
حسبما أراد الخالق سبحانه فى له لا يسلم هو؟

انظر اليه يقول:

وأسلمت وجهى لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرًا ثقلا  
ودحاها فلم استوت شدها سواء وأرسي عليها الجبالا  
ولقد أسلمت السحاب حاملة المياه العذبة فعالة لا يسلم هو؟  
ويعبر عن ذلك قائلا:

وأسلمت وجهى لمن أسلمت له المزن تحمل عذبًا زلالا  
إذا هى سبقت إلى بلدة أطاعت فصبت عليها سجالا  
ولقد أسلمت الريح فما له لا يسلم هو؟ ويصوغ ذلك فى قوله:  
وأسلمت وجهى لمن أسلمت له الريح تصرف حالاً فعالا  
كل شيء فى الكون استجاب فما له لا يستجيب؟ والاستجابة هى  
الإسلام الذى هو جوهر العقيدة الإبراهيمية، وقد أسلم زيد فعحق بذلك  
جوهر العقيدة الإبراهيمية. بيد أن هـ الجوهر لا يغنى عن ذكر شيء من  
التفاصيل.

لقد أسلم زيد بن عمرو وجهه لله تعالى، ومن أول الواجبات نحو هذه  
العقيدة أن لا يشرك الإنسان بربه غيره فى العبادة.

ومن أحل ذلك أعلی زید بن عمرو فی شعره أنه اعتز عبادة الأصنام  
إنه يقول:

عزلت ملات والعزی جميعاً      كذلك يفعل الجند الصبور  
فلا العری أديں ولا ابتيها      ولا صنمی بی عمرو أزور

يقول محمد بن اسحاق: وكان زید بن عمرو قد ترك عبادة الأوثان  
وفارق دينهم، وألزمته عقيدة إسلام اوجه لله أن لا يأكل مما ذبح للأصنام،  
أو باسم الأصنام وكان لا يأكل إلا ما ذبح على اسم الله وحده

قال موسى بن عقبة:

سمعت من أرسى يحدث عن زید بن عمرو أنه كان يعيب على قريش  
ذبائحهم ويقول:

الشة خلقها الله ونزل لها من السماء ماء، وأنبت لها من الأرض، لم  
تذبحونها على غير اسم الله؟ إنكاراً لذلك وإعظاماً له.

ويروى بعض من رأى زیداً عبد عودته من الشام أنه كان يراقب  
الشمس حتى إذا زالت: استقبل الكعبة فصلى ركعة - سجدة - ثم  
يقول:

هذه قبلة ابراهيم وسماعيل، لا أعبد حجراً، ولا أصلى له، ولا آكل  
ما ذبح له، ولا أستقسم بالأزلام. وإنما أصلى هذا البيت حتى أموت.

وكان زيد يحج فيقف بعرفة ويسبى قائلاً:

لبيك لا شريك لك، ولاند لك

ثم يندفع من عرفة ماشياً وهو يقول:

لبيك متعبداً مرموقاً

وحجته هذا، وكلماته تلك في حجه، من أجل المظاهر لإسلام وجهه لله من كلماته في هذا المجال أيضاً: لبيك حقاً حقاً، تعبدًا ورقاً.

وكان يقول في ذلك أيضاً.

أمنت بما آمن به إبراهيم، وهو يقول: أسمى لك عان راغم، مهما تجشمتني فإني جاشم، ثم يخر فيسجد.

ولقد شغل زيد نفسه أيضاً بالجانب الأخلاقي في مكة: لقد كان يأتي للرحل إذا أراد أن يقتل ابنته - وكانت العرب تفعل ذلك - فيقول له: لا تقتلها، ادفعها إلى أكملها فإذا ترعرعت فخذها إن شئت.

وروى الإمام البخاري أن زيداً كان يجيئ لمؤودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته لا يقتلها، أو أكملك مؤتها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كهيئتك مؤتها.

كانت جلسة زيد بن عمرو بن نفيل المفصلة هي أن يجلس مستنداً ظهره إلى الكعبة متحدثاً إلى المفضل والمدير بالطبيب من القول وبالكريم

من الأخلاق. فإذا سأله سائل: لم العبادة؟ ولم التقوى؟ ولم العمل الصالح؟ فإنه يقول:

ولكن أعبد الرحمن ربى      ليعفر ذنبى الرب الغفور  
فتقوى الله ربكم احفظوها      متى ما تحفظوها لا تبور  
ترى الأبرار دارهم جان      للكفار حامية سير  
وحرقى فى الحياة وأن يموتوا      يلاقوا ما تضيق به الصدور  
وأحياناً يتخذ الموت واعظاً ويذكر من يمر به عن طريق غير مباشر بأن  
الموت مصيره كما هو مصير كل مخلوق وأن الحكمة كل الحكمة هي أن  
ينجس الإنسان فعل الشر فيقول:

عجبت وى اللبائى معجبات      وى الأيم يعرفها البصير  
بأن الله قد أفنى رجالاً      كثيراً كان شأنهم الفجور  
ولكنه يعجل فيقول. إنه اذا عثر الإنسان على الآثام فإن باب التوبة  
مفتوح.

وبينا المرء يحترث ثاب يوساً      كما يتروح المصن النضير  
ويتحدث عن عاقبة الآثام فى هذه الحياة الدنيا، تقول السيدة أساء  
بنت أبى بكر رضى الله عنها:

سمعت زيد بن عمرو بن نفيل وهو مسند ظهره إلى الكعبة يقول:

يامعشر قريش، إياكم والزي فإنه يورث الفقر.

وحلص زيد إلى لتوحيد الحق، وإلى الإخلاص المحلص، وهو يعبر عن ذلك بقوله:

إلى الله أهدى مدحتي وثنائيا      وقولاً رضيا لا ينى الدهر باقيا  
إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه      إله ولا رب يكون مدايا

ولقد أثارت حالته هذه اهتمام بعض علماء الكلام من قديم الزمان، وهم من أجن ذلك يذكرونه، عند تعريفهم للنبي صلى الله عليه وسلم. ويتساءلون: أهو خارج عن التعريف أم داخل فيه:

يقول الحلال السواني في تعريف النبي صلى الله عليه وسلم:

هو إسان بعثه الله تعالى إلى الخلق لتبليغ ما أوحاه إليه.

وعلى هذا لا يشمل من أوحى إليه ما يحتاج إليه لكماه في نفسه من غير أن يكون مبعوثاً إلى غيره كما قيل في زيد بن عمرو بن نفيل، اللهم إلا أن يتكلف.

ولقد كان سعيد بن المسيب يذكر زيدا فيقول:

توفي وقريش تبني الكعبة قبل أن يزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس سنين. ولقد نزل به وإنه ليقول: أنا على دين إبراهيم، فأسلم ابنته سعيد بن زيد واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقى عمر

ابن الخطاب وسعيد بن زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم مسألاه عن  
زيد بن عمرو بن نفيل، فقال: غفر الله له ورحمه فأباه ما ب على دين  
إبراهيم.

قال فكان المسلمون بعد ذلك اليوم لا يذكره ذاكر منهم إلا ترحم عليه  
واستعفر له، ثم يقول سعيد بن المسيب، رحمه الله وغفر له.



## لوط عليه السلام

قلنا فيما سبق إن لوطاً عليه السلام غادر الشم إلى سدوم منفصلاً عن إبراهيم عليه السلام ليكون مركزاً ثانياً للدعوة وكان ذلك بإذن إبراهيم وبأمره.

أما السبب في تصرف إبراهيم عليه السلام هذا التصرف فهو أن أهل سدوم اشتهر عنهم في المدن والأقاليم المجاورة، أن القاعدة عندهم إنما هي الفساد، وأن من الشنود أن تجد للخير فيهم أثراً.

لقد كانوا يقطعون الطريق ولا يدعون أحداً يمر فيه إلا إذا أخذوا منه العشر، هذا إذا لم يتهبوا ماله كله.

ولم يكن للأمانة عندهم من وزن وكانت الحياة هي القاعدة حتى لقد كانوا يخونون الرفيق والصديق. وقد كانوا يأتون في ناديم المنكر ناديم هو مكان اجتماعهم وسجديتهم - وكان ما يدور فيه إنما هو العيبة والنعيمة.

وهو البذىء من الأقوال والسيئ من الأفعال.

هذا كله فضلاً عن تلك لجريه الخلفيه الماقيه للطبيعہ الإنسانيه التي درجوا على ممارستها حتى سبت لفومهم. والتي أصبحت في هذا المجتمع القاعدة العامة، والطريقة الشاملة

وكان من الواضح البديهي أن النعمة حلت على هذا المجتمع، وأنه إذا لم يعر ما هو عليه من رذيلة فإن التدمير سيلحقه حتماً.

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد آية ١١)

وهذه الآية الكريمة كما تعنى الجماعات فإنها أيضاً تعنى الأفراد . أى أن الله لا يغير ما بشخص حتى يغير ما بنفسه.

ولما شاع أمر هذه المدن السبع التي كانت تسمى سدوم، واشتهر أمرها، أحب إبراهيم عليه السلام أن يهديهم إلى الله، ولأن يهدي الله بك رجلاً خيراً لك من الدنيا وما فيها.

أحب إبراهيم ذلك وصادف ذلك هرى في نفس لوط عليه السلام وكان أن سافر لوط إليهم هادياً ونصيحاً ومرشداً.

ودهب لوط إليهم في قوة الشباب، وتحمس المؤمنين الصادقين، وإخلاص النية في سبيل الله، وأخذ ينصح ويرشد ويذكر بأيام الله ومعاينة المفسدين، ولكنه فوجئ بغلوب في جمود الصخر وعسوته، وبنفوس أشريت حب الرذيلة ، إلى درجة أنهم حينما كان لوط يذكرهم بالله كانوا

يتداعون إلى إخراجهم يقولون:

﴿أخرجوا آل لوط من قريبتكم﴾..

ثم يذكرون العلة في ذلك فيقولون:

﴿إنهم أناس يتطهرون﴾.

فكان الطهر والصفاء والنقاء في نظرهم من الأسباب التي تدعو إلى الطرد من مدنها.. ورغم ذلك فقد استمر لوط يذكر بالله وباليوم الآخر، وكان موقفه في ذلك مثل الموقف الذي قصه الله سبحانه وتعالى حينما يقول.

﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً؟﴾

﴿قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون﴾. (الاعراف: ١٦٤).

وكان لا مناص من تدمير سدوم وتطهير الأرض من فساد عم سدوم كلها.

يقول تعالى:

﴿وإن لوطاً لمن المرسلين. إذا نجينا، وأهلكنا أجمعين. إلا عجزاً في

الغابرين، ثم دمرنا الآخرين، وإنكم لتمرون عليهم مصبحين، وبالليل

أفلا تعقلون؟﴾. (الصافات: ١٣٣-١٣٨).

## إسماعيل

عليه السلام

وأكمل هنا الحديث عن اسماعيل عليه السلام

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

اتخذوا الخيل (أى اقتنوها أو ربوها)، واعتقوها (أى توارثوها منتجين لها غير مهملين لسلالتها) فإنها ميراث أبيكم إسماعيل.

ويقول أصحاب السير والأخبار: إن إسماعيل عليه السلام أول من استأنس الخيل، لقد كانت من قبله وحشية تنفر من الناس وتفر منهم، فأنسها إسماعيل وربهاها، وعلمها وركبها. وهذا يضعنا مباشرة أمام إسماعيل العارس، وكان إسماعيل بطبيعته وفطرته فارسًا وجاءت ظروف الحياة فألجأته أيضًا لأن يكون فارسًا، وذلك أنه كان يحب الصيد. ومن أجل هذه الهواية التى كانت فى الوقت نفسه ضرورة للعيش وللحياة فى هذا المكان الذى لا زرع فيه ولا خضر، والذى يضطر الإنسان فيه إلى

اقتناص رزقه اقتناصاً من أجل هذه الهواية كان إسماعيل عليه السلام يورى النبل، ومن أجدها دلل الخيل.

والفروسية نوع من الشهامة، ومن الشهامة أن يصبر الإنسان على ما يصادفه من مصاعب. ولقد كان من صفات سيدنا إسماعيل الصبر، إنه تها بالصبر لأن يصحى بنفسه في سبيل مرضاه الله، ومن الشهامة أن يكون الإنسان حليماً. ولقد وصف الله سيدنا إسماعيل بالحلم من قبل أن يولد. ويبدو أن سيدنا إسماعيل كان أنقاً حتى في أسلوبه ولعته. فلقد كانت اللغة العربية من قبله يتحدث بها كنفة تفاهم، فطوعها سيدنا إسماعيل للشاعرية وللخيال، وللكناية والمجاز، ولذلك يقولون: إنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة. ويقولون: إنه أول من تكلم بالعربية البينة ولعل مما يرجع إلى شهامته وإلى أناقته هذه الصفة الكريمة التي تحلى بها طيلة حياته والتي هي من أخص خصائص الرجولة الحقة، ألا وهي صدق الوعد.. يقول تعالى:

﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا﴾. (مريم: ٥٤).

ثم يذكر الله تعالى عمليتين من أعماله لها معزاهما العميق فيقول.

﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة﴾. (مريم: ٥٥).

لقد كان يتحلى بالصلاة ويأمر بها أهله، ويتحلى بالزكاة ويأمر بها أهله..

أى أنه كان حريصاً على حسن صلته بالمجتمع ومظهر ذلك الزكاة، والزكاة هنا معناها البذل والتضحية في سبيل الله في أعم صورة وأوسع نطاق؛ لقد كان حسن الصلة بالله، حسن الصلة بالمجتمع، ومن أجل ذلك يعقب الله سبحانه وتعالى على صفاته وأعماله بقوله سبحانه:

﴿وكان عند ربه مرضياً﴾. (مريم: ٥٥).

وبعد : فلقد روى عن سيدنا عمر بن عبد العزيز أنه قال :

شكا اسماعيل عليه السلام لربه عز وجل حر مكة فأوحى الله إليه :  
سأفتح لك باباً من الجنة إلى الموضع الذى تدفن فيه، ويجرى عليك روحها  
إلى يوم القيامة.

## شعيب عليه السلام

روى ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ذكر  
شعيب عليه السلام قال:  
«ذاك خطيب الأنبياء».

ودلك من أجل ما اشتهر به شعيب عليه السلام، من الفصاحة والبلاغة  
وإدارة الكلام الحق المقنع، متناسقاً مع الظروف والمناسبات.

ويقول الله تعالى:

﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله  
غيره﴾. (هود آية مدين: ٨٤).

ومدين مدينة وإقليم في أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز، ومدين أيضاً  
قبيلة كانت تقطن هذه البقعة من الأرض التي سميت باسم لقبيلة.

ولقد أرسل الله هم شعباً عليه السلام ليعالج أمراضاً اجتماعية وخلقية  
ودينية انتشرت فيهم

والله سبحانه وتعالى يرسل الرسل ليبينوا للناس أمرين :  
الأول منها . رسم طريق الهداية في أصوله وقواعده ، طريق الهداية في  
العقيدة ، وطريق الهداية في الإحلاق ، وطريق الهداية في التشريع ، أي رسم  
الصريق الذي يسود به الأمن في المجتمع ، وتكون به السعادة ، وهو طريق  
لا يرسمونه من عند أنفسهم ، ولا يخترعونه من بنات أفكارهم وإنما  
يتلقونه عن الله فيبلغونه للناس ، ويعملون جهدهم على نشره وتحقيقه .  
والأمر الثاني الذي من أجله أرسل الرسل . هو بيان الآثام التي أمر  
الله سبحانه وتعالى باجتنابها ، وهي آثام تصر بالفرد في نفسه ، وتصر  
بالمجتمع .

وإذا كانت بعض هذه الآثام منتشرة في البيئة التي يرسل فيها الرسول  
فإنه يعنى بها عناية خاصة .

ولقد انحرف أصحاب مدين في جميع المجالات الروحية ، أي في العقيدة ،  
وفي الأحلاق ، وفي التشريع فكرر من العدل الإلهي أن لا يعذبهم حتى  
يرسل لهم رسولاً يقول سبحانه :

﴿وم كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ (الاسراء آية : ١٥) .

ولقد سمى الله قوم شعيب أصحاب الأيكة فقال :

﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾ (الشعراء آية : ١٧٦) .



والأىكة شجرة من الأىك، كانوا يعبدونها من دون الله، وهذا هو الانحراف والفساد فى العقيدة، وهذا الانحراف هو أول شىء ينبه عليه الرسل وعملون على إزالته.

ولقد حاول سيدنا شعيب عليه السلام اقنلاع هذه العقيدة من أنفسهم بشق الوسائل، فهو ينبههم ولا إلى أنه رسول أمين، وكان ذلك من البدهيات عندهم، فهم لم يعلموا عنه خيانة.

وينبههم ثانياً إلى أنه لا يسألهم عن دعوته أجراً، فهو يحتسب أجره عند الله وهذه صفة المخلصين.

إنهم لا يطلبون دنيا، ولا يكرزون مائلاً ولا يطببون ثراء بسبب دعوتهم أو رسالتهم التى ينشرونها، وإنه لمن الواضح أن الفرق بين الداعية المخلص، والداعية المريف، هو أن الداعية المخلص لا ينظر إلى دنيا يجمعها أو إلى ملاذ يغمس فيها.

أما الداعية المريف، فهم كل هه اكتناز المال والاستمتاع بالثراء، ولكن قومه - فى الأغلب الأعم منهم - لم يستجيبوا بدعوته، وأخذوا فى معارضته، ووصل بهم الأمر أن كانوا يجلسون فى كل مكان أهل بالمارة، يهددون من تحدثه نفسه باتباع شعيب ويصدون عن سبيل الله من آمن به، وذلك من أجل أن يستمر الجميع على طريق واحد هو طريقهم المعوج، المنحرف. ولقد كان مما قاله لهم:

﴿ولا تفعدوا بكل صراط توعدون، وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً﴾ (الأعراف آية: ٨٦).

ثم أخذ يذكرهم بنعم الله عليهم.

﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكشركم﴾ (الأعراف آية: ٨٦).

وأخذ يذكرهم بعاقبة من لم يؤمن قائلًا:

﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾. (الأعراف آية: ٨٦).

وأخذ مع كل ذلك يحاول اقتلاع جذور الفساد في المجتمع.

لقد كان مجتمع مدين في غاية الفساد، وكان لابد من أن يغير قوم مدين ما بأنفسهم من السوء إلى صفات الخير خشية أن يدمرهم الله تدميرًا.

ومن أجل أن لا يهلكهم الله بعذاب من عنده، ومن أجل أن لا يأخذهم أحد عزيز مقتدر منتقم، حاول سيدنا شعيب إصلاحهم، وكانت الخطوة الأولى في الإصلاح وهذه الخطوة الأولى في كل إصلاح روعي ديني أخلاقي إنما هي الاستغفار والتوبة.

وقال لهم سيدنا شعيب عليه السلام:

﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾.

ثم ذكر لهم صفتين من صفات الله أرق ما يكون، وأرف ما يكون:

﴿إن ربي رحيم ودود﴾ (هود آية: ٩٠).

وهو لرحمته وودده سيتجاوز عما سلف إذا رجعوا إليه بالاستغفار والتوبة  
المخالصة المصوح.. أما موضوع التوبة فهو هذه الجرائم الكثيرة التي كانوا  
يأتونها في مجتمعهم ومنها الإفساد في الأرض، ولقد قال لهم شعيب:  
﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ (الاعراف آية: ٨٥).

وقال لهم: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ (الشعراء آية: ١٨٣).  
والإفساد في لأرض جريمة من أكبر الجرائم في النظرة الدينية، وهي  
جريمة تؤسس عادة على الإلحاد، أو على الانحراف في الدين.. وكلما ظهر في  
المجتمع ضعف الإيمان، أكثر أهله الإفساد في الأرض، وقد بين الله سبحانه  
جزاء المفسدين في لأرض فقال:

﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً  
أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من  
الأرض﴾ (المائدة آية: ٣٣).

أما الاسم الذي اشتهر به أهل مدين والذي كرر شعيب عليه السلام  
الحديث عنه معهم أمراً ونهاياً فهو اسم يتصل بالتجارة.

نقد كانت التجارة عندهم في غاية السوء، فقد كانوا يطفنون الكيل  
والميزان فيزيدون إذا أخذوا، وينقصون إذا أعطوا، فأخذ سيدنا شعيب  
يقول لهم:

﴿أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ (هود آية: ٨٥).

ويقول: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ (الشعر، آية ١٨١-١٨٢).

وبين لهم أن بقية الله - أي رزقه الحلال - خير لهم من أخذ أموال الناس بالباطل، ولكن ظاهرة تطفيف الكيل والميزان كانت متمكنة من نفوسهم. حيث لم تكن الاستحابة إلا في الأفراد القلائل الذين آمنوا بشعيب عليه السلام، وظهرة التطفيف، والآثام التي حذر القرآن الكريم منها وبين جرمها فعال في أسلوب فيه إنذار وهديد:

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾.

والويل واد في جهنم ذو عذاب أليم.

ثم بين سبحانه وتعالى المطففين بقوله:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

ثم أخذ الله سبحانه يعجب من أمرهم فيقول:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

واستمر شعيب عليه السلام يعالج الأمراض المتنوعة بأسلوبه المنطقي، ويسلوكه المستقيم، فاستجاب له من أراد الله له الهدية والرشد، وصد عنه الغالبية العظمى من قومه، واستمروا على ما هم عليه من فساد وحوار

وظلم فكانت عاقبتهم هي عاقبة الشر والمعصى والآثام وهي ما عبر الله سبحانه وتعالى عنه بقوله:

﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا، وأخذت الذين ظلموا الصبحة فأصبحوا في ديارهم جائمين، كأن لم يفتنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾ (هود آية: ٩٤-٩٥)

# أيوب

عليه السلام

تجاور في رحاب الكون، منذ وحد الكون، ظواهر الخير وأشر والحس الأخلاقي، والقبح الأخلاقي، كما يتحاور النعيم والشقاء، والسعادة والبؤس.

وقد يرى الإنسان من خلال التاريخ مظهرًا يلع النروة في الوفاء وفي الصبر فيسعد برؤية نموذج للفضيلة قد تحقق بالفعل.

وقد يرى الإنسان من خلال التاريخ مظاهر للغدر والخيانة. وقعت هنا أو هناك، فيستش ويحزن.

وفي التاريخ، وهو يحدثنا عما يجري في رحاب الكون، عظة وعبرة وذكرى.

نقول هذا بمناسبة حديثنا عن قصة أيوب صلوات الله وسلامه

عليه، والمقرآن الكريم يحدثنا عن أيوب عليه السلام في عدة من السور،  
فيقول في سورة الأنبياء:

﴿وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين﴾  
(الأنبياء آية: ٨٣).

وفي هذه الآية الكريمة لا يطلب أيوب شيئاً بصيغة الطلب الصريحة،  
ولما يتجه إلى الله معلناً حالته، ذاكراً أنه مسه الضر، ثم يخاطب الله سبحانه  
بصفة من صفاته هي أنه سبحانه أرحم الراحمين، ولا شك أن صورة  
الالتجاء إلى الله على هذه الكيفية إنما هي صورة من صور الأدب العالى في  
الدعاء.

وما من شك في أن أيوب عليه السلام لم يتجه إلى الله بهذا النداء  
إلا وقد بلغ من الاضطرار إلى الحد لأعنى، والله سبحانه وتعالى يقول:  
﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ (النمل آية: ٦٢).

ومن أجل التجائه إلى الله واضطراره قال الله سبحانه وتعالى مبيناً  
نتيجة التجائه إليه:

﴿فاستجبنا له، فكشفنا ما به من ضر، وآتيناه أهله ومثلهم معهم  
رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾ (الأنبياء آية: ٨٤).

ما هي قصة أيوب؟

لقد آتاه الله ثراءً عريضاً، ونعمة موفرة، وكان ثراؤه أبواناً عدة، كان عنده من الثروة الزراعية متمثلة في المزارع والحدائق والرياض الشيء الكثير. ويتحدث الإمام ابن كثير عن الأراضي المتسعة بأرض الثنية من أرض صوران التي كانت له ثم يذكر عن ابن عساكر أنها كلها كانت له. وكانت له أموال من الأنعام والمواشي لا تكاد تعد.

ومنحه الله نعمة القوة والصحة والوسامة، ووهبه زوجة يتمثل فيها كل ما يتطلبه الرجل من الزوجة من خلق كريم، ومن رقة وجمال، ولم يبطر أيوب ولم يتكبر، إن النعمة لم تبطره، وإن الفنى لم يحرف به، لم يكن من هذا النوع الذى قال الله فيه:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾

ولم يكن من هذا النوع الذى «يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين» ذلك النوع الذى يصمه الله بأنه يكذب بالدين. كلا، لقد كن صابراً على النعمة والصبر على النعمة هو شكرها.

ومن شكرها ومن الصبر عليها أن يؤدي الإنسان حق الله فيها، ولقد كان أيوب يؤدي حق الله في النعمة: كان يطعم الجائع، ويكسو العارى، وينجد ذا الحاجة الملهوف.

وهذا الصبر على النعمة - وقد يبلى بعض الناس بالنعم - والصبر فيما بعد على الشدة والمرض هما البدان كانا السبب في اخذ صبر أيوب مثلاً،



والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا، نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

منح الله أيوب عليه السلام الثراء العريض، والنعمة الموفورة، والصحة والوسامة.

ثم أخذ المال يتناقص، وأخذت النعمة في لزول، وضعفت الصحة شيئاً فشيئاً، ثم جاءت لحظة من اللحظات وقد زال تماماً ذلك كله، جاءت وقد باع أيوب آخر ما عنده مما يمتلك، وأنفق أيوب آخر ما يقتنى، وأصبح من الفقر بحيث لا يجد ما يسد جوعه، ومن المرض بحيث لا يستطيع أن يعمل.

وأشفق عليه في المبدأ الأهل والأصدقاء، من ذوى الثراء والنعمة، ثم أخذ اشفاقهم يفتر، وأخذ عطفهم يتلاشى وأخذت صلتهم به تزول شيئاً فشيئاً بحسب ما تتضمنه نفوسهم من عوامل الوفاء قوة وضعفاً، ثم زال كله بمرور الزمن، وذلك أن مرضه طال وابتلى جسده - كما يقول الإمام ابن كثير - بأنواع من البلاء، وطال مرضه حتى عافه الحليس، وأوحش منه الأنيس، وأنقطع عنه الناس.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما روه عن ابن أبي حاتم: أن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة، فرفضه القريب ولبيد، إلا رجلين من احواله كانا من أخلص إخوانه له، كانا يغدوان إليه

ويروحيان، فقال أحدهما لصاحبه:

تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أدنيه أحد من الصالحين.

قال صاحبه: وما ذاك؟

قال: منذ ثمانى عشر سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به.

فلما راحا إليه لم يصبر الرجل على ذكر ذلك له.

فقال أيوب: لا أدري ما تقول، غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بئى فأكفر عنها، كراهية أن يذكر إلا في حق.

ومعنى ذلك أن أيوب عليه السلام وصلت به شفقتة على الناس، ووصل به تقديسه فله سبحانه وتعالى إلى درجة أنه كان حين يسمع رجلاً يقسم بالله على أمر من الأمور يذهب إلى بيته فيخرج كفارة اليمين إشفاقاً على الرجل أن يكون قد حلف كذبا، وتقديساً لله أن يقسم به على رور دون أن يكفر عن القسم.

- وقد كان أيوب عليه السلام يحل بصفات جامعة.

منها: أنه كان لا يبيت قط ليلة وهو شعبان مع عنقه مكان حائض.

ومنها ما أخبر به من أنه لم يكن قط له قمصان وهو يعلم بمكان عار.

ومنها الصمة التي ذكرها القرآن الكريم منبها عليه بها وهي أنه أواب.

والأرباب هو الذي يرجع إلى الله سبحانه وتعالى في جميع أوقاته.. يرجع إليه بالحمد على نعمه وآلائه ويرجع إليه بالتعكر في جميل صنعه، والتدبر في بديع آياته ويرجع إليه بالذكر حتى يكون لسانه دائماً رطباً بذكر الله.

- وقد كان أيوب عليه السلام في عنقوان محنته وفي شدة ابتلائه ذاكراً لله سبحانه وتعالى، عالماً أن ما به إنما هو نعمة من الله يسديها له.

يقول الإمام ابن كثير مصوراً مرض أيوب.

لم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر الله عز وجل، وهو في ذلك كله صابر محسب ذاكر لله عز وجل في ليله ونهاره، وصباحه ومساءه.

يقول الله تعالى:

﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.

ويقول رسولنا صلوات الله وسلامه عليه: أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل.

ويزيد رسولنا صلى الله عليه وسلم موضوع الابتلاء وضوحاً فيقول:

يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلاية زيد في بلائه.

وهذا الابتلاء إنما هو اختبار وامتحان من الله، وهو عادة يتمخض عند الصادقين عن رضا من الله سبحانه يفر الصابر المحتسب، وعن رحمة من الله سبحانه تحيط بمن نجح في الاختبار وتكون المعجيات الإلهية والآلاء

الرأبانية، وتكون السعادة العظمى.

- ولقد نصح أيوب في الاختبار فكشف الله ما به من ضر.

وينكشف ابتلاء أيوب عن قصة من أجل قصص الوفاء عن قصة  
لوفاء لا تكاد تجد لها مثيلاً في خلال التاريخ شرقيه وغربيه، إنها قصة وفاء  
زوجته.

لقد لازمته هذه الروجة الكريمة ملازمة نامة، وكاس الوحيدة التي حسب  
عليه طينة ابتلائه، فقد كانت تقدر حق الزوجية كل التقدير، وتقوم  
بواجبها خير قيام، إنها تذوقت معه اسعادة في أيام نعمته، وها هي ذى  
تتوفر بكل جهدها عيه في أيام ابتلائه، لقد أخذت تدبر أمر المعيشة له ولها  
بكل وسيلة شريفة حتى اضطرتها الظروف في النهاية إلى أن تعمل عند  
ذوى العمة فخدمت بعد أن كانت مخدومة، وترددت على الأثرياء بعد أن  
كان قصرها يزدهم بالترددين عليها، وكان الناس يشفقون عليها  
فيستخدمونها حتى ولو لم يكونوا في حاجة إلى خدمة، من أجل أن يعطوها  
القليل الذى يسد جوعها وجوع زوجها.

- ومع ذلك فإن القضاء لم ينته في أمرها وأمر زوجها إلى هذا الحد  
فحسبه فقد ترددت اشاعة في جميع الارحاء أن من يسخدم امرأة أيوب  
ربما ناله من بلائه، وحل عليه من شقائه، وترددت على الأبواب فلم تمتح  
الأبواب لها، وبحثت عن عمل فلم تجد، وطوت هي وزوجها اليوم، وباتا  
جانحين وفي جوارهما القصور والنعيم، وبالقرب منها ذور الثراء من

الأقارب والأباعد، وفكرت هذه لسيدة وأطالت التفكير، فكرت في أمر الخروج من هذا المأزق المهاجي، ومن هذه الشدة الجديدة، وكانت ذات شعر طويل حميل، فرأت وهي في محنتها أن لا حاجة لها بهذا الشعر، وماذا تصنع به وحياتها وحياة زوجها على أبواب النهاية.

- يقول الإمام ابن كثير: فلما لم تجد من يستخدمها عمدت فباعته لبعض بنات الإشراف إحدى صغيرتيها، بطعام طيب كثير فأنت به أيوب فقال:

من أين لك هذا؟ وأنكره.

فقالت: خدمت به أناسا، فلما كان العد لم تجد أحدا فباعته الصغيرة الأخرى بطعام فأنته به، فأنكر أيضا وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام، فكشفت عن رأسها خمارها، فلما رأى رأسها محبوقا قال في دعائه:

﴿رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾.

- ولعل أيوب عليه السلام لم يقلها من أجل نفسه، وإنما قالها من أجل زوجته من أجل وفاتها. من أجل اخلاصها، من أجل لحمل الذي أسدته.

واستجاب الله للدعاء، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء. وعادت الحياة بأسمة؛ فيها الثراء وفيها لنعمة، وفيها ذكريات

للوفاة وللصبر وشعور غامر برصوان من الله ومحبة منه سبحانه.  
يروى أنه حينما دعا بدعائه أوحى الله إليه: قد رددت عليك أهلك  
ومالك ومثلهم معهم، فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك، وقرب عن  
صحابتك هرباناً، واستغفر لهم فإنهم قد عصوا فيك.

## يونس

عليه السلام

روى الإمام البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال .

« لا ينبغي لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى ».

ويونس بن متى هو صاحب الدعوة المشهورة، التى يقول عنها رسول

الله صلى الله عليه وسلم :

« لم يدع مسلم ربه فى شيء قط لها إلا استجاب له ».

وهذه الدعوة هى :

« لا إله إلا أنت، سبحانك إني كنت من الظالمين ».

وهى دعوة تبدأ بالتوحيد الخالص يتمش فى قوله تعالى : لا إله

إلا أنت. وتنتهى بالتنزيه، تنزيه الله عن كل ما يتنافى مع الكمال، وذلك

يتمثل فى قوله : « سبحانك ».

ثم تنتهى بالاعتراف الخاشع الخاضع المتمثل فى قوله :

«إني كنت من الظالمين».

وهذه الكلمات الغريبة التي يتمثل فيها الإيجاز المعجز في اللفظ، والتي يتمثل فيها السمو السامي في المعنى لا تطلب شيئاً في صراحة، ولا تنادى بشيء بأسلوب مباشر، ولكنها مفعمة بالطلب، مفعمة بالاستغانة.

لقد دعا بها سيدنا يونس وهو في بطن الحوت

ويحسن أن نبدأ القصة من أوطأ:

ولقد أرسل الله سيدنا يونس عليه السلام إلى أهل «نيوى» من أرض الموصل، وكان سيدنا يونس ككل الأنبياء، متحمساً لدعوته، قائماً بها في الصباح والمساء، وكلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ومتخذاً لها كل الوسائل التي في إمكانه لتنتشر وتعم.

ولكن قومه قابلوا تحمسه بفتور، وقابلوا دعوته إلى الإيمان بالكفر الأصم، وقابلوا عنايته بعناد لا يلين.

وإذا كان سيدنا نوح في مثل هذا الموقف الذي لا يارقه من مل في إصلاحه دعا على قومه قائلاً:

﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ (نوح آية: ٢٦-٢٧).

فإن سيدنا يونس رأى أن لا فائدة في المكث بينهم فأنذرهم بحلول



العذاب بهم بعد ثلاثة أيام، وخرج من بينهم معلناً أنه يخرج من أجل النجاة من عذاب الله الذي يوشك أن يحل بهم لكفرهم وطفيلاتهم وعادر المدينة منعماً أن يكون ذلك على مرأى ومشهد من أهلها. وما أن فارقهم نبي الله حتى بدأ الخوف بل الرعب يدب إلى قلوبهم، ويتغلغل في نفوسهم. وقد أخذتهم دكرتهم في إلقاء الضوء على صدقه وأمانته، وعلى مصائنه ومكارم أخلاقه، وعلى أنه لم يعهد عليه الكذب ولا الخديعة وترجع عندهم صدقه، ثم يُقنوا بهذا الصدق، وتأكدوا أن العذاب لا محالة نزل بهم وأخذ خياهم بصور لهم العذاب وألوانه، وفجائعه، فاجتمعوا وتشاوروا فيما بينهم وانتهوا إلى اتفاق عام، هذا الاتفاق العام يصوره أسلافنا في صورة أخاذة يرونها الإمام ابن كثير على الوضع التالي:

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد من السلف والخلف: فلما خرج من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزل العذاب بهم، قدف الله في قلوبهم لتوبة والإمابة، وتدموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم لجأوا إلى الله عز وجل، وصرخوا وتقربوا إليه، وتمسكوا لديه، وبكى الرجال والنساء واليون والبنات والأمهات، وخارت الأنعام والدواب والمواشي، ورغت الإبل وفصلاها، وحارت البقر وأولادها، وثعب العنم وحملاتها، وكانت ساعة عظيمة هائلة. وهذه هي الصورة التي رسمها أسلافنا فعاداً كان من أمره وماذا كان بعد من أمرهم؟

فارق يونس عليه السلام قومه بعد أن أنذرهم بعذاب مدمر فتصرعوا إلى الله سبحانه بالتوبة والإقامة والاستعمار، مقدمين بين يدي ذلك كله: الإيمان الصادق فكانت ثمرة ذلك نجاتهم التي صورها الله بقوله.

﴿إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ (يونس آية ٩٨).

وهذا الذي صنعه الله بهم يساير نواميس الله سبحانه التي سبها نظاماً عاماً للبشرية، وهي أن عذاب الله سبحانه ينزل على الأفراد أو على المجتمعات بنسبة بعدهم عن الإيمان، وأن رحمته تغمر الأفراد والمجتمعات بنسبة قربهم من الإيمان، والنجاة دائماً مكفولة في نواميس الله للمؤمنين الصادقين.

أما يونس عليه السلام فإنه لما صاق بقومه درعاً فارقه مغاضباً مندراً بالعذاب.

ولم يكن هذه المفارقة عن استئذان من الله سبحانه أو عن أمر منه، وإنما ظن هو أن هذا في شريعة الله أوسع من أن يحتاج إلى إذن، وأنه غير مضيق عليه من قبل الله في لمكث أرى في المفارقة، أي أنه في مجال المباح.

وعزب عن ذهنه في ساعة مغاضبته لعمومه أن المفارقة، بدون استئذان إذا جازت بالنسبة للأفراد لعاديين، فإنها لا تجوز بالنسبة لمن يصطفيه الله للعبودية الخاصة، ومن يجتنبهم مرسلين من قبله.

إن هؤلاء لا يتحركون إلا به، ولا يسكنون إلا عن أمره، وهم في كل ما يأتون به وما يدعون قد ألقوا بمقاليد أمورهم بين يديه يصرفهم حسبما يشاء.

ولعل ذلك هو ما تعنيه الكلمة القرآنية الكريمة في قوله تعالى:  
﴿فاصبر لحكم ربك، ولا تكن كصاحب الحوت﴾ (سورة القصص: آية ٤٩).

وصاحب الحوت هو سيدنا يونس الذي لم يصبر على كفر قومه وعنادهم ففارقهم عن غير إذن من الله، فكان من تقدير الله سبحانه أن وصل يونس عليه السلام إلى شاطئ البحر وركب مركباً مشحوناً ثقیل الحمولة، وهبت ريح جعلت المركب على حافة الفرق من فيها، فكان لابد من تخفيف حمولتها حتى يستقيم أمرها.

واستهم الركاب على من يلقيون به في البحر تخفيفاً للحمولة، فوقعت القرعة على يونس عليه السلام وألقوه في البحر.

ولما ألقوه في البحر، ابتلمه حوت كبير، وفجأة رأى سيدنا يونس نفسه في بطن الحوت فأسرع مستغيثاً:

﴿فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ (سورة الأنبياء: آية ٨٧).

روى يزيد الرفاشي قال:

سمعت أنس بن مالك - ولا أعلم إلا أن أنسًا يرفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول:

إن يونس النبی علیه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال:

«اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».

فأقبلت هذه الدعوة تحب العرش، فقالت الملائكة: يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة. فقال:

أما تعرفون ذاك؟ قالوا: لا يا رب ومن هو؟ قال: عبيد يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يرل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة؟ قالوا: يا ربنا، أو لا ترحم ما كان يصنعه في الرخاء فتسجيه من البلاء؟ قال: بلى.

فأمر الحوت فطرحه في العراء.

أمر الله الحوت أن يلقى بيوس فألقاه الحوت بالعراء وهو ضعيف البدن، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين - قرع - ليأكل منها - وهي بغداء مفيد - دون أن يسعى ليل غذائه وهو بهذه الدرجة من الضعف، وعناية الله فرق كل عناية، يقول ابن كثير: قال بعض العلماء:

« في إنبات القرع عليه حكم حجة، منها أن ورقه في غاية النعومة، وكثير وظليل، ولا يقربه دباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره، نيا ومطبوخا، وبقشره وبينره أيضا، وفيه نفع كثير، ونقوية للدماغ وغير ذلك». اهـ

أما هذه العناية من الله بـيونس، فإن الله سبحانه يحدث عن سببها إذ يقول:

﴿قُلُوا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلْبِثِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.  
(الصافات: آية ١٤٣-١٤٤).

لقد كان يونس عليه السلام مسبحا، أي منزها لله سبحانه، والتعبير الذي يدل عليه التنزيه هو:

(سبحان الله، أو: سبحان الله وبحمده).

أما بدء يونس وهو في بطن الحوت، أي.

« لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ».

فإنه دعوة في غاية الحق.

إنها أولاً توحيد: لا إله إلا أنت.

وثانيا: سبحانك.

وثالثا: اعتراف وصف فيه نفسه بالتقصير في حق الله:

«إني كنت من الظالمين».

ومع كل ذلك فإن يونس عليه السلام ككل الأنبياء والرسل في قمة الخلق الكريم.

والتسبيح إذن من وسائل النجاة والحفظ والحماية.

أما دعاء يونس عليه السلام فقد روى سعيد بن المسيب، قال: سمعت ابن مالك - وهو ابن أبي وقاص يقول. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«اسم الله الذي إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس ابن مئى» قال:

فقلت يا رسول الله: هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟

قال: هي ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله تعالى:

﴿فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾ (الأنبياء الآية: ٨٧).

«فهو شرط من الله لمن دعاه به» أهـ.

أما عن يونس عليه السلام نفسه، فإن الله سبحانه وتعالى يقول عنه:

﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾.

واخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى».

على رسولنا وعليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم»

## موسى

### عليه السلام

يقول الله تعالى:

﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، ولا تخافي ولا تحزنى، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾.

وهكذا يرى من مبدأ قصة موسى عليه السلام عناية الله به ورعايته له، وهذه العناية والرعاية ليست خاصة بموسى، وإنما يقدرها الله سبحانه وتعالى لكل من يصطفيهم، إنه يقدرهم لهم أولاً، فيأتون إلى العالم وقد خططت حياتهم ورسمت في حكمة دقيقة، لقد رسمت من قبل أن يولدوا بحيث اختار الله لهم الآباء الشرفاء والأمهات لأطهار

يقول إمامنا البوصيري عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:  
لم تزل في ضائر الكون تختار لك الأمهات والآباء  
واطر إلى السيدة مريم رضى الله عنها حين استعادت بالرحمن من هذا



الذى تمثل لها بشرًا سيئًا، فقال مطمئنًا ومهدئًا.

﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ عَلَامًا زَكِيًّا﴾

فلما استغربت ذلك قائلة:

﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْ بِشِرِّ وَلَمْ أَكْ بِغِيًّا﴾.

بين لها أن المقادير الإلهية رسمت الحياة منذ لأزل قائلاً:

﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ، وَلَنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا، وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾.

فقد كان أمرًا مقضيًا قبل أن يولد عيسى عليه السلام، وكان أمرًا مقضيًا شاءت أمه أو أبت.

ونعود بعد هذا إلى سيدنا موسى عليه السلام فنرى أن حكمة الله اقتضت أن يولد في عام يقتل فيه المواليد من أبناء ليهود عقابًا لهم على بغيتهم وطمعانهم وإفسادهم، وكان من تدبير هذه الحكمة في ذلك أن يربى هذا الوليد في القصر الملكي تحت العناية التامة صحيًا، وحيث اعنايه التامة ثقافيًا، وحيث افرصة متاحة في القصر لمعرفة لسياسة وأسرار الحكم وتصريف الأمور وتدبير شئون الدولة وقيادة الأفراد.

لقد كان سيدنا موسى بعد لنسوة، ونبوة قيدة لجميع أقطار الإنسان وقيادة لجميع ذوايا المجتمع في الجانب السلوكي والاجتماعي، في الإرادات

والنوايد، في الأخلاق والتصرفات، وفي كل ما يأتيه الإنسان أو يدعه من مسائل العقيدة والأخلاق والتشريع.

ودبرت العناية الإلهية الأمور على الوضوح الذي يقصده الله تعالى في أكثر من سورة من سور القرآن

ومن الواضح لسافر الذي لا لبس فيه أن الله سبحانه وتعالى كان يصطفيه لنفسه كما يقول سبحانه:

﴿وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي﴾.

وأنه سبحانه كان يصنعه على عيه كما قال سبحانه:

﴿وَلَتَصْنَعْ عَلَيَّ عَيْنِي﴾.

وتبدأ قصة موسى عليه السلام بأن أمه حملت به فأصابها من الهم ما الله به عليم، لقد سرح بها حبالها في مستقبل هذا الحمل وفيما ينتظره من مصير، لقد كانت تفكر في الأمر نهراً وكانت تفكر فيه ليلاً، وأصبحت حريسه للهواجس لا تفارقها.

فطمأنها الله سبحانه، وأمرها أن تأخذ الأمر في يسر تام، لقد أمرها إذا ما تم الوضع أن ترضع الوليد رضعه مشبعة ثم تضعه في صندوق وتلقيه في النيل.

وأحكمت أم موسى الأمر إحكاماً: أحكمته من جهة الصندوق، وكيفيته، وأحكمته من جهة الإلقاء، ووقت الإلقاء ثم ألقته، داعية الله له

بالحمظ وما أن بعد عنها، وتورى عن نظرها حتى أضحت فريسة  
 لدهو جس مرة أخرى، وأخذ الشيطان يهمس في أذنها، فحدثت نفسها  
 قائلة: ماذا فعلت يا بنى؟ لو ذبح عندى فواريته وكففته كان أحب إلى من  
 أن ألقيه إلى دواب البحر وحيثانه، لقد أصبح قلبها معلقاً به فارغاً من  
 غيره، وكادت تعس الأمر وتذيع الخير حتى يرد ولدها عليها ولو كان  
 مذبوحاً ولكن الله عصمها وثبتها وربط على قلبها لتكون من المؤمنين.

\* \* \*

عن ابن عباس رضى الله عنهما - حسبما روى الثعالبي - قال:  
 «إن بنى إسرائيل لما كثروا بمصر استظالوا على الناس، وعملوا  
 بالمعاصى ووفق خيارهم شرارهم، ولم يأمرؤا بالمعروف، ولم يهوا عن  
 المنكر، فسلط الله عليهم القبط فاستضعفوه، وساموهم سوء العذاب،  
 فذبحوا أبناءهم».

ورأى ابن عباس هذا، هو الرأى الاشبه بالحق فى سبب سوء التفاهم،  
 الذى حدث بين المصريين واليهود عندما كان سيدنا موسى عى وشك أن  
 يتنسم الحياة.

لقد أفسد اليهود فى أرض مصر حينئذ إفسادا كان من المحنم معه  
 إضعاف شوكتهم، وفى هذه الفترة ولد سيدنا موسى، وكان من ثمار ميلاده  
 فى هذه الفترة، أو من حكمة الله لولادته فى هذه الفترة أن تسير به المقادير

في عناية تامة إلى أن تصعه في القصر الملكي يربي فيه، ويعد لمواجهة هذا الظلم الماكر والفساد العنيد.

وولد موسى، فحافت أمه أن يقتل وألقته في النهر، وأطلق الماء بموسى يرفعه الموج مرة ويخفصه أخرى، حتى أدخله - كما يذكر اليسابوري - بين الأشجار عند دار فرعون إلى روضة هي مستقى جوارى فرعون، وكان بالقرب منها نهر كبير في دار فرعون، داخل في بستانه.

فخرجت جوارى فرعون يعتسلن ويستقيين، فوجدن الصندوق قد حمله التيار إلى مستقاهن ومغسلهن، فأقبلن عليه يساقسن في التقاطه، فلما أصبح بين أيديهن أحذر في التنبؤ بما فيه، أهو كنز من ذهب؟ أهو مجموعة من الحواجر؟ أهو أي شيء آخر؟

وانتهى بهن الرأي إلى أن الأسلم فيما يتعلق بهن أن يذهبن به إلى سيدتهن ربة القصر، امرأة فرعون فحملته على حالته حتى أداخته على «اسية» امرأة فرعون هذه السيدة التي صرب الله بها مثلاً للمؤمنين، فقال:

﴿وَضَرْبَ اللَّهِ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فَرَعُونَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِذْنِي مِّنْ فَرَعُونَ وَعَمِلُوا صَالِحًا مِّنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

ولقد وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكمال مسويًا في ذلك

بينها وبين السيدة خديجة الزوجة الأولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم،  
والسيدة فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والسيدة مريم أم  
السيد المسيح رضى الله عنهن أجمعين.

وحينما وصلت الجوارى إلى مكان السيدة آسية وضعت الصندوق أمامها  
فأمرتهن بفتحه، ففتحته، فرأت غلاماً وسيماً قسيماً، وألقى الله تعالى في قلبها  
محبة، كما قال الله سبحانه:

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾.

لقد أشفقت عليه السيدة الكريمة، ورحمته، وأحبته حباً لأول نظرة، حبا  
قويماً كان من أثره أن رطنت العزم على أن تستنقده من برائن فرعون  
وعصافته.

وذهبت بالطفل في طفولته المضرة، وفي منطره ابرىء إلى فرعون،  
وقالت: هره عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفع أو ينخذه ولذا.  
وذكرت له أن طقلاً واحداً، لا يُريد في بى إسرائيل، واستوهبته إياه  
ولم تزل ترجو وتتعطف وسترحم حتى وهبه لها.

وسعدت آسية بفوزها، وبعمت بتحقيق رعبتها، ومكثت هنبهة تداعب  
الطفل وتدله، ثم سمته (مو شى) وهو اسم مركب من كلمتين كـ «مو»  
ومعناها الماء وكلمة «شى» بالامالة ومعناها الشجر وذك أن  
موسى عليه السلام وجد في لصندوق بين الماء والشجر، ثم عرّبت الكلمة

فأصبحت موسى.

سعدت السيدة اسية رضى الله عنها بموسى هبة من لرمس حينما وهبه فرعون لها، ثم انقلب سعادتها قلقاً واشفاقاً وذلك حين أحضرت الموضع فلم يقبل على ثديها فأحضرت مرصعاً ثانية فامتنع عليها، وأحصرت ثالثة فرفض الرضاع منها وهكذا وأشقت السيدة لكرمة أن يمتنع عن السن ويموت جوعاً وتنتهى حياته في ساعات فأحرنها ذلك كل الحزن، وأخذ تفكر في أمره لغريب، لقد نجا من الموت عرفاً وقد كان من الممكن أن ينقلب الصندوق بموجه واحدة فيصير الطفل في عالم الموتى وقد كان من الممكن أن يقتل قبل لقاءه في النهر وكان من الممكن ألا يهبه فرعون لها، لقد نجا الطفل من كل ذلك، أمكن الأقدار قد ادخرت له اموت جوعاً؟ وأمرت السيدة في محاولة تحريرية أن يؤخذ إلى السوق وأن يعرض عليه كل من كانت حديثة عهد بالولادة لعله يرصع من إحداهن، ولكنه امتنع وتحقق بذلك قوله تعالى:

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾.

وكان الله سبحانه قد وعد أم موسى برده إليها قائلاً: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ﴾

ومن أجل تحقيق هذا الوعد تصرف المقادير على النحو التالى حينما ألقى موسى عليه السلام في اليم قالت أمه لأخته «قُصِيهِ» أى تتبعى أثره فأخذت أخته تتبع أثره معتمدة ألا يبدو منها الاهتمام الخاص

به، واستمرت في ذلك صابرة منتبهة بقطعة إلى كل ما يدور، مما يتعلق بموسى، حتى إذا كان في السوق تعرض عليه المراضع، تدخلت أخته قائلة ﴿هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾.

فالتفوا حولها وقالوا لها:

وما يدريك بنصحهم له، وبعلك قد عرفت هذا الغلام، فتدلينا على أهله، فعالت ما أعرفهم وإنما نصحي له وشفقتي عليه رغبة في سرور الملك، ورجاء منفعة، وأملًا في رضاه وهباته.

فأرسلوها لحضر من أشارت بها، فذهب إلى أمها وأخبرتها الخبر، فجاءت بملؤها الحنان والشوق، ويغمرها الفرح والرضا.

وما أن قدمت له نديها حتى التقمه وأخذ يمتص منه إلى أن امتلأ شبعًا وريًا.. وطار المبشرون إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لطفلًا مرصعًا، فغمرها الفرح وأرسلت فأتت بها وبه وشاهدت لرضاع، وتثبتت بنفسها من الأمر، ثم قالت لأمه: أقيمى هنا في القصر لأجل أن ترضعى ابني هذا وكل أمورك مكفولة، وسحدين الراحة، وستنعمين بما يتنعم به ساكنو لقصر. فتذكرت أم موسى وعهد الله لها.

﴿إنا رادوه إليك﴾.

وعلمت أن الله لا يخلف وعده، فقالت في غير تردد ولا خوف. لا أستطيع أن أدع ولدي، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى

بقي فيكون معي لا آلوه خيرا، ولما رأت امرأة فرعون تصميم ام موسى سمحت لها بأخذه فرحمت به إلى بيتها من يومها وتحقق بذلك وعد الله ها.

﴿إنا رآؤوه إلبك﴾.

مكث موسى مع أمه مدة الرضاع، وأبنته الله نبأنا حسنا، وحفظه من كل سوء، فلما انقضت امدة لتي كانت امرأة فرعون تنعجل سهايتها حدد يوم لعودته إلى القصر، وأعلنت امرأة فرعون يوم عودته، واستعدت لذلك، واسعد من حولها، وكن يوما مليئا باريبه ومواكب المهنيين

أما ما حدث بعد ذلك في سوب الطفولة وأو ثل الشباب فإن التاريخ بصمت عنه، وما من شك في أنه ربى أحسن ما تكون لتربية، وبصمت القرآن أيضا عن هذه الفترة ثم يفاجئنا به وقد بلغ أشده واستوى فيقول:

﴿ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين﴾ (القصص آيه: ١٤).

ونف قللاً عند قوله تعالى، ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ لأنها ترشد إلى أن الله كان قد آتاه حكما وعلما فإن موسى عليه السلام قد قدم ما جعله جديرا، بذلك وهو أنه كان من المحسنين، كان ينصر المظلوم، ويعين لعاخر ويساعد من كان في حاجة إلى عونه وكان سريع لرحوع إلى الله أي أنه كان حسن اتصاله بالله، وكان حسن اتصاله بأفراد المجتمع ومن كان كذلك عين الله سبحانه شبه خير مثوبة، يقول سبحانه:



﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ،  
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (يونس آية ٢٦)

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾  
(النحل آية. ١٢٨)

إنه سبحانه مع المحسنين بالرعاية والتوفيق، ومعهم بالعناية والهداية،  
ومعهم بالرحمة، وإن رحمة الله قريب من المحسنين

ومكث موسى عليه السلام في القصر ماشاء الله أن يمكث، ثم اقتضت  
الحكمة الإلهية أن يغادر القصر وأن يغادر مصر كلها فارًّا خائفاً

أما أسر في ذلك، فإنه دخل المدينة في وقت هدأ فيه السير، وانقطع  
السائرون، واستكنَّ كل إنسان في بيته يطلب الراحة والهدوء، وإذا به يجد  
رجلين يقتتلان؛ أحدهما من شيعته، والآخر من أعدائه، وكان موسى  
معروفاً لدى جمهور الشعب، فأحد الذي من شيعته، يستغيث به ويستنصره  
وقرب منها موسى ليمض النزع ويحسم الخصومة، وإذا به عن غير قصد  
يلطم الذي هو عدو له لكمة لم يكن يقصد أن تكون قاتلة - وحاشا لنبي  
أن يقصد ذلك - فإذا، فيها انقضاء عليه وإذا به يجر ميتاً

وبما أن حدث هذا حتى رجع موسى إلى الله بالتندم، والتوبة الخالصة  
المصرح، والاستغفار الخارج من القلب في أسف شديد على ما حدث.

ويذكر الله سبحانه ذلك على لسان موسى اندي يقول:

﴿هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين، قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾ (القصص آية: ١٥، ١٦).

ثم عاهد الله عهداً مؤكداً فيها يستعمل من حياة فائلاً.  
﴿رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ (الفصص آية: ١٧).

وأيقن موسى أنه لا بد من القصاص منه، وأن الأمر سيعرف. إن قريباً وإن بعيداً، وأنه لا مفر من مغادرة مصر.

أخذ موسى يفكر في أمر القصاص وأنه لا مفر منه، وسار في هم، وهدت في ضيق، وأصبح خائفاً يترقب، لقد أصبح حذراً مرتاباً

وإذا به يفاجأ مرة أخرى بالذي استنصره بالأمس يطلب منه العون والنحدة ويستصرحه من جديد، ولم تكن ضمير موسى قد هدأ بعد من حادث الأمس، فتطلع إليه في غضب، ونظر إليه في استياء، وقال له في تأنيب:

﴿إنك لغوي مبين﴾ (القصص آية ١٨).

وأراد أن يعافيه على كثرة اشتباكه بالآخرين من أحل أن يلزم السكينة، وأن يشوب إلى حسن لمعاملة، وإذا بالرجل يقول

﴿يَا موسى، أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس، إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ (القصص آية: ١٩)

وهكذا أفسى الرجل سره بعتين، وهذا الرجل يمثل صنفاً من الناس عربداً جبائراً، لا يحفظ جيلاً، ولا يمثل الاتزن.

وبينما كان موسى عليه السلام مأخوذاً بالمفاجأة التي ما كان ينتظرها من إفشاء سره، إذا به يرى رجلاً آتياً من أقصى المدينة يسعى متحهاً إلى موسى قائلاً:-

﴿يا موسى، إن الملاء - أي الرؤساء - يأترون بك ليقتلوك، فاخرج إني لك من الناصحين﴾ (القصص آية ٢٠)

وأصبح الأمر بالنسبة لموسى واضح المعالم.

لا مفر من الخروج من مصر، إلى أين؟ بم يسافر؟ ما الطريق؟ إنه لا يدري

ولكنه خرج من مصر، خرج خائفاً يترقب، مسحهاً إلى الله تعالى في تضرع واستغاثة، قائلاً:-

﴿رب نجني من القوم الظالمين﴾ (القصص آية ٢١)

كانت تتمثل في موسى إذ ذاك الحاجة إلى عون الله ولاصطرار إلى

رحمته، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿أَمِنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ (النمل، ٦٢).

يقول أبو العباس المرسى: لصوفي في اضطراب دائم، إنه دائماً مستشعر اضطرابه إلى الله، من أجل ذلك فهو مستجاب بدعوة.

وما من شك في أن الالتجاء إلى الله عن طريق العبودية سبيل صادق في الاستجابة

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (الزمر آية: ٣٦).

من هو عبده؟

إنه ابنى لا يغفل عن العبودية لحمة حتى تستجيب للأمر، وتنبى عن المهيات، ويكون دائماً في إطار الطاعة.

كان موسى مضطرباً فاستجاب الله ندائه ونجّاه من القوم الظالمين. أخذ موسى سمته نحو مدين - بالسؤال أربالحدس وقد كان يسمع عنها وما كان يدري الطريق إليها، وتصرع إلى الله في بده طريقه قائلاً:

﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (القصص آية ٢٢)

إنه مضطرب أيضاً - وما من شك في ذلك - واستجاب الله دعائه، فهداه إلى هدفه.

ووصل مدين، وحينما دخلها وجد جمعاً كبيراً من الرعاة يسقون أنعامهم

عند بئر مدين، وأخذ ينظر إلى الرعاة فوقع بصره على فتاتين متعلتين  
تقريباً، وتمنعان أعنامهما عن السقيا، وسألها عن أمرهما فقالتا:  
﴿لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير﴾ (القصص آية:  
٢٣).

أى لا سقى أعنامنا حتى يسهى الرعاة من سقى أعنامهم، وذلك لصعفا  
عن الاقتحام فى الزحام.

وبدرو أنهما توقعتا منه سؤالاً عن رجال الأسرة فقالتا:  
﴿وأبونا شيخ كبير﴾ (القصص آية ٢٣).

واستولت المروءة على موسى، هذه المروءة اتقى هى من شيمة المؤمنين  
والقى تلزم الإنسان نجدة المحتاج.  
﴿فسقى لهما﴾ (القصص آية: ٢٤).

وكان موسى مجهداً، وكان بالمكان شجرة لها ظل ظليل، فتولى إليها،  
وجلس ملتجئاً إلى الله مرة أخرى قائلاً:

﴿رب إني لما أنزيت إليّ من خير فقير﴾ (القصص آية: ٢٤)

أخرج ابن مردويه - عن أس بن مالك - رضى الله عنه - قال: قال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم

لما سقى موسى عليه السلام للجارتين ثم تولى إلى الظل فقال:  
﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾، إنه يومئذ فقير إلى كف من  
تمر.

وعن ابن عباس قال:

لقد قال موسى عليه السلام ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير  
فقير﴾ وهو أكرم خلقه عليه، ولقد افقر إلى شق ثمرة، ولقد لصق بطنه  
بظهره من شدة الجوع.

وفي رواية أخرى عنه أنه عليه السلام سأل فلاناً من الخير يشد بها صلبه  
من الجوع وكان عليه السلام قد ورد ماء مدين

ومن أحمل ما روى في ذلك ما قامه الحسن رضي الله عنه من أنه عليه  
السلام سأل العلم والحكمة.

ومها يكن من شيء، فإن موسى عليه السلام كان يلجأ إلى الله في كل  
أموره، ولقد كان رسولنا صلى الله عليه وسلم يقول:

«من لم يسأل الله يغضب عليه» (رواه ابن ماجة).

ويصح بأن يسأل الإنسان الله في اليسير من الأمور والعظيم منها.

وكان عليه الصلاة والسلام يقول:

«إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

«رواه الترمذي وقال: حسن صحيح».

جلس موسى في الظل، وما لبث أن جاءته إحدى الفتاتين تمشي على استحياء وقالت له:

﴿إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ (القصص آية: ٢٥)  
يقول ابن كثير:

أي جزاء سقيك، على أن ما مصدرية، ولا يجوز أن تكون موصولة، لأن ما يستحق عليه الأجر فعله، لا ما سقاه، إذ هو الماء المباح، وأستندت الدعوة إلى أبيها وعملت بها بالجرء، لئلا يوهم كلامها ريبة وفيه من الدلالة على كمال العنق والحياء والعفة ما لا يخفى.

روى أنه عليه السلام أحاسها فقام معها فقال لها:

«امشي حلمي، وبعني لي الطريق، فإني أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي حسدك، ففعلت».

يقول الله تعالى:

﴿فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ (القصص آية: ٢٥)

ومن أجل ما روى عندما التقى موسى بالشيخ، ما أخرج ابن عسكر عن أبي حارم قال:

لما دخل موسى على شعيب عليها السلام إذ هو بالعشاء، فقال له شعيب:

كُلُّ

قال موسى أعوذ بالله تعالى.

قال: ولم؟ أأستبحر؟

قال- بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لها، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً.

قال- لا والله، ولكنها عادتي وعادة آبائي، نفرى الصيف، ونطعم الطعام فجلس موسى عليه السلام، فأكل

ثم يقول الله تعالى متابعاً النبأ:

﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ (القصص آية: ٢٦).

يقول الإمام الألوسي:

«إن كلامها هذا كلام حكم جامع لا يزداد عنه، لأنه إذ اجتمع الخصلتان أعني الكفاية والأمانة - في العائنه بأمره فقد مرع بالك وتم مرادك».

وقال عمرو بن عباس، وشريح القاضي، وأبو مالك، وقبادة، ومحمد ابن اسحاق وغير واحد، لما قالت ذلك، قال لها أبوها وما علمك بهذا؟



فقال: إنه رفع صخره لا يطبق رفعها إلا عشرة، وأنه لما جنب معه تقدمت أمامه، فقال.

كوفي من ورائي، فإذا اخلفك لطريق فأحدي لي عصاة أعلم بها كيف الطريق

ورأى شعيب عليه السلام شاباً قوياً يبدو عليه القوة، ويبدو عليه الأمانة، وفي وجهه نور، وفي سمته وقار، فأحب أن يربطه به برابطة وثيقة، فقال له:

﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج. فإني أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ (القصص: ٢٧)

وأجاب موسى عليه السلام.

﴿ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل﴾ (القصص: ٢٨).

يقول الإمام البخاري:

«حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا مروان بن شجاع، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جابر قال: «سأني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قصي موسى؟»

فقلت لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت فسألت  
ابن عباس فقال:

قصي أكثرهما وأطيبهما، أن رسول الله إذا قال فعل.

وروي ابن جرير من طريق محمد بن كعب أن رسول الله صلى الله  
عليه وسلم سئل:

أي الأجلين قصي موسى؟

قال: أوفاهما وأتمهما.

قصي موسى الأجل وأحب أن يغادر مدين، فقد اشتاق موسى إلى  
مسقط رأسه، وإلى أهله إنه الحنين إلى الأهل والوطن، وأحب زيارتهم في  
حفيه من فرعون وقومه، فلما صح عزمه أمر زوجته أن تسأل أبها أن  
يمنحها من ماله ما يعيشون به، فأعطاهما قدرًا كبيرًا من عنمه

وأخذ موسى طريقه - ومعه عنمه وأهله - واتخذ من أحل رعاية الغنم  
عصًا هي عصاه المشهورة، وسيأتي ذكرها

لقد أخذ طريقه في ليلة شاتية باردة، وأراد أن يوقد نرًا ليستدفق هو  
وأهله، فلم يتمكن من ذلك بسبب الشتاء.

وأخذ ينلقطها وهياك.

﴿وَأَسْ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي

أتيكم منها بخبر أرجوة من النار لعلكم تصطلون ﴿ (القصص: ٢٩)

وحسبنا وصل إلى المكان الذي انس فيه ناراً إذ به يسمع النداء المدوي  
في الجوف، والمدوي في أعماق نفسه، يسمعه:

﴿من شاطئ الود الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة﴾.

(الفصل: ٣٠)

قائلاً له:

﴿يا موسى إني أن الله رب العالمين﴾ (الفصل: ٣٠)

ولقد ذكر الله ذلك في سور متعددة، واحتلف التعبير من سورة إلى  
سورة، ومن ذلك.

﴿فما جاءه نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله  
رب العالمين، يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ (النمل: ٨، ٩)

وقال تعالى في سورة طه:

﴿فلما أتاه نودي يا موسى، إني أن ربك فاخلع نعليك إني بآلاتك  
المقدس طوي، وأما اخترتك فاستمع لـ يوحى، إني أنا الله لا إله إلا أنا  
فاعبدني وأقم الصلاة لذكري، إن الساعة آتية أكده أخفيها لتجزى كل  
نفس بما تسعى، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه  
متردى﴾. (طه: ١١ - ١٦).

لقد كانت المفاجأة السعيدة الكبرى لموسى، وكانت مفاجأة لم يكن موسى عليه السلام يتوقعها.

وهل يتوقع الأنبياء النبوة؟

إن الله يصطفيهم للنبوة منذ الأزل، ثم يفاجئهم في الوقت الذي يقتضي حكمته أن يبعثهم فيه.

وما كان الذي رآه موسى نارا وإنما كن نورا إنه النور الذي يراه كل من يتجلى الله عليه برحمته، يقول صاحب كتاب: «لطائف الإشارات»:

ويقول: «لأح له ماراً، ثم لوح له نوراً، ثم بدا ما بدا، ولا كان المقصود النور ولا النور وإنما سماع نداء».

﴿إني أنا الله رب العالمين﴾.

ويقول ابن كثير في ذلك.

إن لدى مخاطبك ويكلمك هو رب العالمين، الفعال لما يشاء، لا إله غيره، ولا رب سواه، تعالى وبعده عن محله المخلوقات - في ذاته وصفاته، وأقواله وأفعاله - سبحانه.

ويقول الله سبحانه عن هذه الحادثة المشرقة.

﴿قلما أتوها نودى: يا موسى، إني أنا ربك فاخلع نعليك إني بالواد المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى، إني أنا الله لا إله

إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري.. إلى قوله: فتردى ﴿.

وبحب أن تتحدث عن ﴿فاخلع نعليك﴾.

«نه خلع حقيقى لنعلي». ولكن الكلمة تشير إلى «اخلع الأدنى»

وكلما خلع الإنسان الأدنى كان هناك أيضًا أدنى فيخلعه، وهكذا يكون الإنسان في سحر مستمر، وفي ررق دائم - وشعار الإسلام -

من استوى يوماء فهو معيون، ومن لم يكن إلى زيادة فهو إلى نقصان -  
وتشير أيضًا إلى:

تبرأ من نفسك الأمانة بالسوء، ومن الشيطان الذى يوسوس بالسوء،  
واخلع نعليك تشير على وجه العموم إلى:

اخلع، لرحس اخلع كل ما هو ملوث بالرياء، وسر في طريق الله على  
طهر ونقاء، مادي ونفسي، فإن طريق الله هو طريق الطهر والنقاء.

ثم خاطب الله سبحانه موسى عليه السلام قائلاً:

﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ (طه: ١٧)

فقال موسى:

﴿هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى، ولى فيها مارب  
أخرى﴾ (طه: ١٨)

وأمره الله سبحانه بإلقائها. فألقاها موسى، ورد بها حيه تسعى.  
 فلما رآها موسى نهز كأنها حان وليّ مديراً، وإذا به بسمع النداء الإلهي  
 ﴿يا موسى، أقبل ولا تخف، إنك من الأمنين﴾ (القصص: ٣١)  
 وهل يخاف من صطفاه الله، أو حنياه، أو كان عنه راضياً؟  
 ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (يوس: ٦٢)  
 وأولياء الله هم:

﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ (يوس: ٦٣)

فإذا ما كانوا كذلك، فإن لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة.  
 إن الله سبحانه وتعالى يرعاهم ويحميهم، وهم آمنون في الدنيا، وآمنون  
 في الآخرة.

ورجع موسى، وأعاد الله العصا سيرتها الأولى.

ثم أمر الله تعالى موسى أن يدخل بده لي حبيه ثم يخرجه، ففعل  
 موسى، وإذا به يرى بده بيضاء من غير سوء.

وما كاست هاتان لآيتان من الله لموسى إلا عهداً لبعده ورسالته إياها  
 برهنان على صدقه:

﴿أسلك يدك في جيبك تخرج بمضاء من غير سوء واضمم إليك

جناحك من الرهب فذائك برهاتان من ربك إلى فرعون ومنته إنهم كانوا  
قومًا فاسقين ﴿ (القصص: ٣٢)

وأمر الله موسى بالذهاب إلى فرعون:

﴿إنه طعى﴾

ومن رسالة موسى كما هو من رسالات الأنبياء، تحذير الطغاة من  
غضب الله ﴿إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى﴾ (العلق: ٦ - ٧)

أي أن الإنسان إذا كان في صحة، وفي ثراء، وفي حكم يسيرًا كان هذا  
الحكم أو كبيرًا، فإنه يبرع للطغيان، ويستخف قومه فلا يبالي بهم،  
ويستعبد لهم فيطعونته، ويدلون له خوفًا منه ورهبة.

ورسالات الأنبياء تحذر من ذلك وتعلن أن الله بمهل ولا يهمل.

وإن الله ليعلم للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته

ورأى موسى أنه سيقابل طاعة مستبداً، استخف قومه فأطاعوه  
فتضرع إلى الله قائلاً

﴿رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني  
يفقهوا قولي، واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي، اشدد به أزري،  
وأشركه في أمري، كي نسبحك كثيراً، ونذكرك كثيراً، إنك كنت بنا  
بصيراً﴾. (طه آية: ٢٥ - ٣٥)

واستعطفه أيضًا قائلًا:

﴿رب إني قتلت منهم نفسيًا فأخاف أن يقتلوني، وأخي هرون هو أفصح مني لسانًا فأرسله معي ردءًا يصدقني إني أخاف أن يكذبون﴾  
(المقصص: ٣٣ - ٣٤)

وأهل الله ووليأوه يبدحون إليه في كل أمر يهمهم، إهم يسألونه ويدجأون إليه في اليسير من أمرهم وفي لعظيم منه. يقول صلى الله عليه وسلم:

«ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع».  
(رواه الترمذي وابن حبان عن أنس).

واستحباب الله دعاءه قائلًا:

﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ (الفصص: ٣٥)

ومن طريف ما يروى في ذلك أن السيدة عائشة رضي الله عنها سمعت رجلاً يقول لأناس وهم سائرون في طريق الحج: أي أخ أمر على أخيه؟ فسكتوا، فقالت عائشة لمن هم حول هودجها.

هو موسى بن عمران حين شمع في أخيه هارون فأوحى إليه، قال الله تعالى:

﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ (مريم: ٥٣)



واجتمع موسى بأخيه، وصمما على أن يؤديا الرسالة في صورة من العزم  
المصمم، ولكن صورة هرعون كانت واضحة في نفسها  
إنها صورة الياطش الذي لا يبالي، فاتجها إلى الله في تو صغ وانكسار  
قائلين:

﴿ربنا إتنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾، فقال سبحانه  
وتعالى

﴿لا تخاف، إني معكما أسمع وأرى﴾ (طه: ٤٥ - ٤٦).

وبصحها الله سبحانه وتعالى قائلاً:

﴿فقلوا له قولاً لئنا لعله يتذكر أو يخشى﴾ (طه ٤٤)

والواقع، أن هذه النصيحة ليست موسى وحده، وإنما هي لكل داع إلى  
الله سبحانه.

إن الدعي حينما يعلظ في القول فإنما يرمى بذلك رعة الكبرياء  
عنده، وأن بعض الدعاء يسير على أساس من هذه الرعة

، فيه بعضاً من صفات إبليس في كبريائه، وإن لم يشعر بذلك، وأنه لم  
اليدية فكان أنه مقدار ما عند الواعظ من حدة يكون عبر أهل للوعظ،  
ومقدار ما عنده من حدة يكون عنده من كبرياء.

ومن طرف ما يروى في ذلك أن واعظاً وعظ المأمور وعف له في

القول، فقال: يا رجل، ارفق فقد بعث الله من هو حرم منك إلى من هو شر مني، وأمره بالرفق، قال تعالى

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: ٤٤)

ولقد أبان الله سبحانه وتعالى قواعده لوعظ، وبين لمنهج لدى يجب أن يلتزم به لواعظ، وأولى هذه القواعد ما عبر الله سبحانه وتعالى عنها في أمره لرسوله:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف ١٠٨)

الدعوة على بصيرة: أي على علم، ولا مناص من أن يكون لداعي علماً حتى لا يوقع جمهوراً من الناس في الضلال.

ولقد كان من شيم علمائنا الأخلاء أنه إذا سئل أحدهم فيما لا يعلم قال:

«لا أدري».

وأما لقاعدة الثانية، فهي ما عبر الله عنه بقوله:

﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾.  
(الأحزاب: ٣٩)

وهذه قاعدة حيلة: إن من يبلغ رسالات الله لا ينبغي أن يفعل ذلك

إلا إذا كان قلبه عامراً بخشسته، مليئاً بهيئته

أما القاعدة الثالثة للواعظ فهي .

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيًّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه ٤٤)

والقاعدة الرابعة هي :

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ﴾ (الحج: ١٢٥)

وهي آية تجمع من الآداب الكثير.

\*\*\*

ما هي رسالة موسى إلى فرعون؟

إنه. ﴿أَنْ أَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء ١٧)

إن موسى عليه السلام لم يكن صاحب دعوة عامة، إنه لم يرسل إلى

المصريين، وإلا لما كثرت في مصر يدعوا إلى الله

لقد أساء اليهود إلى مصر، وعانوا فيها فساداً على طريقتهم في كل

مكان. وفي كل زمن، فأخذ فرعون في قسوة فاسية. وفي عنف عنيف ينكل

بهم: يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم.

ورعنا كن هذا العنف بسبب مؤامرة وهم أصحاب المؤامرات - من

مؤامراتهم لقمب نظام الحكم، وربما أخذوا يسيطرون على اقتصاد البلد،  
ويعتصون دماء أهلها، وربما حاولوا السيطرة على مصر وأخذ لحكم فيها،  
وربما..

وبكل بهم فرعون فى نوع من الحسوت، وكاتب مهمة موسى عليه  
السلام إبقادهم.

.. ان ﴿أن أرسل معنا بنى إسرائيل﴾ رسالة وضحة

ويقول الله تعالى:

﴿فأتيه بقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم  
قد جئناك بأية من ربك والسلام على من اتبع الهدى﴾ (طه: ٤٢).  
وما من شك فى أن موسى عليه لسلام كان يسعده أن يؤم فرعون،  
ومع ذلك فإن رسالته كانت محددة ببنى إسرائيل.

ولما قال موسى وهارون لفرعون: ﴿إنا رسولا ربك﴾ دار حديث بين  
فرعون وموسى فى موضوع الإلهية، قال فرعون:  
﴿فمن ربكما ياموسى﴾.

﴿قال: ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾ (طه: ٤٩-٥٠).

أى أن الله سبحانه هو الذى خلق كل ما فى الكون، وهو كل شىء فى  
الكون إلى الغاية من وجوده.

ويريد موسى بذلك أنه سبحانه فعل ما لا يدر على فعله  
وعند فرعون يسأل: إذا كان ربك هذه المثابة من ابوضوح والجلال،  
فما بال القرون الأولى التي لم تهتد إليه؟

وقار موسى: ﴿علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى﴾  
(طه: ٥٢)

وسيجارى كلاً بعمله، ثم أحد موسى يتحدث عن الله وعظمته وآلائه،  
﴿الذى جعل لكم لأرض مهذا وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من  
السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى، كلوا وارعوا أنعامكم إن  
فى ذلك لآيات لأولى الهى﴾ (طه: ٥٣ - ٥٤)

وبقص لله سبحانه أيضاً حواراً طريفاً يشككه وموضوعه حرى بين  
فرعون وموسى عليه السلام.

لقد قال موسى لفرعون.

﴿إنا رسول رب العالمين﴾ (الشعراء: ١٦).

فقال فرعون:

﴿وما رب العالمين؟﴾ (الشعراء: ٢٣).

وهذا السؤال الذى بدأه فرعون، بـ «وما» يدل أن يبدأه بـ «ومن»  
يدل على أن فكره الألوهية كانت محتلطة مشوشة عند فرعون

ولقد مر على لإسابة أزمانه عبت هيا الكواكب، وأرمنة عبت هيا  
الحيوانات، وقدست ابقر والعجل وغيرها، وأرمنة عبت هيا الأصنام.  
وبدل سؤال فرعون على أنه لم يكن على علم بالحق.

وأجاب موسى عليه السلام:

﴿رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ (الشعراء: ٢٤).

وبتجه فرعون إلى من حوله معجباً من قور موسى قائلاً:

﴿ألا تستمعون﴾ (الشعراء: ٢٥).

ومع أنه انصرف في خطابه عن موسى فإن موسى لم يمهله وإنما قال:  
﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ (الشعراء: ٢٦)

ولما فرعون إلى السفه فقال:

﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ (الشعراء: ٢٧).

ولم يش ذلك السفه موسى عليه السلام عن الاستمرار في التعريف  
بالله، فقال:

﴿رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ (الشعراء:

(٢٨)

فقال فرعون:

﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ (الشعراء ٢٩).

فقال موسى:

﴿أولو جنتك بشيء مبين﴾ (الشعراء ٣٠).

قال فرعون:

﴿فأت به إن كنت من الصادقين﴾ (الشعراء ٣١).

وأثناء موسى بالمعجزة التي بهرت الناس، وامن من أجلها السحرة وهي  
لعصا التي تدققت السحر، وكشفت الباطل، فهل آمن؟

\*\*\*

وملاحظة أخرى فيها يتصل بقصة موسى وهارون.

إن الله سبحانه بقول:

﴿أذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى﴾ (طه: ٤٢).

فيقرن الأمر بالدعوة إلى الله بالأمر بالذكر.

والله سبحانه يحث دائماً على الذكر في كل لحظة، ومن ذكر الله في الرخاء  
ذكره الله في الشدة.

وان من أنواع لذكر لني تنحي في الشدائد سبيح الله سبحانه، ولقد

قال سبحانه في شأن ذى النون حينما ابتلعه الحوت:

﴿فلولا أنه كان من المسبحين، لبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾  
(صافات ١٤٣ - ١٤٤).

وقال في شأن أصحاب الجحيم حينما طاف عليها طائف من ربك:

﴿قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تبجحون﴾ (لقلم ٢٨)  
أما الاستغفار فإنه أمان من العذاب:

﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ (الأنفال: ٣٣).

وهو من عوامل السعة في الرزق:

﴿استغفروا ربكم إنه كان غفاراً، يرسل السماء عليكم مدراراً،  
ويتددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ (نوح: ١٠ - ١٢).

ويقول الله تعالى:

﴿يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم  
تفلحون﴾ (الأنفال: ٤٥).

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عن ربه:

«إن عبدي - كل عبدي - الذي يذكرني وهو ملاق قرنه».



وطلب فرعون من موسى آيات تثبت رسالته

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ (الشعراء: ٢٢ - ٢٣).

وظل فرعون أن ذلك سحر، وأراد أن يحابه، السحر فيما رعم بسحر منه، فجمع كبار السحرة، وكنت حفلة الميابة الى حصرها فرعون وكبار رجال الدولة، وبذل لسحرة ما استطاعوا.

لقد بدلوا جهد طاقتهم، وسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، قائلين:

﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِن لَّغَالِبُونَ﴾ (الشعراء ٤٤)

فما ألفوا حياهم وعصيتهم حيل إلى موسى أنها تسعى، فحاف أن يفتر الناس بسحرهم، وأن يكون هناك مؤامرة لا تمكنه من إلقاء عصاه، فسمع اسداء الإلهي. ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى، وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ (طه. ٦٨ - ٦٩).

فألقي موسى عصاه قائلاً:

﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ، إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ، وَيَحْقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (يونس ٨١ - ٨٢).

وإذا بعضا موسى تلففة ما يأفكون.

وذهل الناس حينما رأوا عصا موسى حية تلتهم الحيات، ولكن أشد  
لناس دهولا، وأكثرهم دهشة، كانوا هم السحرة.

لقد رأوا شيئا ما هو بالسحر ولا بالشعوذة، رأوا شيئا لا زور فيه  
ولا ضلال، رأوا ما لا يملك البشر الإتيان عنه، فأعلنوا في عزم وإصرار  
على الملأ في وصح النهار:

﴿أَمَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (طه: ٧٠).

أعلموا ذلك بعد أن خروا لله ساجدين: حمدا وشكرا، على أن هداهم  
للإيمان، وأبان لهم سبيل الحق، فكانت المفاجأة التي لم يكن ينتظرها أحد،  
كانت مفاجأة لفرعون ومنه بركات، مفاجأة للشعب، وكانت مظهرا كريما  
للسجاعة الأدبية، *بعضهم يفتخر به ويحتار به*.

أرأيت إلى قوم مستضعفين - وما كان السحرة بالسبب لفرعون  
إلا مستضعفين - يفتقون فجأة في وجه طاغية يعلنون الحق الذي يدعون؟  
إسمهم يعلنون الحق مع علمهم بأنه سينكل بهم.

وأعلن الطاغية حكمه:

﴿أَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ (طه: ٧١).

والطاغية يحب أن يشارك الله في صفاته، وهو هنا يوجب الاستبدان حق

في مسائل الإيمان، وفيما نحمي السرائر.

ثم اتهمهم بالتآمر، أي اتهمهم بالخيانة العظمى قائلاً:

﴿إِنْ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُوهُ فِي الْمَدِينَةِ تَخْرُجُوا مِنْهَا أَهْلُهَا فَسَوْفَ  
تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٣)

وقال عن موسى عليه السلام

إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فتآمرتم معه على إضلال العامة  
وانصرفتم عن الملك إلى موسى وهارون، ولا بد من العقاب.

أما هو العقاب؟.. انتهى

﴿لَا تَقْطَعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبْكُمْ فِي جَذُوعِ الشَّجَلِ  
وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ (طه: ٧١)

وأحاب السحرة في قوة لا تلين، قالوا:

لن نؤثرك على ما جاءنا من الآيات الواضحة، ولن نؤثرك على الذي  
فطرنا.

لقد تبين لنا الحق فاتبعناه، ومنا يله الذي فطرنا، فافعل ما أردت،  
وحكم فيما نأتهوى، بما تقضى هذه الحياة الدنيا وهي فانية، مناعها  
فيل، وأيامها محدودة:

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ

خير وأبقى، إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا، ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك هم الدرجات العلى، جنات عدن تجري من تحتها الأنهر خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴿ طه: ٧٣ - ٧٦ ﴾.

لقد أثار الإيمان قلوبهم، وعمرت التقوى صدورهم ورأوا الحق واضحاً فاستمسكوا به، وتبلى عليهم الله بآيات الإيمان فاقبلوا في لحظات إلى رجال آخرين: إلى رجال مؤمنين، والمؤمن الحق يقول:

﴿إنا إلى ربنا منقلبون، وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾ (الأعراف: ١٢٥ - ١٢٦).

قال عكرمه والأوراعي وغيرهما رضى الله عنهم:

لما سجد السحرة رأوا منارهم وقصورهم في احنة نبأ لهم، وتزحرف لغدومهم، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد قص علينا أمر سحرة فرعون فإن المسلمين قد حقق الكثير منهم أمانة كريمة لإعلان إيمانه، ولا يبالون بما يصادفونه من عذاب وتكليل

أرأيت إلى بلال رضى الله عنه بعدد ويسكل به، وهو لا يفتر عن قول أحد، أحد.

يقول ابن كثير في سيرته:

وكان أمة بن حلف يخرج إذا حست الظهيرة، ثم يأمر بالصخرة  
العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له:

«لا والله، لا نزال هكذا حتى تموت أو بكر محمد وتعبد ثلاث  
والعري»

فيقول وهو في ذلك:

أحد أحد.

قال ابن اسحاق: فحدثني هشام بن عروة عن أبيه قال.

كان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب لذلك، وهو يقول: أحد أحد،  
فيقول: أحد أحد والله يا بلال، ثم يقبل على أمة بن حلف ومن يصنع ذلك  
به من بني جرح فيقول:

أحلف بالله لن قتلنموه على هذا لأتحدنه حياً (أي لا تخذن قبره  
منسكاً)

وهي قرأت تاريخ ياسر وسمية وعمار؟ هذه الأسرة التي أكرمها الله  
بالإيمان فأعلنته وأوديت في الله، فسم يشهد العذاب عن ربها

قال ابن اسحاق:

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه، وكانوا أهل

بيت إسلام إد، حيث لطهيره يعدبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم، فسما ينفى  
 «صبرا آل ياسر موعدكم الجنة»

وقد روى السهمي، عن الخاكم، عن ابراهيم بن عصبة العدل، حدثنا  
 السري بن حزيمة، حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا هشام بن أبي عبيد الله،  
 عن أبي الربيع، عن حابر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بعمار  
 وأهله يعذبون فقال

«أبشروا آل عمار وآل ياسر، فإن موعدكم الجنة»، فأب أمه فيقتلونها  
 فتأبى إلا الإسلام.

وقال الإمام أحمد، حدثنا وكيع عن سفيان عن منصور عن مجاهد قال:  
 «أول شهيد كان في أول الإسلام سشهد أم غمار سمية، طعتها أبو جهل  
 بحرية في قلبها».

وإمام المسلمين في الشجاعة الأدبية هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه  
 وسلم، وموافقه الكثيرة في ذلك مشهورة، وقد ذكرنا بعضاً منها في كتابنا عن  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم.

\*\*\*

أراد الله بالسحره حير فأميوا، ولكن ابتلا من هوم هرعون - أي

كبراء ، لقوم وسادتهم - وقد رأوا أن ما يعظ به موسى لا يتسق وبنا هم فيه من اللرف والشهوات أحنوا يحرضون فرعون على السكيل به، وهذا شأن كل المترفين في كل زمان ومكان.

إن شهواتهم سيطر عليهم، ومن أجل ذلك يتقربون للسلطان، يداهنونه ويتملقونه، وينحرفون به عن طريق الاستقامة، وذلك ليستمروا غارقين في شهواتهم وهذاتهم وهكذا يبارت الأمور مع فرعون في موقفه من موسى:

لقد صوروه بأنه مفسد في الأرض، فقال فرعون - وقد أوغرو صدره على موسى: ﴿ذرّوني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ (غافر: ٢٦).

وهكذا انقلبت الأمور - مرفقة معكوسة:

ولكن ماذا كان موقف موسى؟

لقد فعل ما يفعل الرسل ولأسياء والصالحون: إنهم يلجأون إلى الله، فهو دائماً في قلوبهم وقلوبهم، لا يغفلون عنه، ولا ينسب عنهم. لقد قال موسى في مواجهة ذلك:

﴿إني عدت إلى ربي وربي من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾. (غافر: ٢٧).

ولكن العالم لا يحلو من عصر الخير، وقد يوحد الخير في بعض  
لأشخاص في الوسط الذي يعص بالنسب والإثم ، لقد كان في الوسط  
الفرعون رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، وكان هذا المؤمن منطفاً  
في تفكيره، مترناً في قوله وسوكة فقال لهم في منطلق واضح هذه الكلمات  
الحكيمة.

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ،  
وَإِنْ يَكْ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكْ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ  
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ. يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ  
فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ (عافر ٢٨ ٢٩).  
وفي هذا الكلام قصايا:

إلى موسى يقول ربى الله يقول في صدق، مصحياً بنفسه في سبيلها.  
ومن كان كذلك فيه أمين لا يفسد في الأرض بل يصلح فيها.  
وصفات المؤمنين معروفة منها أنهم:

﴿النَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ  
الْأَمْرُونَ بِمَعْرُوفٍ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشَرَ  
الْمُؤْمِنِينَ﴾. (التوبة: ١١٢).

وهؤلاء حذير بأصحاب اسلطان ن يهربوهم وأن يستشيرهم، فإهم  
يشيرون بالخير وبما يرضى الله، فيهربون أصحاب السطان من الله، وإذا



ما تقرب أصحاب اسلطان من الله فإنه يرعاهم ويوفقهم ويتولاهم، فيدوم  
سلطانهم، وتسعد رعيهم

أما القضية الثانية فهي:

﴿وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾.

إن دعواه التي يدعو بها أيدها بالبراهين، إنه لم يلق كلاماً لا يؤيده.

لقد برهن عليه فهو إذن رجل صادق.

والقضية الثالثة هي:

﴿وإن يك كاذباً فعليه كذبه﴾.

إن هذه القضية يؤيدها الوحى، ويؤيدها الواقع إنه يقال «على  
البايع تدور الدوائر» ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول

«واندى نفس محمد بيده، ما من خدش عود، ولا عثرة قدم،  
ولا اختلاخ عرق، إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر» (رواه ابن أبي حاتم).

والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾. (الأنفال. ٥١).

نرى أن المصائب التي تصب للإنسان إنما هي من صنعه هو، إنه إن كذب

فعلية، كذبه، وإن سرق فعليه سرقة، وإن حان فعليه خيانه، وهكذا . وهذا هو ما تعنيه هذه القضية

أما القضية الرابعة فهي:

﴿وإن يك صادقاً بصبكم بعض الذي يعدكم﴾. (غافر: ٢٧).

بن الباصح إذا كان رسولاً، أو كان مجرد مؤمن مخلص، يوجه دائماً إلى طريق الخير، فإذا خالعه قومه فهم يتجهون إلى طريق الشر فيصيبهم بعض ما أنذرهم به، وهذا مبدأ إلهي.

أما القضية الخامسة فهي:

﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾.

وهذه القضية هي نفس القضية التي قالها موسى عليه السلام للسحرة حيناً وعظهم قائلاً:

﴿ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحقكم بعذاب وقد خاب من افترى﴾. (طه: ٦٦).

وهي نفس القضية التي قالها موسى وهارون عليها السلام.

﴿إننا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى﴾. (طه: ٤٨).

إن الله وصح الخير والشر، ومن الخير الاقصاد، ومن الخير الصدق،

فإذا ترك الإنسان الاقتصاد والصدق فإنه يكون قد ايصرف عن طريق الهدى إلى طريق الضلال.

وهذه القصايا كلها إنما تدرج تحت قانون عام هو قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾. (فصلت : ٤٦).

ثم قال مؤمن آل فرعون بصيحه في غايه الفاسه يجب ألا يعمل عنها أى صاحب سلطان؛ صغر سلطانه أو كبر:

﴿بِأَقْوَمَ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرُ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾.

وانظر معى أيها القارئ الكريم في تعبير هذا المؤمن، إنه قال في الملك (لكم الملك) ثم قال في العذاب ينال الأمة: «فمن ينصرنا؟»

وفي هذا لتعبير دقة دقيقة.

إن الذين يفسدون ويظلمون هم فئة قليلة تسمى، وهم هنا آل فرعون، ولكن العذاب إذ نزل بانه يعم، «لكم» «ينصرنا».

إن «لكم» خاص، وإن «ينصرنا» عام، ومن هنا كان حديث السقيفة: روى البخاري بسنده، عن المعمر بن بشير رضى الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«مش القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة،  
فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا  
من الماء مروا على من فوقهم، فقاؤا، لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤد  
من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على  
أيديهم نجوا ونجوا جميعاً».

وروى الترمذي بسنده عن حذيفة رضى الله عنه، عن النبي صلى الله  
عليه وسلم قال:

«والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن  
الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم».

وعن أبي بكر الصديق رضى الله عنه قال:

بأيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرَّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا  
اهْتَدَيْتُمْ﴾. وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله  
بعقاب منه» (رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان).

إن الإنسان لدى يمتلئ قلبه بالخير لا بد أن يشر به، وإن مشولته  
لا تنتهى إلا إذا قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ يفعل ذلك بحسب  
مكانته في المجتمع وسلطته فيه.

وعند هذا تدخل فرعون قائلاً:

﴿ما أرىكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾. (غافر: ٢٩١).

فقال الذي آمن مستدرِكاً.

﴿يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار، من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب. ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار. تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار. لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار، فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد﴾. (غافر: ٣٨-٤٤)

أما النتيجة لموقعه هذا فهي:

﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾.

وأما النتيجة بالنسبة لآل فرعون فهي:

﴿وحاق بال فرعون سوء العذاب﴾

وبدؤ فرعون وإن تطاهر في الملأ بالقسوة، فإنه وصل إلى قلبه بعض

الخوف من أن يسيء إلى موسى فأرجأ العقاب وترك موسى حراً طليقاً إلى  
أن يتروى في الأمر . . .

وقال تعالى:

﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر  
يبساً﴾ طه: ٧٧

وما من شك في أن موسى مكث عدة أيام يفتقر أمر الإسراء إلى  
خروج اليهود من مصر ليلاً خفية . . .

ولكن من لبيبي أنه إنما سار بهم موسى سيديركهم فرعون بجيشه،  
ولكن عناية الله التي تتولى الصالحين أدركته فقال لموسى في الوحي نفسه  
﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً﴾ . . .

أي أنه سيستطيع في استلوب معجز أن يجعل لهم طريقاً في البحر  
يعبرونه: طريقاً في الماء يكون طريقاً يبساً أي أنه سيسير في البحر على  
البس ثم يفصل البحر بين هؤلاء وهؤلاء، ثم قال سبحانه:

﴿لا تخف دركاً ولا تحشى﴾:

وسار موسى مطمئناً هادئاً في إغاثة الله . . .

وحاء البأ إلى فرعون فابعهم بحنوده، وأوشك أن يصل إليهم وراه  
قوم موسى هائلوا:

﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾.

فقال موسى وهو على علم بالتصريف الإلهي.

﴿كَلَّا، إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

وإذا تأمل القارئ في كلمة موسى فإنه يرى أنه قال: «معى» ولم يقل «معه»، والمعنى واضح:

إن الله معه، وهو تخصيص لا يحتمل التعميم.

ولعل القارئ يذكر في هذا المقام ما قاله الله تعالى في هجرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكان معه أبو بكر رضى الله عنه:

﴿إِلَّا تَتَصَرَّوه فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السَّفَلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (التوبة: ٤٠).

إنه هنا يقول «معنا»، إنه سبحانه مع كل مسلم صادق في إسلامه وتبركهم. فرعون فعلاً ويقول القرآن الكريم معبراً عن ذلك: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ قُرْعَوْنَ بِجُنُودِهِمْ فَغَشَّاهُمْ مِنْ أَلِيمٍ مَا غَشَّاهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هِيَ﴾.

ولكن فرعون في طغيانه وجبروته حينها أدركه العرق عاد مؤمناً وقال

﴿آمَنت أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنت بِهِ بِوِ إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. (يوس: ١٠٠)

وكان مثله في ذلك مثل الذين يقول الله تعالى عنهم

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضِرْدَا رَبِّهِ مَنِيبٌ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَتَدَاً لِّيَصِلَ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ (المر: ٨).

ويقول:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضِرْدَا دَعَا ثُمَّ إِذَا خَوَلَاهُ نِعْمَةٌ مِّنْ قَبْلِ إِيمَانِهِ أَوْتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٤٩).

ويقول:

﴿هُوَ الَّذِي يَسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ طَیِّبَةً وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْصِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. (يوس: ٢٢-٢٣)

وكان رد الله سبحانه:

﴿الْآنَ وَقَدْ عَصَيْت قَبْلُ وَكُنت مِنَ الْمُعْصِيينَ، فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ



لتكون لمن خفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴿٩١ - ٩٢﴾.

ونجا موسى ومن معه ووصلوا إلى الشاطئ الثاني، وبمجرد أن وصلوا إلى الشاطئ الثاني ونشروا يسريحون ويستجمعون وحدوا قوماً هنا وهناك يعبدون آلهة من الأصنام.

وبمجرد أن شاهدوا ذلك قانوا لموسى:  
﴿اجعل لنا إلهًا كما هم آلهة﴾.

يقول سبحانه:

﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهًا كما هم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾. (الأعراف: ١٣٨ - ١٣٩).

وهذا يدل على أن هؤلاء اليهود لم يكن عندهم فكرة صادقة عن الدين الحق في أبسط مبادئه، وأهم حينئذ كانوا في مصر لم يكن عندهم شعور بالخلق الكريم، لأن الشعور بالخلق الكريم لا يتنى إلا عن إيمان، عن حب عامر بالإيمان.

ولأنهم لم يكن عندهم الإيمان الحق فإنه لا يستغرب أن بعثوا في مصر مساداً، وأن فرعون كان يستند على أسس قوية من فسادهم ومؤامراتهم

حينما نكل بهم، وطبهم من موسى أن يجعل لهم آلهة آثار الحزن في نفس رسول الله موسى عليه السلام فقال لهم.

﴿إِنْ هَؤُلَاءِ مِثَرُ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ولما نجاهم الله سبحانه ذكرهم بنعمه التي أسداها إليهم، وطلب إليهم الاستقامة فقال:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْتُكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْتُكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى، وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾. (طه . ٨٠ - ٨٣).

ولقد كان تعقيب الله سبحانه وتعالى على هلاك فرعون قوله:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ خَلَاءٍ وَعِيُونَ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ، فَمَا يَكْتُمُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مَنْظَرِينَ﴾. (الدخان: ٢٥ - ٢٩)

ويذكر الإمام بن كثير أنه لما خرج بنو إسرائيل من «بحر احداث» أخت هارون ادف وضربت عليه، وخرج لساء في أثرها كلهن بدفوف وطبول، وجعلت مريم ترتل لهن، ثم يقول:

وصريها بالدف في مثل هذا اليوم الذي هو أعظم الأعياد عندهم دليل على أنه قد كن شرع من قبلها ضرب الدف في العدا وهو مشروع لنا

أيضاً في حق النساء. لحديث الجاريتين اللتين كانا عبد عائشة تصريان بالدف في أيام منى، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مضطجع حول ظهره إليهن، ووجهه إلى الحائط، فلما دجلى أبو بكر زجرهن وقال: أمرمور الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

فقال: «دعهن يا أبا بكر فإن لكل قوم عيدٌ وهذا عيدنا».

وهكذا: يشرع عندنا في الأعراس ولقدوم الغياب كما هو مقرر في موضعه.

ولما انفصل موسى عن البحر ريم وجهه شطر بيت المقدس علم موسى وقوته أن قى بيت المقدس قوماً جارين فنكص قومه على أديارهم، وخيب أمرهم موسى بدحول بيت المقدس محارين لإخراج من فيها حبسوا حبساً كاملاً. ويصور القرآن ذلك في صورة تعبر عن بعض صفاتهم قائلاً: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنْ فِيهَا قَوْمٌ جَارِينَ وَإِنَّا لَنَنَدْخُلُهَا حَتَّى يُخْرِجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ. قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَغْلَبُوا عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ. قَالَ فَإِنَّهَا مَعْرُومَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

(الحائدة: ٢٢ - ٢٥).

لقد كان عقاب الله سبحانه وتعالى لهم أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة، ثم قال لموسى عليه السلام:

﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾.

وهذه الفصة بين الفرق بين أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وأصحاب موسى عليه السلام: لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لمصادرة قافلة من قوافل قريش، وذلك لما كانت قريش تستولي على أموال المسلمين بكل طريقة، ونفتصبها ظلماً وعدواناً، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه أفسد منهم القافلة، وواجهوا جيش قريش وهو أكثر منهم عدة وعدداً، لقد كانوا ثلاثة أمثالهم في العدد وأضعافهم في العدة، فماذا كان من أمر المسلمين؟

قال الإمام أحمد، حدثنا وكيع، حدثنا سميان، عن محارق بن عبد الله الأحمس، عن طارق هو ابن شهاب، أن المقداد قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر:

«يا رسول، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «أذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا فاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون».

وعن طارق بن شهاب قال: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه  
لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل

به: أنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعو إلى قتال المشركين فقال: والله يا رسول الله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرق لذلك وسُرَّ بذلك».

ولما حاء دور الأنصار في الحديث ردًا على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أشيروا على أيها الناس» قام سعد بن سعد فقال:

«كأنك تُعرض بنا يا رسول الله؟ فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقر به عيذك، فسر بنا على بركة الله».

فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد وشطه ذلك. ولم تكن طبيعة اليهود تسمح بمثل ما سمحت به طبيعة أصحاب محمد فكان عقاب الله لهم.



وبعد فترة طالت أو قصرت أمر موسى بالاستعداد لمناجاة ربه، والاستعداد لهذا إنما هو نوع من التزكية التى تنتهى بالإسنان إلى صفاء يجعل المرء حديرًا غناحًا ربه، ومصح موسى فترة تزكية هى: ثلاثون ليلة.

ولكن هذه الفترة لم تؤد إلى المستوى المطلوب فأتمها الله بعشر يقول  
سيحانه.

﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه  
أربعين ليلة﴾.

وسار موسى للمناجاة راجياً أن يستنير في أمر الكاليف والشعائر  
وامبادئ المتعلقة بصلة الإنسان بربه، ويصلته بالمجتمع.

صعد موسى عليه السلام الجبل للمناجاة، ويقول ابن كثير في ذلك:

قال الله تعالى: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾ أى في الوقت الذى أمر  
بالمجيء فيه، ﴿وكنمه ربه﴾ أى كلمة الله من وراء حجاب، إلا أنه  
أسمعه الخطاب فباداه وناجاه، وقرّبه وأدناه، وهذا مقام رفيع، ومعقل ضيق  
ومصيب شريف، ومزل منيف، فصلوات الله عليه تترى، وسلامة عليه في  
الدنيا والآخرة.

ولما أعطى هذه لمرة العلية، والمرتبة السنية، وسمع الخطاب سأل رفع  
الحجاب، فقال للعظيم الذى لا تدركه الأبصار، القوي البرهان:

﴿رب أرني أنظر إليك، قال: لمن تراني﴾. ثم بين تعالى أنه لا يستطيع  
أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى، لأن الجبل الذى هو أقوى وأكبر ذاتاً  
وأشد ثباتاً من الإنسان، لا يثبت عند التجلي من الرحمن، ولهذا قال،  
﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾.

ويحمر الله بعد ذلك عما كان فيقول:

﴿لَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعْقًا فَلَمَّا أفاق قال  
سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾. (الأعراف: ١٤٣).

وباب موسى إلى الله في صدق وإخلاص فأعطاه الألواح التي يقول الله  
سبحانه وتعالى عنها:

﴿وَكُتِبَ لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةٌ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ  
شَيْءٍ﴾. (الأعراف: ١٤٥).

وأمره سبحانه أن يأخذ بقوة في العمل بما فيها وبشرها وتعميمها والقيام  
في قومه على العمل بها. ثم بين الله سبحانه وتعالى له بعض قوانينه الإلهية  
قائلًا:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا  
كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا  
سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بآيَاتِ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ.  
وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُعْجِزُونَ إِلَّا  
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. (الأعراف: ١٤٦ - ١٤٧).

وكان في الألواح لكلمات العشر وهي:

الأمر بعبادة الله وعده لا شريك له والنهي عن الحلف بالله كذبًا.  
والأمر بالمحافظة على السبت. ونهيه عن تفرع يوم من الأسبوع للعبادة.

وهذا حاصل يوم الجمعة لدى نسح الله به السبت.

أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض!

الذي يعطيك الله ربك..

لا تقتل..

لا تزني.

لا تسرق..

لا تشهد على صاحبك شهادة زور.

لا تذهب عيبك إلى بيت صاحبك، ولا تنسب امرأة صاحبك ولا عبده  
ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً من الذي لصاحبك، ومعناه النهي  
عن الحسد.

وهذه الكلمات هامة ما يثنيها في كتب الله سبحانه في آيتين منه يقول الله  
تعالى:

﴿قل تعالوا أتتل ما حرم عليكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً  
وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم  
ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله  
إلا بالحق ذكركم وصاكم به لعلكم تعقلون \* ولا تقربوا مال اليتيم إلا  
بالتى هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف



نفساً إلا وسعها وإذا قُتِم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا  
ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴿١٥١-١٥٢﴾ (الأعام؛ ١٥٢-١٥١)

وعاد موسى إلى قومه فإذا به يجد المأساة التي أخبره الله تعالى بها حين  
قال له

﴿إِنَّ قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾.

وعبر القرآن عن شعور موسى بهوله:

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسْفًا﴾ (طه آية: ٨٥-٨٦).

لقد اتخذ قوم موسى من بعده من حلبيهم عجلًا جسدًا، لقد صنعوه من  
لذهب ابدى كان معهم، والذي سرقوه أو اختلسوه أو استعاروه من  
المصريين، صنعه لهم السامري في غيبة موسى عليه السلام

لقد صنع لهم عجلًا جسدًا له حور فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى  
موسى هذا الإله وذهب يبحث عنه وهو هاهنا معهم.

ويقول الله سبحانه وتعالى:

﴿أَفَلَا يَرُونَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (طه  
آية: ٨٩).

ويقول سبحانه: ﴿وَلَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾

(الأعراف - آية: ٦٤٨).

وكان موسى - قبل ذهابه للمناجاة - قد استخلف على قومه هارون فلما اتخذوا العجل معبودًا لهم أخذ هارون عليه السلام يقول لهم: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ (طه آية: ٩٠).

وكانوا يقولون له:

﴿لَنْ نَرِيكَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ (طه آية: ٩١).

ولم تُجِبْ لَهُمْ نَصَائِحَ هَارُونَ، لَقَدْ اسْتَضَعُوهُ لَمْ يَبَالُوا بِهِ.

وها نحن نرى هنا من جديد جهل اليهود المطلق بالشعور الديني الصادق، ونرى طمس بصيرتهم الروحية، لَقَدْ أَحْبَبُوا أَنْ يَعْبُدُوا إِلَهًا مَحْبُودًا، ولو قال لهم موسى إنه إله لعبده، ولقد كانوا قريبي عهد بيئته استحف ملكها قومه فأطاعوه، وقال لهم: ما عدت بكم من إله غيري، لعبده.

لم يكن عند اليهود الشعور الديني، ولم تكن عندهم العقل الذي يزن ويفكر، ويعلم أن الإله لا يمكن أن يكون مجسمًا أو مصنوعًا كالإنسان، كيف يصنع الإنسان مصنوعًا مركبًا يبلى على مر الزمن وينتهي ثم يعبد؟

ولم يكن عند اليهود دوق، ولو كان هناك قليل من الدوق لما عبدوا  
عجلاً له حوار، وإن أرقى ما في الوجود الإنسان، ومع ذلك فيه مركب  
مولود يبل ويقتنى شيئاً فشيئاً ثم يموت، وقد كان يمكن لليهود صنع إله على  
هيئة إنسان ثم يعبدونه، فيكون صعباً أرقى من عجل مصوغ، وما من شك  
في أن العجل الحي أرقى من العجل المصنوع، ولو كان من ذهب، وآثر  
اليهود لعجل المصنوع على العجل الحي، وآثروا العجل على الإنسان  
حاء موسى عليه السلام ليرى العجل، ويرى العابدون للعجل، وكانت  
ثورته في المبدأ على من استخلفه على قومه، على هارون عليه السلام، ويعبر  
القرن الكريم عن ذلك في صورة طريفة، يقول سبحانه

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بُئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ  
بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ  
بْنِ أُمِّ الْيَوْمِ اسْتَزْعِفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ  
وَلَا تُجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (لأعراف آية: ١٥٠)

ويقول سبحانه في ذلك أيضاً:

﴿قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ  
أَمْرِي قَالَ يَا ابْنَ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ  
فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (طه آية ٩٢ ٩٤)

وهذا موسى عليه السلام من ناحية أخيه وقال:

﴿رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾  
(الأعراف آية: ١٥١).

والجبه موسى إلى قومه قائلاً:

﴿يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أوفطال عليكم العهد أم أردتم  
أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي﴾؟ (طه آية: ٨٦).  
وأعلن:

﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة  
الدنيا وكذلك نجزي المفترين﴾ (الأعراف آية ١٥٢)

وهذا - أى وكذلك نجزي لمفترين - يصدق على كل نحراف يحدث  
في دين، إنه يماله من الله غضب وذلة في الحياة الدنيا، وهو في الآخرة في  
مقت الله

أما قوم موسى فيتحدث الله عنهم قائلاً:

﴿ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرجعنا ربنا  
ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ (الأعراف آية: ١٤٩).

وفتح الله باب التوبة، وهو سبحانه يفتح هذا الباب لكل من يلتحق  
إليه في احلاص، وقال سبحانه في ذلك:

﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمروا إن ربك من

بعدها لغفور رحيم ﴿الأعراف آية: ١٥٣﴾.

يبد أن شخصية أخرى لم تنل شيئاً من الرفق . إنها شخصية صاع العجل.

واتجه موسى إليه في غضب قائلاً:

﴿فما خطبك ياسامري قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى. قال فذهب وإن بك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إهلك الذى ظلت عليه عكها لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً﴾ (طه آيه: ٩٥).

ولكن كيف يعالج موسى الأمر فيما يتعلق بغضب الله؟ إنه سبحانه عفو غفور لمن تاب وأناب، وسلك موسى باب التوبة، باب التضرع إلى الله، فاختار سبعين رجلاً من قومه، مهم هارون ويوشع ليستغفروا الله عن بنى إسرائيل الذين عبدوا العجل، يقول سبحانه.

﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ (الأعراف آية: ١٥٥).

قال محمد بن اسحاق:

«اختر موسى من بنى إسرائيل سبعين رجلاً. الخير فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه بما صنعتم، وسلوه الموبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم».

وإراد الله سبحانه وتعالى أن ينالهم بشيء من العقاب على عبادة العجل فأخذتهم لرحفة، وأفزعهم الأمر، فسارع موسى يدعو الله ويتضرع إليه ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإي، أهلكنا بما فعل السفهاء منا، إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين. واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك﴾ (الأعراف آية ١٥٥-١٥٦).

إد موسى يتضرع إلى الله مبيناً الأمر - والله أعلم به - قائلاً. إنا جئنا تائبين ولو شئت سبحانه لأهلكتهم قبل السعي إلى التوبة، بل لو شئت لأهلكتنى معهم، فإنك لا تسأل عما يفعل، وحكمك فوق كل حكمة. لقد اتخذ العجل بعض السفهاء إلهاً وعبدوه، وجئنا نستعفر ونتوب أو هلكنا سبحانه بما فعل السفهاء منا؟

وما كانت عبادتهم إلا بفصلك منك وقدر اختياراً لهم ومنتحاناً، فما هي إذن إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي بها من تشاء.

وبدأ موسى عليه السلام في التضرع والدعاء قائلاً ﴿أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك﴾ (الأعراف آية ١٥٥-١٥٦).

يقول ابن عباس وغيره «أى تبتا إليك ورجعنا وأنبتنا».

وقال الله سبحانه في عظمته وجلاله ورحمته:

﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا  
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

والواقع أن مسألة رحمة الله التي وسعت كل شيء لها مجالها الكبير في  
الإسلام، وإنَّ من أجمل ما قرأت في آدابنا الإلهية ما رواه رسول الله صلى  
الله عليه وسلم عن ربه:

يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني.

قال: يارب: كيف أعودك وأنت رب العالمين؟

قال: أما علمت أن عبيد فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو  
عدته لوجدتني عنده؟

يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني.

قال: يارب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟

قال: أما علمت أنه استطعمك عبيد فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك  
لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟

يا ابن آدم، استسقيتك فلم تسقيني؟

قال: يارب، وكيف أسقيتك وأنت رب العالمين؟

قال . استسقاك عبيدي فلان قلم تسقه، أما ألك بو سقيه لوحدث ذلك عندي (رواه مسلم).

وللحديث عن ارحمة بمجالات تتحدث عنها فيما بعد.

وقد تتساءل: لمن سيكتب الله رحمته؟

إنه سيحانه بين ذلك، وذكر أنه سيكتبها لمن تنوافر فيهم شروط

وأوطأ: الدين يتقون

ولقد سئ أحد الصحابة عن اتقوى فقال للسائل:

أما سرت في مكان فيه شوك؟

قال: بلى سرت.

قال: فما فعلت؟

قال: شمريت واحتهدت.

قال: فذلك النقوى.

إنها تشمير عن السيئات واحتهاد في الطاعات.

ويؤتون الزكاة: وهذا هو الشرط الثاني . إنه أداء الزكاة، والزكاة تطهير

للمال، وتطهير للنفس، يقول تعالى:

﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ (النوبة آية ١٠٣).



ومن طريف ما يروى أن كثيرين من العلماء سئلوا عن قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِشْرِهِمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَخُفُوفُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (التوبة آية ٣٤-٣٥).

فكأنوا يحييون: أن المال المركب لا يقال عنه أنه مكور أو كمر. والزكاة هنا إنما هي رمز لبقية المروض

ثالثاً: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُمْنُونَ﴾ وما من شك في أن العمل الذي لا يكون صادراً عن الإيمان لا قيمة له، والله سبحانه وتعالى يقول عن المشركين وأعمالهم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَازِلِ الْمَلَائِكَةِ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا. يَوْمَ يُرَوْنَ الْمَلَائِكَةُ لَا بِشَرٍّ يَوْمئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجَرًا مَحْجُورًا، وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (الفرقان آية ٢١-٢٣).

ثم نوه الله سبحانه وتعالى في هذا المقام بمحمد صلى الله عليه وسلم وبأتباعه:

يقول صاحب كتاب «محاسن التأويل»: قال العلامة البقاعي: «لما ترأسلت لآي، وطار المدى في فاصيص موسى عليه السلام.

وبيان مناقبه العظام، ومآثره الجسام، وكان ذلك رما أوقع في بعض النفوس أنه أعلى المرسلين منصباً، وأعظمهم رتبة، ساق سبحانه هذه الآيات هذا السياق، على هذا الوجه الذي بين أعلامهم مراتب، وزكاهم مناقب، الذي حص برحمته من يؤمن به من خلقه، قوة أو فعلاً، وجعل سبحانه ذلك في أثناء قصة بني إسرائيل اهتماماً به وتعجيلاً له، مع ما سيذكر مما يظهر أفضليته، ويوضح أكمليته، بفصته مع قومه في مبدأ أمره وأوسطه ومنتهاه، في سورة «الأنفال» و«براءة» بكاملها.

وإن من المؤمنين بآيات الله الدين سيكتب سبحانه رحمته هم هؤلاء الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي حدثهم الله سبحانه وتعالى عنه في التوراة الصادقة التي أنزلها على موسى عليه السلام، وفي الإنجيل الذي أنزله على عيسى عليه السلام.

وما من شك في أن كتب الله ورسله يشارون بأشياء تحدث في المستقبل ويندرون بأشياء يجب أو ينبغي أن تتحاشى في المستقبل.

من هذه البشارات ما بشر به الله سبحانه في التوراة والإنجيل بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وهو سبحانه يذكر أيضاً بشارات بعض ما سيقوم به بإذن الله، ومنها: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

وقد كان صلوات الله وسلامه عليه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بقوله وفعله، ومن قوله في الحث على ذلك:

«والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم،  
ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتعصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقتوب  
بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم» رواه أبو داود وأبو مزي وقال  
حديث حسن

ومن ذلك أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم:

«ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون  
وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف  
يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدكم بدينه فهو  
مؤمن، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن،  
ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» رواه مسلم.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم:

«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن  
لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» (رواه مسلم)

والقرآن الكريم يقول:

﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى  
ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ  
فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (والآية من سورة المائدة: ٧٨-٧٩)  
ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث.

ولقد اهتم الإسلام بذلك بشدة.

وانظر إلى البيعة . يبيعه المسلمون لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام

عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصاية من أصحابه:

«يا معوي على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تربوا ولا تعتلوا أولادكم ولا تأنوا بيهتان تفنروا بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف. فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفرة له ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه، فبايعناه على ذلك»  
رواه البخارى

ويقول الله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبِيْعُنَكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرُكْنَ بِاللّٰهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِيَهْتَانٍ يَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيْنَكَ فِيْ مَعْرُوفٍ فَبِيْعِيْهِنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللّٰهُ إِنْ اللّٰهُ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ﴾ (المتحنة آية: ١٢).

وانظر على الخصوص في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِيْنَكَ فِيْ مَعْرُوفٍ﴾.  
وقول لصحابي رضى الله عنه: ولا نعصى في معروف

إن لأمر ليس أمر طاعة مطلقة وإنما هي الطاعة في المعروف، إنها طاعة محددة بالمعروف. والله طيب لا يقبل إلا طيباً، روى بن مردويه بسنده عن ابن عباس قال:

تليت هذه الآية عند النبي صلى الله عليه وسلم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً﴾ فقام سعد بن أبي وقاص فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال يأسعد، أظب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، ولذي نفس محمد بيده إن ارحل ليقتذف الدقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً، وأيام عيد نيب لحمه من اسحت ولربا فالنار أولى به».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرِّسَالُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

وقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يارب، يارب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، فأني يستجاب له؟

وتحريم الخبائث في الإسلام باب طويل مستفيض.

﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾

يقول الإمام جمال الدين القاسمي عن ذلك:

إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم جاء بالتيشير والسماحة، كما ورد  
الحديث من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:  
«بعثت بالحيفية السمحة»

وقال صلى الله عليه وسلم لأميريه معاذ وأبي موسى رضي الله عنهما لما  
بعثهما إلى اليمن.

(يُشِرُوا وَلَا تَنْفُرُوا، أَوْ يَسِرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَتَطَوَّعَا وَلَا تُخْتَلَفَا).

والإصر: هو ما يشق على الإنسان من الأعمال وانتكاف.

ثم تحدث سبحانه عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعما يجب  
بالسبة له فقال تعالى:

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ  
أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف آية ١٥٧).

والإيمان بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من الأمور التي لها أسباب  
وعلى واضحة، وذلك:

١ - لأنه الرسول الوحيد الذي حفظ آثاره، وحفظ الكتاب الذي

رُسل به في صورة لا تقبل اشك، والرجوع إليها رجوع إلى معروف  
صادق من التاريخ، والبحث فيها مبسور لا صعوبة فيه.

٢ - ولأن سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم كان يلتزم ما يأمر به، بل  
ويريد عليه.. لقد كان يصلي أكثر مما يصلي الآخرون، ويصوم أكثر مما يصوم  
الآخرون، وكان ينفذ كل القواعد التي أمر ببنائها ويستهي عن كل المنهيات  
التي ينهى عنها.

٣ - ولقد أتى القرآن بالأدلة العقلية التي تثبت نبوته، فخذ منها  
المؤلفون في دلائل انبوة المهج والموضوع الذي ساروا عليه.

٤ - لقد أتى بمعجزات حسية كثيرة، بيد أن المعجزة الكبرى له إنما  
كانت القرآن؛ كتاب الهداية الأكر، كما أنه كتاب العربية الأكبر. إنه  
الكتاب الذي يأمر بالتي هي أقوم في الأخلاق والعقيدة والتشريع ونظام  
المجتمع.

٥ - كان صلى الله عليه وسلم بحياته كلها مثلاً للكمال الإنساني في  
أعلى دروة من ذراه، وكان مع الله دائماً في كل تصرفاته، ولم تؤثر عنه كدبة  
ولقد كان يمثل الصدق في أتم صورة<sup>(١)</sup>.

---

(١) وقد ألف كتاباً كاملاً عن دلائل نبوه أوضحها فيه في أسلوب واضح دلائل نبوه

صلى الله عليه وسلم

## بقرة بنى إسرائيل

قال تعالى:

﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا ألتأخذنا هزواً قال أعود بالله أن أكون من الجاهلين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض<sup>(١)</sup> ولا بكر عوان<sup>(٢)</sup> بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع<sup>(٣)</sup> لونها تسر الناظرين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول<sup>(٤)</sup> تشير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية<sup>(٥)</sup> فيها قلوا الآن جنب بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون وإذ قتلتم نفس

(١) أى لا كهرة هرمه، ولا صغيرة، أى لم يطرقتها قبل.

(٢) وسط بين تكبيرة والصغيرة أقوى ما يكون من نداب

(٣) أى شدة البصرة تكاد من صفوها تبص

(٤) غير مرهقة بالعمل كالحراثة وسمى الأرض

(٥) ليس فيها لون غير نوحها سالة من العيوب



فَاذَارَاتُمْ<sup>(١)</sup> فِيهَا وَلِلَّهِ مَخْرَجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ. فَقُلْنَا اصْرَبْهُ بِبَعْضِهَا  
كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ (لبقرة آية:  
٦٧-٧٣).

روى ابن جرير بسنده - عن ابن عباس رضى الله عنهما قال.

«لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها، ولكنهم شددوا شدد الله عليهم».

وقال ابن جرير: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إعما أمرو بأدنى بقرة، ولكنهم لما شددوا شدد الله عليهم، وأيم الله لو

أنهم لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد».

ولم يهدى بنو إسرائيل إلى البقرة المطلوبة إلا حينما سلموا أمورهم إلى

الله طالين الهدية: عن أبي هريرة رضى الله عنه قال:

«لولا أن بنى إسرائيل قدوا ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ لما أعطوا

ولكن استثنوا» وفي رواية عنه قال:

«لولا أن بنى إسرائيل قالوا ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ما أعطوا

أبدًا، ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأحرأت عنهم، ولكن

شددوا شدد الله عليهم».

---

(١) اختصمتهم.

## موسى عليه السلام يطلب العلم

قال الله تعالى:

هواد قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبع مجمع البحرين أو أمضى  
حقبا فلما بلغ مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا فلما  
جازا قل لفتاه اتا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قل أرأيت إذ  
أوتيت إلى الصخرة فإني نسيت الخوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن  
أذكره واتخذ سبيبه فى البحر عجباً قل ذلك ما كنت نبغ فارتدا على  
اثارهما قصصا فوجدا عبدا من عبادن آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه  
من لدنا علما قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا  
قال إنك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا  
قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا قال فإن اتبعتنى  
فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا فانطلق حتى إذا ركبا فى  
السفينة خرقها قل أخرقتها لتفرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا قال ألم  
أقل إنك لن تستطيع معى صبرا قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى

من أمرى عسراً، فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله، قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكراً، قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً، قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل القرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً، قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً، أم السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا فأردنا أن يبدلها ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً وأم الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ (سورة الكهف، ٦٠-٨٢).

وروى البخاري: «باب قول: وإذا قال موسى لفتاه لا أهرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقياً - زماناً وجمعه أحقاب»

حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار قال: أخبرني سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس أن نوحا اليكالي يرجم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل. فقال ابن عباس: كذب عدو الله، حدثني أبي بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

إن موسى قام خطيباً في بني اسرائيل، فسئل أى الناس أعلم؟ قال  
نأ، فعتب الله عليه إذ لم يرد لعلم إليه، فأوحى الله إليه.. إن لى عبداً  
يجمع البحرين هو أعلم منك.

قال موسى. يارب فكيف لى به؟

قال: تأخذ معك حوتا فتجعله في مكمل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم.  
فأخذ حوتاً في مكمل ثم انطلق، وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون حتى إذا  
أتيا الصخرة وصعا رأسيهما فدام، واصطرب الحوت في المكمل فخرج منه  
فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرّباً، وأمسك الله عن الحوت جرية  
الماء فصار عليه مثل الطاق، فلم استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت،  
فاظلم بفيه يومها وليلتها حتى إذا كان من العد قل موسى لفتاه أتنا  
غداً لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً.

قال: ولم يجد موسى النَّصَبَ حتى جاور المكان الذي أمر الله به، فقال له  
فتاه: دُنت إذ أوبنا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أسانيه  
لا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً.

قال: فكان للحوت سرّباً، ولموسى ولفتاه عجباً.

فقال موسى: ذلك ما كنا نبع فارتدا على آثارها قصصاً.. قال. رجعا  
يفضن آثارها حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسحى ثوباً، فسلم عليه  
موسى، فقال الخضر. وإني بأرصدك السلام

قال: أنا موسى.

قال: موسى بنى اسرائيل؟

قال: نعم، أتيتك لتعلمني بما علمت رشداً

قال: إني لن تستطيع معي صبراً يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه. فقال موسى: سنجدي إن شاء الله صبراً ولا أعصي لك أمراً فقال له الخضر فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة، فكما هم أن يحملوها، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يبالجا إلا والخضر قد خلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرأاً قال: لم أقل إني لن أستطيع معي صبراً. قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً. قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وكانت الأولى من موسى نسياناً.

قال: وجاء عصفور فوق على حرف السفينة، فقرر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من عدم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبيباهما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر

غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده، فاقتلعه بيده، فقتله.

فقال له موسى: أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً مكرراً.

قال: أم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً.

قال: وهذه أشد من الأولى.

قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً.

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعا أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض قال: مثل، فقام الخضر فأقامه بيده، فقال موسى: قوم أتيناكم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، لو شئت لاتخذت عليه أجراً.

قال هذا فراق بيني وبينك - إلى قوله - ما لم تستطع عليه صبراً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم،

وددا أن موسى كن صبر حق يقص الله علينا من خيرها

## داود

عليه السلام

ابتداء ظهوره:

أغار الغزاة على بني إسرائيل فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وسبوا نساءهم،  
ويشموا أطفالهم، فجاءوا إلى نبيهم الذي كان بينهم ثأرين قائلين:  
أيث لنا ملكاً يوليهم علينا فنكون له لقيادة والرعاية، ويجمع كلمتنا  
على قتال الأعداء الذين أذلوا وقتلوا ما الكثير.  
وكان نبيهم على علم بجهنم وتحاذيهم، فقال لهم مثبتاً:  
أحفاً ستقابلون إن كتب عليكم القتال وأصبح الأمر حذاً؟ فأجابوه  
مؤكدين قائلين:  
﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾  
(البقرة. ٢٤٦)

ولكن ظن نبيهم فيهم كان صادقاً، فإنه بمجرد أن كتب عليهم القتال

تولوا إلا قليلاً منهم ويعتق الله على ذلك بقوله تعالى . والله عليم بالظالمين.  
وبيان الأمر أن نبينهم أعلن لهم أن الله قد بعث لهم (طالبوت) ملكاً،  
فجادلوا مباشرة في الأمر. ومن طبعهم الجدل، وقالوا: كيف يكون له الملك  
علينا؟

إننا أحق بالملك منه. على أنه ليس بعب، إنه لم يؤت سعة من المال.  
وكان تقديرهم لجمال كبيراً كما هو دثأ، هذا الطبع الذي يعبد المال ويتحد  
من الذهب إلهاً.

ولم يشأ نبينهم أن يجارهم في الجدل. فقال في صورة حاسمة.  
﴿إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم، والله يؤتي  
ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾ (البقرة. ٢٤٧).

وقال لهم نبينهم أيضاً: إن من علامات ملكه أن يأتيكم اتابوت فيه  
سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون نحملة الملائكة إن في  
ذلك لاية لكم إن كنتم مؤمنين

وسار (طالبوت) بالجنود لحرب الأعداء، وأحب طالبوت أن يجري تجربة  
ليرى مدى استعداد بني اسرائيل للحرب، فقال لجنوده:  
﴿إن الله مبتليكم بنهر﴾ (البقرة ٢٤٩).



قال ابن عباس رضى الله عنه:

(هو نهر الأردن، وهو المسمى بالشرية).

﴿فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف

غرفة بيده﴾ (البقرة: ٢٤٩).

كان هذا اختباراً، رسقط في هذا الاحبار الكثير، يقول تعالى:

﴿فشربوا منه إلا قليلاً منهم﴾ (البقرة: ٢٤٩).

لقد تعمدوا أن يشربوا حتى لا يذهبوا إلى قتال، وحتى يرجعوا دون

جهاد، فقد طبعوا على الجبن، والله تعالى يقول عنهم.

﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم

بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾

(الحشر: ١٤)

ولقد أصبحت الطائرت بالنسبة لهم هي القرى المحصنة، أو هي الحدر

التي يختبئون وراءها، أما الحرب وجهاً لوجه فإنهم أحسن من أن يارسوها.

والتقى الحيشان، وبرر حاولت منادياً للقتال، فخرج إليه «داود» عليه

السلام وكان جدياً في الجيش ولم يشرب من النهر.

﴿وقتل داود جالوت﴾.

وحينها جاء وقت العبوة:

﴿آتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾.

ويعقب الله سبحانه على ذلك كله بقوله:

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾.

ونقص الله سبحانه وتعالى ذلك كله في القرآن الكريم قائلاً:

﴿ألم تر إلى الملائكة من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلون قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلي كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين. وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت مدك، قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم. وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بهرق فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده، فشربوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، قال الذين يظنون أنهم ملائكة الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين. ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا

ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.  
فهزمهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه  
بما يشاء ﴿البقرة: ٢٤٧-٢٥١﴾.

لقد قبل داود جالوت، وهزم جيش جالوت، فتطعت الأعين إلى داود،  
وهفت إليه لأفئدة، وعظم في أعين الاسرائيليين، فولوه عليهم ملكاً.  
وقوله تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض  
ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ إنما يعنى والله أعلم أنه لولا إقامة  
الله تعالى للحكام لذين يعملون على استتباب الأمن وإنصاف المظلومين  
وفرض العدالة، لولا ذلك لفسدت الأرض لأن عرائز الملك والسيطرة  
والاستعباد تجعل القوى يأكل الضعيف، ويغصب القادر أموال غير القادر،  
وهكذا.

ومن هنا كان قول سيدنا عثمان رضى الله عنه

«إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»

ومن هنا كانت الحكمة:

(السلطان ظل الله في أرضه).

نعم الله على داود:

كان داود نبياً ملكاً، ولقد آتاه الله من هباته ونعمه الكثير، من ذلك: أنه  
كان رسولاً صاحب كتاب، إنه الزبور، وهو كتاب من كتب الله المنزلة.

وإذا كان إبراهيم عليه السلام أوقى صحفًا، وأرقى موسى عليه السلام الألواح فيها التوراة، فإن داود أوقى الربور، وآتاه الله سبحانه صوتًا جميلًا، وهو منحة في عتبة العفاسة، وحمل الصوت عند دود ليس على المعنى العادى الآلى فى الأنعام والألحان وسبها لمحددة ليخرج الصوت جميلًا.

لقد كان هذا عند داود، ولكن صوت دود كان له طابع آخر هو الذى أعطى له تلك النفاسة الطائلة التى كانت له.

إن الأصوات الجميلة تخرج بأرواح قانيها، وكما صفت الروح، وكما تركت لنفس وامتزجت بالعناء والترتيل، كان الصوت أجمل، وكانت حاذيته أقوى.

وكما كان الشعور مرهفًا، وكان الحس متأثرًا عما يقال، كان الصوت أكثر تأثيرًا.

وما كان داود يشعر بنفسه وهو يرمل الربور ويعنى به، وإنما كان فانيًا فيما يعبر عنه من كلمات الربور.

إنه كان مستغرقًا فى الربور - أى أنه كان مع الله وهو يتغنى بكلمات الكتاب المقدس - بل لقد كان فانيًا فى الله حل جلاله، لقد كان يتغنى ويكفى، لقد كان ربورًا مترعًا، فكان لحما ربانيًا.

يعبر القرآن فى صور جميلة - عن تأثير داود البالغ أثناء تغنيه، وهو سبحانه يسمى ذلك تسبيحًا، فيقول:

﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق، والطير محشورة كل له أواب﴾. (ص: ١٨-١٩).

ويقول سبحانه:

﴿يا جبال أوبي معه والطير﴾ (سبأ: ١٠)

ويقول سبحانه:

﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين﴾ (الأنبياء: ٧٩).

وقد تابع المفسرون القرآن الكريم في الحديث عن صوت داود عليه السلام، فنقول الأوزاعي:

حدثني عبيد الله بن عامر قال «أعطى داود من حسن الصوت ما لم يعط أحد قط، حتى أن كار الطير ولو حش بتعكف حوله حتى يموت عطشاً وجوعاً، وحتى أن الأنهار لتقف».

ويقول الإمام ابن كثير:

«وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحد بحيث أنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يرجع بترحيبه، ويسبح بتسبيحه، وكذلك الجبال بحببه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشياً، صلوات الله وسلامه عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت:

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال:

«لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داود».

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«لقد أعطى أبو موسى من مزامير داود».

وتغنى داود بالزبور جعل الفقهاء يتساءلون:

يقول عبد الرازق ناقلًا عن ابن جريج قال:

سألت عطاء من القراءة على الغناء، فقال:

وما بأس بذلك؟

وهبة أخرى من هبات الله سبحانه لداود يعبر عنها القرآن بقوله:

﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم

شاكرون﴾ (الأنبياء: ٨٠)

لقد علمه الله سبحانه صناعة الدروع لحق المحاربين من سهام الأعداء.

ويقول سبحانه وعالي:

﴿وألنا له الحديد، أن يعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً

إني بما تعملون بصير﴾ (سبا: ١٠-١١).

ويقول عكرمة ومجاهد وغيرهما في قوله تعالى:

﴿وقدر في السرد﴾

أى لا تدق لمسمار فيغلق، ولا تغلظه فينفصم

ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى علمه صناعة الدروع في إحاطها وفي تفاصيلها، وكانت صناعة الدروع مهنته التي كان يتكسب منها لعيشه، وهو رغم ما كان فيه من ملك وأمة، ورغم ما كان تحت يده من مال كثير، كان يعيش من عمل يده.

ولقد ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم كمثال كريم للكسب الحلال، فقال:

«إن طيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن نسي الله داود كار بأكل من كسبه»، (رواه البخاري بنحوه)

وبعد أوجب لإسلام في الكسب أن يكون من حلال، وحث على ذلك بشئ الطرق، ومن ذلك ما رواه ابن مردويه - بسنده - عن ابن عباس قال:

«تليت هذه الآية عند النبي صلى الله عليه وسلم ﴿يأيتها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾ فقام سعد بن أبي وقاص فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال:

«يا سعد، أطلب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده

إن الرجل ليصف للقمعة الحرام في خوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً، وأما  
عيد نبت لحمه من السحت والربا هلثار أولى به».

وما رواه أحمد ومسلم والنرمدي - بسندهم - عن أبي هريرة قال: قال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«يها الناس، إن لله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما  
أمر به المرسلين فقال ﴿يَا أَيُّهَا الرِّسْلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً  
إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وفار: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ  
مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء  
يارب، يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام  
فأني يستحاب لذلك؟»

ومن الهبات التي منحها الله لداود عليه السلام هبة القوة، يقول  
سبحانه.

﴿وَاذْكُرْ عِبْدَنَا دَاوُدَ إِذْ أَلَيْنَا﴾ (ص ١٧)

والأيد: القوة.

لقد كان داود عليه السلام قوياً في كل ما يأتي من الأمور  
لقد كان هوذا في أمور العبادة، وهذا هو اراد هنا على ما ذكره أكثر  
المفسرين.



في الصلاة والصيام وغيرهما، وقد ورد في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى» رواه أحمد ولسيخان وأبو داود وأبو داود وابن أبي شيبة. وكان قوياً في بكانه إن صبح هذا التعبير حينها كان يرتل الربور وكان قوياً في السيطرة على مملكته ومن أحل ذلك يقول الله تعالى عنه: ﴿رشدنا ملكه﴾.

أما العقل والمنطق فيقول الله عنه:

﴿وآتياه الحكمة وفصل الخطاب﴾ (ص: ٢٠)  
وهذا من القوة.

وهو الذي قتل حالوت، وكان حالوت حباراً قوياً.

قضاؤه في الخصومة:

أما ما يحب أن ننبه إليه فهو الفضة التي قصها الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب، إذ دخلوا على داود ففرع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا

بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط، إن هذا أخى له تسع وتسعون عجة ولى نعمة واحدة فقال أكفنيها وعزني في الخطاب. قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثراً من الخطاء ليبيغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم، وظن دود أما فتناء فاستغفر ربه وخرّ راکعاً وأتاب، فعقرن له ذلك وإن له عندنا لرلقى وحسن مأب ﴿ (ص ٢١-٢٥)

لقد كان دود - عليه السلام - يعتكف أحياناً، ويترك أمر الملك دون تصريح، وللناس مصالح، وعلى الملك لجمهور تبعات، وبني هو معتكف إذ دخل عليه رجلان، واشتكى أحدهما من الآخر، وفصل داود بينهما، فلما ذهباً فكر داود في الأمر، وظن أن الله سبحانه وتعالى منه بأن حبيب إليه الاعتكاف حتى بلغت حاجة الناس إليه أن تسوروا عليه المحراب، وظن داود أنه أساء بساءه بلعه فأخذ في الاستغفار، وخر راکعاً وأتاب، يقول تعالى:

﴿فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لرلقى وحسن مأب﴾

يقول الإمام جمال الدين القاسمي:

«وفي قضائه عليه لسلام - هذا من الحكمة وفصل الخطاب ما يبيح الأفتد، ويفر عن المعبون، ذلك أنه صدع بالحق أبلغ صدع، فجهر بظلم حصمه وبيعه جهر لا بحايأة فيه ولا مواربه، فأقر عين المطلوب، وعرف لباعى ظلمه وحيقه، وأن سيف العدل والإنصاف فوقه، ثم نفس عن قلب

المظلوم البائس، وروح عن صدره يذكر ما عليه الأكثر من هذه الخلة -  
حله البعي وعدم الإصاف - مع الخلطة والخللة، ليتأسى ويتلى كما قيل :  
« إن التأسى روح كل حزين ». ثم أكد الأمر بقلّة القائمين بحقوق الأخوة  
من أمر وعمل صالحاً، فكيف بغيرهم؟.. وكنها حكم وغرر ودرر حقائق  
تنطبق على أكثر هذا السواد الأعظم من الناس، الذين يدعون المحبة  
والصداقة، ولعظم شأن حقوق المحبة تُسهب في آدابها علماء لأحلاق  
إسهاباً موعوا فيد لأبواب، ولوّثوا فيد الفصول، ومع ذلك لا تزال  
الشكوى عامّة، وقد امتلأت من منظومها ومثورها كتب الأدب، كما  
لا يخفى على من له إلمام به وبالله التوفيق».

﴿وطني داود أئمة فتناه﴾ أي ابتليناه بتلك الحكومة فاستغفر ربّه وخر  
راكعاً وأب ﴿ففغرنا له ذلك﴾ أي ما استغفر منه ﴿وإن له عندنا  
لزلفى﴾ أي لقربى ﴿وحسن ما ب﴾ أي مرجعاً حسناً وكرامة في الآخرة.

داود ولعدالة:

يقول تعالى:

﴿يادادود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا  
تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم  
عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ (ص: ٢٦)

ولقد تحدث المران الكريم، ومحدث الرسول صلى الله عليه وسلم

واصحابة وعلية الإسلام بالكثير، يقول تعالى في العدالة مع الأعداء فضلاً  
عن الأولياء والمؤمنين.

﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن  
تعتدوا﴾ (المائدة: ٢)  
وينول.

﴿يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم  
شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله  
خير بما تعملون﴾ (المائدة آية: ٨).

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه  
يمين، لذين يقسطون في أهلهم وحكمهم وما ولوا» (رواه مسلم).  
وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:  
«إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأفرضهم منه مجلساً: إمام عادل،  
وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً: إمام جائر» (رواه  
أحمد والترمذي).

من حكمه:

ولقد روت كتب التفسير وكتب التاريخ شيئاً من حكمه، من ذلك

ما رواه عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد: أنبأنا سفيان الثوري، عن رجل، عن وهب بن منبه قال:

«إن في حكمة آل داود: حق على العاقل ألا يفعل أربع ساعات: ساعة يتأجج فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يصفى فيها إلى إخوانه الذين يجبرونه بعبوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعة يحل بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويحمل، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات، وإجماع للقلوب، وحق على العاقل أن يعرف زمانه، ويحفظ لسانه، ويعمل على شأنه، وحق على العاقل ألا يظعن إلا في إحدى ثلاث: زد لمعاده، ومرة لمعاشه، ولذة في غير محرم».

ومن حكمه أيضًا:

«يا زارع السيئات، أنت تحصد شوكتها وحسكها».

وعن ابن شهاب قال: قال داود:

«الحمد لله كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله، فأوحى الله إليّ: إنك أتعبت الحفظة يا داود».

ومن أجمل ما روى عن داود عليه السلام ما رواه أبو عمران الجوني عن أبي الجلود قال:

قرأت في مسألة داود عليه السلام أنه قال: يارب كيف أشكرك وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك؟

قال: فأتاه الوحي أن يا داود، أأنت تعلم أن الذي بك من النعم مني؟

قال: بلى يا رب.

قال: فإني أرضى بذلك منك.

## سليمان

### عليه السلام

تسير - إن شاء الله - مع القرآن الكريم في سورة (ص) في حديثه عن سليمان عليه السلام، يقول سبحانه:

﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد - إنه أواب﴾

وقوله سبحانه: ﴿إنه أواب﴾ - أي كثير لرجوع إلى الله، والرجوع إلى الله يكون قبل العمل، وفي أثناء العمل، وبعد العمل - أي لرجوع إلى الله بالاستخاره وإحلاص النية قبل العمل، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» (رواه البخاري وغيره).  
أما في أثناء العمل فإن الأواب لا يأخذ أعماله على أنها وسائل حتمية

مؤديه إلى نتيجة لاشك فيها. وبما يأخذ الأمر على أنه يرجع إلى الله هداية وتوفيقاً.

﴿إليه يرجع الأمر كله﴾

وأما النتيجة فإنها بيد الله، إليه المصير.

وما من شك في أن الإحكام والإيمان وعمل كل ما يمكن من أجل النجاح مطلوب بل واجب، ولكن ذلك شيء واعتقاد أن الأمر كله لله وبالله شيء آخر.

كان سليمان نواباً

وفي يوم من الأيام أخذ يستعرض حبيبه الصامات الحباد. أي التي بنى من قوتها ومهارتها أنها تقوم على طرف سنبك يد أو رجل، وكلها جادة سريعة في جريها.

استغرق سليمان عليه السلام في هذا الاستعراض مشرح النفس مسروراً، لم يشعر بمرور الزمن، ولم يفتئ إلى نفسه إلا عندما رأى لشمس نوارت خلف الأفق، فعرف أن الخيل صرفته بجمالها وبحسها عن عبادة الله معروضة في هذه الفترة من الزمن فترة العصر فقال:

﴿إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى نوارت بالحجاب﴾.

والمراد بالخير أي إني أحببت الخيل، واستغرقني حبها حتى نست ذكر ربي في هذه اللحظات التي مرت قبل غروب الشمس.



وكان ذلك جعله يشاق إليها من جديد فقال:

﴿ردوها على فطقق مسح بالسوق والأعناق﴾

يقول علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

جعل مسح أعراف الخيل، وعراقيبها، حباًها.

وهذا التفسير الجميل هو الذي اختاره ابن جرير الطبري، فإنه يقول:

لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة، ومك ماله من ماله بلا سبب.

سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها.

وللرازي تفسير آخر جميل، إنه يقول:

إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم كما أنه كذلك في دين الإسلام

ثم إن سيمن عليه السلام احتاج إلى العزو فجلس وأمر بإحصار الخيل

وأمر بإجرائها، وذكر أني لا أحبها لأحل الدنيا وبصيب النفس، وإن

أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه، وهو المراد من قوله: ﴿عن ذكر ربي﴾.

ثم إنه عليه السلام أمر بإعدادها ويسييرها حتى يوارب بالحجاب - أي

غابت عن بصره ثم أمر الرائيين بأن يردوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه

طفق يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك المسح أمور.

الأول: تشریف لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع

العدو.

والثاني: أنه أراد أن يظهر أنه في صبط السياسة والمث يتضح هذا حيث أنه يباشر أكثر الأمور بنفسه.

الثالث: أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراسها وعيوبها، فكان يتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض.

وقال: فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقاً مطابقاً موافقاً، ولا يرمي نسبة شيء من تلك المنكرات والمحدورات.

قال: وأنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة، مع أن العقل والمقل يردّها، وليس لهم في إثباتها شبهة فضلاً عن حجة.

من قيل: إن الجمهور فسروا الآية بذلك الوجه، فما قولك فيه؟

فنقول: لنا ههنا مقامان:

المقام الأول: أن ندعى أن لفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه لقي يذكرونها وقد ظهر - والحمد لله - أن الأمر كما ذكرناه، وظهوره لا يرتاب العادل فيه.

المقام الثاني: أن يقال يجب أن لفظ الآية لا يدل عليه إلا أنه كلام ذكره الناس مما قولك فيه؟

وجوابنا: أن الأدلة الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام، ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات وروية الآحاد لا تصلح معارضة

للدلائل القوية، فكيف بالحكايات عن أهوام لا يبالي بهم، ولا يلتفت إلى أقوالهم؟ والله أعلم.

ويقول صاحب كتاب محاسن التأويل: إن الإمام ابن حزم سبق الإمام الرازي في هذا الرأي، يقول ابن حزم:

تأويل الآية على أنه قتل الخيل إذ اشعل بها عن الصلاة خرافة موضوعة مكذوبة، سخيفة باردة. قد جمعت أقاوين من القول، لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها، والتمثيل بها وإتلاف مال مسفع به بلا معنى، ونسبة تضييع الصلاة إلى سبي مرسل، ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها. وإنما معنى الآية أنه أخبر أنه أحب حب الخير من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس أو تلك الصافنات بحجابها، ثم أمر بردها فطفق مسحاً بسوقها وأعناقها بيده برأ بها، واکراماً لها. هذا هو ظاهر الآية الذي لا يحتمل غيره، وليس فيها إشارة أصلاً إلى ما ذكره من قتل الخيل وتعطيل الصلاة. وكل هذا قد قاله ثقات المسلمين. فكيف ولا حجة في قول أحد دون رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ اهـ

وبأى الآن إلى قصة أخرى عن سليمان اختلف فيها المفسرون، يقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ، قَالَ رَبِّ اعْفُرْ لِي﴾.

يقول الإمام الألوسي في ذلك:

أظهر ما قيل في حسنه عليه السلام أنه قال: «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى، ولم يقل إن شاء الله فطاق عليهن، فلم تحمل إلا مرأة وحاءت بشق رحل» وقد روى ذلك الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة مرفوعاً وفيه: «هو الذي لمس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا هرساء» لكن الذي في صحيح البخاري أربعون بدل سبعين، وأر لمك قل له - قل إن شاء الله، فلم يقل وغائته ترك الأولى فليس بذنب، وإن عده هو عليه السلام ذنباً، فالمراد بالحسد ذلك الشق الذي ولد له، ومعنى إلقائه على كرسيه وضع لقابله له عليه ليراه.

فلما رأى سليمان ذلك رجع إلى الله بالاستغفار، ثم أتبع ذلك بالدعاء قائلاً:

﴿وَهَبْ لِي مُدْكَ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾

واستجاب الله سبحانه لسليمان وعرف بذلك قائلاً:

- ١ - فسحرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب.
- ٢ - والشياطين كل بناء وغواص.
- ٣ - وآخرين مقرنين في الأصفاد.

ثم عقب الله على كل ذلك بقوله تعالى:

﴿هذا عطاؤنا فامتن أو أمسك بغير حساب﴾.

﴿إن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ (ص آة: ٣٩، ٤٠).

ويذكر الله سبحانه وتعالى مرة أخرى عطاءه لسليمان رضى الله عنه  
فقول:

﴿ولسليمان الريح غدود شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر  
ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه  
من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفن  
كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى  
الشكور﴾ (سبا آية: ١٢-١٣).

يقول الحسن البصرى رضى الله عنه:

كان يعدو من دمشق، فينزل باصطخر، فيتعدى بها ويذهب رائحاً منها،  
فيبيت بكابل، وبين دمشق وبين اصطخر مسيرة شهر، وبين اصطخر وكابل  
مسيرة شهر

ولقد روى الامام البخارى عن أبى هريرة عن ابنى صلى الله عليه  
وسلم قال:

«إن عفريتاً من الجن تفلت على البارحة ليقطع على صلاتى فأمكنى الله  
منه، فأحدثه فأردت أن أربطه إلى ساربه من سوارى المسجد حتى تنظروا  
إليه كدكم فذكرت دعوة أخى سليمان».

«رب غمر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، فرددته حاسئاً»  
أهـ.

وفي قوله تعالى ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وإن له  
عندنا لزلقى وحسن مآب ﴿(ص آية: ٣٨-٣٩).

يقول الإمام ابن كثير:

ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسداه من النعم الكاملة العظيمة إليه  
قال:

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى اعط من شئت  
واحرم من شئت، فلا حساب عليك. أى تصرف في المال كيف شئت، فإن  
الله قد سوغ لك ما يفعله من ذلك ولا يحاسبك على ذلك، وهذا شأن المولى  
الملك بخلاف العبد لرسول، فإن من شأنه أن لا يعطى أحداً إلا بإذن الله  
له في ذلك.

وقد خبر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين هذين المقامين فاختار  
أن يكون عبداً رسولاً.

وفي بعض الروايات أنه استشار جبريل في ذلك فأشار إليه أن تواضع،  
فاحتار أن يكون عبداً رسولاً صلوات الله وسلامه عليه، وقد جعل الله  
الخليفة والملك من بعده في أمته إلى يوم القيمة فلا تزال طائفة من أمته  
طاهرين حتى تقوم الساعة. فله الحمد والمِنَّة.

ولما ذكر تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا نية عني  
ما أعد له في الآخرة من الثواب الجليل والأجر والقرية لثى تقربه إليه  
والفوز العظيم والإكرام بين يديه، وذلك يوم المعاد والحساب حيث يقول  
تعالى:

﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾.

\*\*\*

ونأتى الآن إلى الحديث عن قصة سليمان مع ملكة سبأ:  
يقول صاحب البحر المحيط عن اسم الذى أحضر عرش بلقيس بعد  
أن ذكر كثيراً من الأقوال في ذلك:  
«وهذه أقوال مضطربة وقد أهم الله اسمه فكان ينبغي أن لا يذكر  
اسمه حتى يخبر به نبي».

وهذه الكلمة الرشيدة لهذا الإمام الجليل يسغى أن تكون شعاراً في كل  
ما لم يصرح به لقرآن مما ليس للتاريخ فيه مقال، ولا للعقل فيه مجال.  
إن الظن لا يغنى عن الحق شيئاً، وإن كل قول في اسم الذى أحضر  
عرش بلقيس، والذي عبر عنه الله تعالى بقوله:  
﴿الذى عنده علم من الكتاب﴾.

إنما هو تخمين وظن.

لقد قال بعض المفسرين: إنه جبريل عليه السلام

وقال أكثر المفسرين: إنه أصف بن برخيا كاتب سليمان أو وزيره،  
وكان كما يقولون - صديقاً عالمًا.

وقال البعض: إنه الخضر.

وليس هناك ما يشبه الدليل القطعي على شيء من هذا.

أما وسيله إلى ذلك فلم يحدث عنها القرآن ولا السنة الصحيحة، وإنما  
أشار إليها القرآن في أسلوب غنية في الدقة والإحكام

في القرآن وصف الأتق بالعرش بأنه. (الذي عنده علم من الكتاب).

وهذا يشير بكل سهولة - إلى أنه من العلماء، ويكون معنى الإشارة  
أن عرش بلقيس كان إحضاره عن طريق العلم، وأن طريق لعلم أسرع  
من طرق الشياطين، ومردة الجن.

والوسيلة - إذن - في إحضار عرش بلقيس، إنما كانت الوسيلة  
العلمية أما كيف؟ أما التفاصيل، أما دقائق لتنفيذ فإن ذلك كله لا سبيل  
إلى معرفته ولعل تقدم العلم يكشف في يوم من الأيام الأسلوب الذي أتى  
به عرش سليمان، أو عن الأقل يقربه من الأفهام. والله أعلم.



## سليمان والعلم

الوضح من الجو القراني أن سليمان عليه السلام كان يعيش في حضارة متقدمة، وأن سليمان عليه السلام كان على معرفة واسعة عميقة.

إن سليمان عليه السلام يقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مِنْ طَيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

ثم يعترف بنعمة الله تعالى عليه وعلى أبيه قائلاً:

﴿إِنْ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (الصلوة: ١٦)

ويقول الله تعالى مبيناً ما منح سبحانه سليمان وأياه من العلم:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ (الصلوة: ١٥).

أهو العلم الوهبي؟

أم هو العلم الكسبي؟

الواقع أنه لا يتأتى الاقتصار على أحد نوعي العلم.

و لو وقع من ناحيه أخرى إى كى أعتقد أن نعم لوهبى مفسور  
على الجانب العمدى والجانب الأخلاقى، ثم تبى أن هذا الرأى خطأ  
صريح حينما التفت باشيخ الحارون الحجار.

قد كان شيخاً سورياً من محبى سيدنا محبى لدين بن عربى، وكان من  
الأفراد القلائل الذين يفهمون الشيخ الأكر، ويتدقون آراءه، ويسرون  
فى تياره.

كان منها فى علوم الدين، وهذا ما كى أعتقد أنه طبعى، ولكنه كان  
منها أيضاً فى علوم المادة الزراعية، لطبيعية، الأحياء... وهذا هو  
ما فوجئت به.

ومن أح ذلك فإن من يقصر الإلهام على علوم الدين فإنه يكون  
مخطئاً.

وكان سليمان عليه السلام ملهاً فى علوم الدين والدنيا، ولكنه كان  
يصف إلى ذلك العلم الكسبى، تعلماً وتجربة، وملاحظة واستقراء.

وكانت مظاهر لحصاره الماديه بادية واضحة كما ذكرنا بعضها من قبل.

ومن مظاهر علم سليمان ما ذكره القرآن بقوله

﴿عَلَّمَا مَطَقَ الطَّيْرِ﴾ (المل آية ١٦).

وفى يوم من الأيام أعطى سليمان الأمر بتجمع جيشه جميعه ويذكر

القرآن ذلك قائلًا:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ،  
حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ: يَا أَيُّهُمُ السَّمَلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ  
لَا يَحِطُّ بِكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا  
وَقَالَ: رَبِّ ارْزُقْنِي زَنْ أَشْكُرَ بِعَمَلِكَ الَّذِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَتِي وَأَنْ  
أَعْمَلَ صَالِحًا، تَرْضَاهُ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل آية ١٧-١٩)

وأخذ سليمان عليه السلام يستعرض الحش من الجن والإنس والطير،  
فرأى المدهد غائبًا، إنه لم يستحب للحضور، وكن من الطبيعي أن ينال  
جزاءه، ولا يتأق أن تمنع النبوة رحمتها ورأفتها أن ينال المهمل أو المفصر  
جزاءه.

ومها امتلاً قلب الرعم أو القائد رافة ورحمة، فإن ذلك لا يجمع من  
فرض الجزاء على كل مفصر، وإلا فسد الأمر، ومن هنا كان قول سليمان  
عليه السلام.

﴿لَأَعَذِّبَهُ عَذَابًا شَدِيدًا، أَوْ لَأَذِيبَهُ﴾ (النمل آية ٢١).

ولكن الأمر لا طغيان فيه، وإنما هي العدالة، ومن أجل ذلك قال  
سليمان عليه السلام:

﴿أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾.

أى سبب مفتح للعفو حتى يكون العفو.

وجاء الهدد فقال لسليمان عليه السلام:

﴿أحطت بما لم تحط به﴾ (لعل آيه. ٢٢)

وهى كلمة فى غاية الجمال تعنى:

بني أنا الهدد الضعيف الذى لا يكاد يكون شيئاً بحوار النبي الملك  
سليمان العظيم. قد أحطت من العلم بما لم يحط به نبي الله، وذلك أن العلم  
لا نهاية له، رُبَّ الإحاطة به مسحية، والناس يفتاسعون بعضه، يحيط بهم  
فريق بما لم يحط به الآخر، وهم جميعاً لا يحيطون إلا ببعض الضئيل:

﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ (الإسراء آيه. ٨٥).

ويستمر الهدد فى حديثه:

﴿وجئتك من سبأ نبأ يقين﴾.

﴿إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم  
وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾.

ثم أخذ الهدد يعلل استمرار هذا لعمل الصار فقال:

﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾.

وتابع الهدد حديثه مبين الصراط المستقيم:

﴿ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾.

وقال سليمان عليه السلام:

﴿سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾.

ثم كتب سليمان كتاباً وأعطاه ليهدهد قائلاً

﴿أذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون﴾

ولما وصل لكتاب إلى الملكة جمعت رؤساء مملكتها وحدثتهم قائلة:

﴿يا أيها الملأ إني ألقي إلى كتاب كريم ، إنه من سليمان، وإيه بسم

الله الرحمن الرحيم، ألا تعبوا على وأتوني مسلمين﴾.

ثم قالت:

﴿يا أيها الملأ أفتوني﴾.

لقد شورتهم فى الأمر فتبين لرأى الرشيد، ولكيلا تتحمل مسئوليته

الرأى وحدها.

إذا كنت ذا رأى فكن ذا مشورة..

وأخذت قلب الرأى معهم، فقالوا:

﴿نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا

تأمرين﴾ لقد كانوا فى طاعة تامة لها.

ومكرت في الأمر طويلاً وانتهت إلى رأى فيه حكمة وفيه عمق. وهر  
رأى ناضج، قالت:

«إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة،  
وكذلك يفعلون، وإنى مرسلة إليهم بهدية فنظرة بهم يرجع المرسلون»  
ورسّلت الهدية.

ماذا كانت الهدية؟

أنها هدية ملكة غنية خائفة، تريد أن تتحاشى كارثة تلم بها في نفسها  
ومن يدرى؟ أو تلم بعرشها فتذهب به.

وما من شك في أنها كانت عظيمة:

قل ابن عباس مائة وصيف ومائة وصيفة. قال رهب وغيره.

عمدت بلقيس إلى حمسماته علام وخمسماته جارية، فألبست الخواري  
لبس الغلمان، الأقبية والمناطق، وألست الغلمان لبس الخواري، وجعلت  
في أيديهم أساور الذهب، وفي أعناقهم أطواق الذهب، وفي آذانهم أقراط  
وشبوق مرصعات بأروع الجواهر، وحملت الخواري على حمسماته رمكة  
(أي الهرس)، ولعلمان على حمسماته بردون، على كل فرس سرح من  
لذهب مرصع بالجوهر وأعشية الديباج وبعثت إليه لبنات من الذهب،  
ولبنات من الفضة، وتأخاً مكللاً بالدر والياقوت، وأرسلت بالمسك والعنبر  
والعود واليلنحوج، وعمدت إلى حق جعلت فيه درة بقيمة ثمينه غير

مثقوبة، وحرزة حرع معوجة الثقب، ودعت رجلاً من أشراف قومها يقل  
له المذر بن عمرو وصمت إليه رجلاً من قومها أصحاب عقل ورأى،  
وكسب مع المذر كتاباً تذكر فيه الهدية، وقال:

بن كنت نبياً مير بين الوصفاء والرصائف، وأحبرنا بما في الحق قبل أن  
تفصح، واثقب الدرة ثقباً مستويًا، وأدخل في لخرره حبطاً من غير علاج  
إس ولا حن، وأمرت بلقيس العلمان فقالت:

إن كلمكم سليمان فكلموه بكلام تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء  
وأمرت الجوارى أن يكلمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال، ثم قالت  
للرسول:

انظر إلى الرجل إذا دخلت، فإن نظر إليك نظراً فيه عصب، فاعلم أنه  
ملك فلا يهولك أمره ومطره فأنا أعز منه، وإن رأيت لرجل بشاشاً لطيفاً  
فإنهم أنه يهوى فتفهم قوله ورد الجواب، فانطلق الرسول بالهدايا وأقبل  
الهدد مسرعاً إلى سليمان، فأحبره الخبر فأمر سليمان لحن أن يضربوا  
لبناً من الذهب والفضة ففعلوا، وأمرهم بعمل ميدان مقدار سعة فراسخ  
وأن يهرشوا لبن الذهب والفضة، وأن يخلوا مقدار تلك اللبانات التي معهم،  
وأن يعملوا حنطاً شرفه من الذهب والفضة، ففعلوا ثم قال:

أي دواب البر والبحر أحسن؟ فقالوا يا ببي الله ما رأينا أحسن من  
دابة من دواب البحر، يقال لها: كدا وكدا محملة ألونهاها أحنحة وأعراف  
ونواص.

قال علىّ بها الساعة : فأتوا به. قال : شدوها بين يمين الميدان وشماله،  
ثم قال للحن :

عني بأولادكم، فاجتمع منهم خلق كثير فأقامهم عن يمين اميدان وشماله  
ثم فعد سليمان في مجلسه على سريرته، ووضع له أربعة آلاف كرسي على  
يمين الميدان وعلى شماله، أمر الاس ولجن والشيّاطين والوحوش والطير  
ولسباع فاصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله، فلما دنا القوم إلى الميدان  
ونظروا إلى منك سليمان رأوا أول لأمر الدواب التي لا يرى مثلها تروث  
في لبسات الذهب والفضة، فيها رأوا ذلك تقاصرت أنفسهم وحبأوا ما معهم  
من الهدايا، وقيل إن سليمان فرش الميدان بلبسات الذهب والفضة، وترك  
على طريقهم موضعاً على قدر ما معهم من ذلك الموضع، فلما رأى الرسل  
موضع اللبسات حاليّاً حافوا أن يتهموا بذلك فوضعوا ما معهم من اللين في  
ذلك الموضع، ولما رأوا الشياطين هالهم ما رأوا وفزعوا فقالت لهم  
الشياطين: حوزوا لا بأس عليكم، فكابو يرون على كراديس (جماعات)  
لإس ولجن والوحش والطير حتى وقفوا بين يدي سليمان، فأقبل عليهم  
بوجه طلق، وتلقاهم تقيّاً حسّاً، وسألهم عن حاجهم فأخبره رئيس القوم بـ  
جاءوا فيه، وأعطوه كتاب الملكة فنظر فيه، وقال: أين الحق؟ فأنى به  
وحركه، فحماه جبرين فأخبره بما فيه فقال لهم: إن فيه درة ثمينة غير  
مشقوبة، وخررة معوكة الثقب، فقال رسول الملكة: صدقت.

فتقب الدرة، وأدخل الحيط في الحرة، فقال سليمان:



من لى بثقبها؟ وسأل الإنس والجن ولم يكن عندهم علم، ثم سأل  
الشياطين فقالوا:

نرسل إلى الأرضة، فلما جاءت الأرضة أخذت شعرة فى فيها ودخلت  
فيها حتى خرجت من الجانب الآخر.

فقال لها سليمان: ما حاجتك؟

قالت: تُصير رزقى فى الشجر.

فقال: لك ذلك.

ثم قال: من لى بهنـه الخرزة؟

فقالت دودة بيضاء: أنا ها يا نبي الله، فأخذت الدودة الخيط فى فيها،  
ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر.

فقال لها سليمان ما حاجتك؟

قالت: يكون رزقى فى الفواكه.

قال: لك ذلك.

ثم ميز بين الغلمان والحوارى، بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم،  
فجعلت الجارية تأخذ الماء بيدها وتضرب بها الأخرى، وتغسل وجهها،  
والغلام يأخذ بيديه ويغسل وجهه، وكذب الجارية بصب الماء على باطن  
ساعدتها والعلام على ظاهره، فميز بين الغلمان والحوارى» هـ.  
ووصلت الهدية إلى سليمان. فقال:

﴿أَتَمِدُونَن بِمَالٍ؟ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرَ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِمَهْدِيَّتِكُمْ  
تَفْرَحُونَ﴾ (النمل آية: ٣٦)

وَأُحِبُّ سُلَيْمَانَ أَنْ يَرِدَ الْهَدِيَّةُ فِي صُورَةِ صَاحِبَةٍ مَرْعِيَّةٍ حَتَّى يَكُونَ لِلْجَوْ  
لَدَى رَدِّ فِيهِ هَدِيَّةٌ أَثَرُهُ لَفَعْلٌ فَتَكُونُ سَمِيحَةً كَمَا أَرَادَهَا؛

﴿أَلَا تَعْلَمُوا عَلَى وَاتَرِنِي مُسْلِمِينَ﴾.

رَقَالَ سُلَيْمَانُ مِنْ هَذَا الْمَطْلُوقِ:

﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنُتَيْنَهُمْ بِحَنُودٍ لَا قَمَلُ لَهَا، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذْلَةً  
وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (النمل آية: ٣٧)

وَلَمْ يَشْكُ سُلَيْمَانُ فِي أَهْمٍ - بَلْقَيْسُ وَالْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهَا - سَيَّانُونَ مُسْلِمِينَ.

وَلَعَلَّ سُلَيْمَانَ عَرَضَ حَبْشَهُ عَلَى رَسُلِ الْمَلِكَةِ وَأَرَاهُمْ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ قُوَّةٍ  
وَبَأْسٍ أَرَاهُمْ الْحَبْشَ فِي الْحَرِّ وَالْإِسْ وَلَطِيرٍ، وَأَفْرَعٍ أَرْسَلَ هَذَا  
الْعَرَضَ، فَرَحِمُوا فِي مَرَعٍ وَفِي رَجْفَةٍ وَتَحَدَّثُوا عَمَّا رَأَوْا مِنْ مَلِكٍ فَخْمٍ شَامِخٍ

وَهَا هُوَ ذَا سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَجْلِسُ بَيْنَ أَصْفَائِهِ ذَاتِ يَوْمٍ، وَتَتَحَدَّثُ  
مَعَهُمْ عَنْ مَلِكَةٍ سَيِّئَةٍ وَعَنْ عِبَادَتِهَا لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَعَنْ رَدِّهِ لِلْهَدِيَّةِ  
الَّتِي أَرْسَلَهَا إِلَيْهِ مَلِكَةُ سَيِّئَةٍ تَرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ يَعْصِيَ الطَّرَفُ عَنْهَا وَعَنْ زَيْفِهَا  
وَضَلَالِهَا، قَائِلًا حِينَ رَدَّهَا:

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيَكُمُ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

فرد عليه عفريت من الجن قائلاً:

﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وإني عليه لقوى أمين﴾.

وأجاب شخص آخر يتحدث عنه القرآن الكريم على الوضع لتأني:

﴿قال الذي عنده علم من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك

طرفك﴾.

ونجد الذي عنده علم من الكتاب ما قال، وجاء بالعرش في لمح البصر

فلما رأى سليمان العرش مستقراً عنده قال:

﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر؟ ومن شكر فإنما يشكر

لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾.

والقرآن يعرّفنا هذه لفظة أن العلم يفعل الأعاجيب، وأنه يفعل

ما لا تفعله الحس، وأن مقدرة العالم تصل إلى ما م يصل إليه مقدرة

عفريت من الجن، وأنه بالعلم تطوى الأرض، وتزول المسافات، وتتحقق

المعجزات.

والقرآن الكريم حينما يقول:

﴿الذي عنده علم من الكتاب﴾.

فيه من الواضح أنه لا يقصد العلم الوهبي وإنما العلم الكسبي، إنه

علم من «الكتاب»، إنه ليس بوحى.

وهذا يجمعنا نتساءل:

إلام بلغت الحضارة في عهد سليمان؟

إن لاتين بالعرش ليس معجزة، والحو القرائى لا يشير إلى معجزة. ولو كان الأمر أمر معجزة كان سليمان أولى بها، إنه هو النبی الرسول. إنها إذن ثمرة علم من «الكتاب» وكل ما كان ثمرة من الكتاب فهو كسبى، إنه حضرة بكل ما تتطلبه الحضارة من جهد في الملاحظة والتحرية والاستقراء، وبكل ما تتطلبه الحضارة من تعمق في الأسرار والظواهر والتصرف في قوانين الكون باستخدام قوانين أخرى للتعبير والتعديل، والتعديل والإلغاء أو استقوية

والقرآن الكريم يعلمنا بهذه القصة، فبالعلم - كما قلنا - تطوى الأرض، وتزول المسافات، أو يزول الزمن الذى يتطلبه - في نظرة الجاهلين - قطع المسافات والأمكنة

كم من الزمن يستغرقه الآن انتقال الصوت عبر آلاف الأميال التى تفصل بين قطر وفطر حينما يتحدث الإنسان فى التليفون أو فى الإذاعة؟

والصور عبر الأمكنة حينما يستخدم الإنسان التليفزيون؟

ومهما يكن من شىء فإن مرده الجهن تعجز عما يستطيعه الإنسان بالعلم.

وبلع سليمان أن بلقيس فى الطريق، وأحب سليمان أن لا تنكأ الملكة أو يتلکأ ملوھا فى الإیمان فأرد أن يفاجئها بأمر خارقة فأمر:

﴿نكروا لها عرشها﴾.

أى غيروا شئاً من زينته وما حلّى به من حواهر.  
لماذا:

﴿تنظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون﴾.  
وهو اختيار لفطنتها وذكاها.

وأراها سيمان العرش وقال لها:  
﴿أهكذا عرشك﴾.

ف قالت متحفظة فطنة ذكية:  
﴿كأنه هو﴾.

ويقول سليمان عن نفسه وفومه:  
﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾.

أما هي فقد ألقت لكفر وشأت فيه ولم تفكر فيما ألفته  
﴿وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كنت من قوم كافرين﴾  
لقد منعها ما منع العرب الدين قالوا:

﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾.  
ويصدق عليها ما صدق عليهم حسبا قال لقران الكريم ساحراً من  
عقليهم.

﴿أُولَئِكَ كَانُوا فِي أَعْيُنِنَا فَلَمْ يَصْعَقُوا لَأَنَّ لَهُمْ بَأْسًا زَهِيدًا﴾

وله يكتف سليمان بذلك : فقد أمر أن يبنى لها صرح - أرضه من زحاح  
يجرى من تحمها اداء وفيه سحك وحيوانات تسير تحت الزحاج وتظهر  
صورتها منه :

وقيل لها دخلى الصرح (أى القصر).

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا﴾

لقد كان من الإتيان فى لصع بحيث حسبت لجة.

﴿إِنَّهُ صَرَحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾

وأتت المقاحاة ثمرتها فقالت :

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْنَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

لقد آتى الله سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وسخر له الجحش،  
وسخر له الريح تجرى بأمره رحاء حيث أصاب، وسخر له الريح عاصفه  
تدمر ما يشاء . ففطن سليمان فى هذا الخلق مسيطراً على الجن والإس  
والطير ثم . جاء ملك الموت وقبض روحه.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾

وكان موت سليمان عبرة، فإنه انكأ على عصاه ومات متكئاً، ومكث

كذلك ما شاء الله أن يمكث والجن لا تعلم موته، ولكن السوس أخذ ينخر في عصاه فتكسرت فخراً، فظهر للجن موته وكانوا لا يعلمون.

قال أصبغ بن الفرج، وعبد الله بن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم:

قال: قال سليمان ملك الموت:

«إذا أمرت بي فأعلمي، فأباه فقال: يا سليمان قد أمرت بك، قد بقيت لك سويعة»

فدعا الشياطين فبوا عليه صرخاً من قوارير ليس له باب، فقام يصلي فتكأ على عصاه قال:

فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه، وم يصنع ذلك قرأراً من ملك الموت. قال: والجن تعمل بين يديه ويطرون إليه يحسبون أنه حي.

قال: فبعث الله دابة الأرض بعني إلى منسأه فأكلتها حتى إذا أكلت حوف العصا ضعفت وثقل عليها فخراً، فلما رأت الجن ذلك نفضو ودهبوا. قال: فذلك قوله.

﴿ما دهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأه، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾.

قال أصبغ: ويبغى عن غيره أنها مكنت سنة تأكل من منسأته حتى خُرَّ.  
وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم والله تعالى أعلم  
هـ.



## زكريا

### عليه السلام

روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«كان زكريا نجاراً».

لقد كن يأكل من عمل يده، كن يتطلب الحلال الصافي ويتحرّاه وكن يعمل بيده.

ولقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم داود عليه السلام في معرض المدح قائلاً:

«ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يديه، وأن نبي الله داود صلى الله عليه وسلم، كان يأكل من عمل يده» (رواه البخارى عن أبي هريرة).

وليس المراد حتماً حرفة يدوية، وإنما المراد الجهد الإنسانى فى العمل.

ولأكل الحلال مدحه الله تعالى في لقرآن الكريم، ومدحه رسول الله  
صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الشريفة  
يقول الله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُورَاتِ  
الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة آية: ١٦٨)  
ويقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ  
كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة آية: ١٧٢).  
وقال سبحانه:

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ  
مُؤْمِنُونَ﴾. (المائدة آية: ٨٨).  
ويقول تعالى:

﴿فَكُونُوا مِمَّا غَنَمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا، وَتَقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.  
(الأنعام آية ٦٩)  
وقال جل شأنه:

﴿فَكُونُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ  
تَعْبُدُونَ﴾. (النحل آية: ١١٤).

ومن أسس القربى إلى الله، ومن قواعد استجابة الدعاء وهو على  
العموم من أجواء الصالحين.

وقد كان زكريا من الصالحين، يقول تعالى:  
﴿وذكرنا يحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين﴾ (الأنعام آية  
٨٥).

وقد عاش فترة طويلة من حياته لا يسجب أولاداً، وكان يحب أن يكون  
له ولد يرثه في أسوة

وكن من تصاريف القدر أنه هو الذي كفل مريم لتوليه فكان كلما  
دخل عليها المحرب وجد عنده رزقاً، فيسألها قائلاً:  
يا مريم أي لك هذا؟

فتقول: هو من عند الله.

ثم تصيف ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

إنه سبحانه يرزق من يشاء رزقاً مادياً، ويرزق من يشاء رزقاً معنوياً،  
ويرزق من يشاء ما يشاء ويقدر، ويصف الإنسان بالتقدير

﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لامسكم خشيعة الإنفاق  
وكان الإنسان قتوراً﴾. (الاسراء آية: ١٠٠).

وقد بين الله سبحانه مفاتيح الرزق فكان منها المضرب في الأرض وكان منها العمل، وكان منها الدعاء.

﴿هالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء، فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحسباً ونبياً من الصالحين﴾  
(آل عمران آية: ٣٨-٣٩)

أما استحابة الدعاء هذه، فإن الله سبحانه وعالي قال عنها وعن سرها: ﴿وركب إذ نادى ربه رب لا بذرنى فرداً، وأنت خير الوارثين، فاستجبا له ووهبت له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾. (الأنبياء آية: ٨٩ - ٩٠)

أرأيت من يسارع في الخيرات ويدعو الله والمشعور يغمره بالرجب والرهب، وهو يد أمسى كان خاشعاً لله، وإذا أصبح كان خاشعاً لله، أرأيت إلى مثل هذا يردده الله خائباً إذا دعا؟

حاشا لله وهو السميع للعناء المحب لمن حقق شروط لعبودية، يقول الله سبحانه في حديث قدسي عن سر استحابة الدعاء:

«من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالمواعيل حتى أحبه، فإذا

أحبته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره لدى يبصر به، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها، وإن سألتى أعطته، ولئن استعادتى لأعيدنه» (رواه البخارى).

ولا يتأتى أن يعادى إنسان الله فتكون هذه لعداوة سبباً فى استحابة الدعاء. اللهم إلا إذا كان دعاء خالصاً بالتوبة والإنابة مستعياً بالله على قبول التوبة الصريح

لقد استجاب الله دعاء ركريا وندته الملائكة مبشرة له بيجيى وفرح زكريا فرحة غامرة وكان فى سعادة، وأخذ يسأل لبطمئن قلبه وليستريد من سعادة وصوح الرؤية:

﴿قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقراً، قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾. (آل عمران ٤)

وعاد زكريا يسأل

﴿قل . رب اجعل لى آية، قل آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً، واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكر﴾. (آل عمران ٤١).  
ويقص الله سبحانه أمر زكريا مرة أخرى فى أول سورة مريم فيقول سبحانه:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿كهيعص﴾ ذكر رحمة ربك عبده زكريا، إذ نادى ربه نداء خفياً، قال . رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس

شيئاً ولم أكن بدعائك رب شعيماً، وفي خفت الموالى من ورائى وكانت  
 امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً، يرثى ويرث من آل يعقوب،  
 واجعله رب وصياً، يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له  
 من قبل سمياً، قل . رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد  
 بلغت من الكبر عتياً، قال : كذلك، قال ربك هو على هين وقد خلقتك  
 من قبل ولم تك شيئاً، قال : رب اجعل لى آية؟ قال آيتك ألا تكلم  
 الناس ثلاث ليال سوياً، فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن  
 سبحوا بكرة وعشيماً، يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيه الحكيم صبياً،  
 وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً، وبراً بوالديه ولم يكن جبراً عصياً،  
 وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴿١٥ - ١﴾. (مريم . ١ - ١٥).

## يحيى عليه السلام

نادت الملائكة زكريا:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِيَحْيَى﴾.

وتسميته بهذا الاسم لأنه هـى من الله سبحانه

أما صفاته فإن الله سبحانه وتعالى يقول عنها:

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا، وَحَنَانًا مِّنَ لَّدُنَّا  
وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا، وَبَرًّا بِوَالَدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبْرًا عَصِيًّا، وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ  
وُلْدٍ، وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

ويقول سبحانه:

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

ونقول الملائكة عن يحيى:

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾

ويقول الإمام ابن كثير:

عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك.

﴿وحناناً من لنا﴾ أى رحمة من عندنا رحمتها زكريا هوهبنا له هذا الولد.

وعن عكرمة: ﴿وحناناً﴾. أى محبة عبيه، ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنن يحيى على الناس ولا سيما على أبيه، وهو محبتها والشفقة عليهما وبره بهما.

أما الركاة فهي طهارة الخلق وسلامته من النقائص والردائل، والتقوى طاعة لله بامتثال أوامره وترك زواجره.

ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لهما أمراً ونهيًا، وترك عقوقها قولاً وفعلًا فقال:

﴿وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً﴾.

ثم قال: ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا﴾.

هذه الأوقات لثلاثة أشد ما تكون على الإنسان ، فإنه ينتقل في كل منها من عام إلى عام آخر، فيفقد الأمل بعد ما كان أمله وعرفه ويصبر إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه، ولهذا يستهل صارحاً إذا خرج من بين الأحشاء وفارق ليها وصمها، ويستقل إلى هذه الدار ليكايد همومها وغمها.



وكذلك إذا فارق هذه لدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار وصار بعد الدور ولقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والشور، فمن مسرور، ومحبور، ومن محزون ومثبور، وما بين جبير وكسير، وفريق في لجة وفريق في السعير، ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول:

ولدتك أمك باكياً مستصرخاً      والناس حولك يصحكون سروراً،  
فاحرص لنفسك أن تكون إذا بكو      في يوم موتك ضاحكاً مسروراً  
ولما كانت هذه المواضع الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم سلم الله  
على يحيى في كل موطن منها فقال:

﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾.

وقال سعيد ابن أبي عروبة، عن قتادة أن الحسن قال: إن يحيى وعيسى التقياء، فقال له عيسى: استعمر لي أمت حير مني، سلمت على نفسي وسلم الله عليك، فعرف واقه فضلهما.

وأما قوله في الآية الأخرى

﴿وسيداً وحصوراً ونبيّاً من الصالحين﴾.

فمیل المراد بالحصور الذي لا يأبى النساء وقيل غير ذلك، وهو أشبه بقوله:

﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

وتكاد دعوة يحيى تتلخص في الآتي:

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، أنبأنا أبو خلف موسى بن خلفه وكان يعد من الهدلاء حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن ريد عن سلام، عن حده موطور، عن الحارث الأشعري، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«إن الله أمر يحيى بن زكريا بحمى كليت أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإذا أن تبغهن، وبما أن أبلغهن». فقال:

يا أحيى إني أحشى إن سبقتني أن أعبد أو يحسف بي

قال: فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى أملا المسجد، ففقد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

إن الله عز وجل أمرني بخمس كمات أن أعمل بهن، وأمركم أن تعملوا بهن، وأولاهن، أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله يورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدى غسه إلى غير سيده، فأياكم يسره أن يكون عبده كذلك!! وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

وأمركم بالصلاة فإن الله يصب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا.

وأمركم بالصلاة فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك، وإن حلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وأمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدها بده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه، فقال:

هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فحصل بفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه.

وأمركم بذكر الله عز وجل كثيراً، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه، وإن العبد أحسن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل.

## عيسى

### عليه السلام

جلست السيدة حنة، وعلى وجهها سمات الاهتمام والحزن، ونظراتها  
معلقة بطائر يحبو على فرخه ويطعمه. وأخذ خيالها يسرح، يسرح عبر هذه  
السين التي تقضت من عمرها الذي لم تتخلله البهجة بالأولاد يسرحون  
ويعرجون ويملاون لبيت حنًا، وضجيجًا حبيبًا، ومودة وفرحة

إياها حياة جديد، تلك التي لم تملأ جيباتها البهجة بالأولاد.

على هذا النسق كان يدور خيالها، وعيها ممتدتان إلى اطائر يطعم  
فرخه في حنان ومداعبة.

استمر خيالها سير مع هواها، واستمر شعورها بالرغبة في الولد يقوى  
ويتركز، وإذا بها فجأة تسيل دموعها، وتتجه إلى الله ضارعة في حرارة  
داعية في شوق ولهفة، أن يهب لها ولدًا، وقالت:

«اللهم لك على إن رزقتني ولدًا أن أتصدق به على بيت المقدس».

يقول ابن اسحاق:

«كان السبب في نذرها أنه أمسك عنها الولد حتى أسنت».

واستجاب الله دعائها، فلما شعرت بالحمل، اتجهت إلى الله في شكر وفي عرفان، تؤكد من جديد نذرها، ويعبر القرآن عن ذلك بقوله:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا، فَتَقَبَّلْ مِنِّي، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

وعمران الذي ذكرته الآية الكريمة؟ ليس بعمران أبي موسى، وبين موسى وعيسى، بون شاسع من الزمن.

لما قولها في الآية لكريمة ﴿مُحَرَّرًا﴾ معناه «معتق» وهي تقصد بذلك أنه معتق من أن يكون عبداً للدنيا ليعبدك وحدك.

يقول الزجاج:

كان على أولادهم فرضاً أن يطيعوهم في نذرهم، فكان الرجل يندر في ولده أن يكون خادماً في متعبدتهم<sup>(١)</sup>.

لقد سعدت السيدة حنه بهذا الحمل فهي تمكر في الجنين في سعادة، إنها

---

(١) يقول القاصي أبو يعلى، واندر في مثل ما نذر، صحيح في شريعته، فإنه إذا نذر الإنسان أن ينشئ ولده الصغير على عبادة الله وطاعته، وإن يطمه القرآن، وألفقه وعموم الدين: صح السر

تفكر في صورته وتفكر في تشبثه، وتفكر في تربيته وثقافته كما تفكر في  
بسماته، وفي مذاعبته، وما كان خياها يسرح مطلقاً في جو هذا الحين على  
أنه أنثى، وإنما كان يسرح باستمرار في وحوه على أنه ذكر، هاهو ذا  
قد أصبح شأناً ذكياً، فتياً يأخذ مكانه بين فقهاء المعبد وسدنته، بين  
المسيرين لدفة الأمور الدنيوية والموجهين لها، ثم هاهو ذا حر من كبار  
الأخبار له الكلمة المسموعة.. و.. و..

وحاء أوام الوضع، وهوجئت السيدة حنة، مفاحاة لم تكن متوقعة.  
لقد كان المولود أنثى

ارتبكت السيدة حنة لحظة من الزمن، وفكرت في ندرها، وفكرت في  
المقادير، وفي سرعة اتجهت إلى الله تعالى وكأها تعتذر أو تستغفر قائلة:  
﴿رب إني وضعتها أنثى، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر  
كالأنثى، وإني سميتها مريم، وإني أعيذ بك وذريتها من الشيطان  
الرجيم﴾ (آل عمران آية: ٣٦).

أما مريم هذه التي محرض المفسرون على بيان أنها ليست مريم أخت  
موسى، فإن الله سبحانه أصفى عليها عنايته وشملها برعايته، وعبّر  
سبحانه عن ذلك فيقول:

﴿فتقبلها ربها بقبول حسن، وأنبأها نبأاً حسناً﴾ (آل عمران آية:

(٣٧)

أما من ناحية كفالتها فقد تولى ذلك زكريا، وكان لذلك قصة.  
قال السدي:

«نطلقت بها أمها في خرقها، وكانوا يقتربون على الذين يؤتونهم  
فقال زكريا وهو نبيهم يومئذ:

أنا أحقكم بها، عندي أختها، فأبوا، وخرجوا إلى نهر الأردن، فألقوا  
أقلامهم التي يكتبون بها، فجرت الأقلام، وثبت قلم زكريا، فكفلها.

قال ابن عباس:

كانوا سبعة وعشرين رجلا، فقالوا: نطرح أقلامنا، فمن صعد قلمه  
مغلبا للجريفة فهو أحق بها، فصعد قلم زكريا، فعلى هذا القلم كانت علبة  
زكريا بمساعدة قلمه.

وعلى قول السدي: بوقوفه في جريان الماء.

وقال مقاتل:

كان يعلق عليها الباب، ومعه المفتاح، لا يأمن عليه أحدا، وكانت إذا  
حاضت، أخرجها إلى منزله تكون مع أختها أم يحيى، فإذا طهرت ردها إلى  
بيت المقدس.

والأكثر على أنه كفلها منذ كانت طفلة بالقرعة.

وأخذت الطفلة تشب وتترعرع في كفالة زكريا.

فلما بلغت اسن التي تستطیع فیها الخدمة، أخذت بتوحيه ركريا عليه السلام تحمل في المعبد نوقية لنذر أمها، وتتعبده هيد، إنها عاملة عابدة. واتخذت مريم عليها السلام محراباً، فال الأصمعي: والمحارب هاهنا: العرفة. والمحارب في اللغة الموقع العالي الشريف كما يقول الزحاج اتحدت مريم عليها السلام محراباً تعتكف فيه منعبدة مهجدة وكان ركريا عليه السلام، يدخل عليها من آن لأحر محرابها، رعاية ها، وعناية بها وتعهداً لاحتولها، فكان - على دهشة منه يجد عندها رزقاً ويعبر القرآن عن ذلك فيقول:

﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال: يا مريم: أنى لك هذا؟﴾

قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب<sup>(١)</sup>.

(١) يقول صاحب بحار الأنوار في الآية دليل على وقوع الكرامة لأولياء الله تعالى، كما وجد عند حبيب بن عدى الأنصاري رضي الله عنه استشهد بحكة قطف عيب كما في البحارى، وفي الكتاب والسنة لهذا مظاهر كثيرة ومن اللطائف هنا ما نقله الإمام الشعراى في (لبوءهيب) عن العارز باقة أبي الحسن الشاذلي قدس سره أنه قال: يا مريم عليها السلام، كان يتعرف إليها في بدايتها بحرق الدعوات بغير سبب تقويه لإيمانها وبكلمات ليقينها، فكانت كلما دخل عندها ركريا المحراب وجد عندها رزقاً فمن هو الذي يعطيها رزقاً دون إلى السبب لعدم معرفتها معه، فعيل ها وهزى إليك يجدها لحظة ساقط عليك رطباً جيا

أما عن قصة حبيب وقطف العيب فقد رواها الإمام البحارى في حديث صحيح جليل عن=



=أن هزيمة رضى الله عنه قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رهط سرية عيب وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى، حد عاصم بن عمر بن الخطاب فاطلقوا حتى إذا كانوا بأعداء وهو بين عسقلان ومكة ذكر والحى من هربل يعدل هم بنو لحبان فعبروا لهم هربنا من مائى رجل كلهم رام فاقصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم غراً ترودوه من المدينة فعدوا هذا غر شرب فاقصوا آثارهم فلما رآهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى قدد وأحاط بهم القوم فعادوا هم أنزلوا وأعطونا بأيديكم وبكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم أحداً، فقال عاصم بن ثابت أمر السرية أما أنا فوالله لا أنزل اليوم في دمة كافر، اللهم أحرر عما بينك ورموهم بالليل فقتلوا عاصماً في سبعة، فرل، ليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق منهم خبيب الأنصارى وابن دثنة، ورجل آخر، فلما استمكنو منهم أطلقوا أوتار قسيهم فاونقوهم فقال الرجل ثالث هذا أول العذر، والله لا أصحابكم في هؤلاء لأسوء يريد القتل فجردوه وعالجوه على أن يصحبهم فأبى فقتلوه.

فاطلقوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما عكة بعد موقعة بدر فابناح خبيبا بنو الحارث ابن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خبيب هو الذى قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيراً فأخبرني عبيد الله بن عياض، أن بت الحارث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستجد بها فاعارته فأحد بها لي وأنا غافلة حين أتاه قالت فوجده يجلس على فخذ والموسى بيده فرعت فرعة عرفها خبيب في وجهي فقال تخشين أن أفضله، ما كنت لأفعل ذلك، والله ما رأيت سيرا قط حيرا من خبيب والله لقد وجدت يوماً يأكل من قطف عنب في يده وأنه لموثق في الحديد وما بمكة من ثمر، وكانت تقول أنه لورق من الله، رزقه خبيبا فما خرجوا من الحرم يفتنوا في الحال، قال لهم خبيب: درون أركع ركعتين، فركعوا ركعتين، ثم قال لولا أن تظنوا أن ما في جزع نطولتها اللهم أحصهم عدداً،

صأبال حين أقتل مسلماً على أى شق كان لله مصرعى وذلك في ذات الإله وأن يشأ يبارك على وصال شلو عمرع فقتله ابن الحارث فكان خبيب هو الذى سى الركعتين لكل امرئ مسلم، قتل صيرل فاستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أصيب، فأخبر نبى صلى الله عليه وسلم أصحابه خبرهم=

وتزكت مريم عليها السلام بالعبادة، وصفت نفسها، ورق شعورها، فأصبحت من الصفاء بحيث ترى الملائكة.

ورؤية الملائكة ومخاطبتهم أمر أقره القرآن الكريم، إن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا: تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا، وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ، نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾ (فصل آية: ٣٠-٣٢).

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرى الملائكة، ويتحدث معهم، ولا يراهم من بجواره.

والإمام لفرالى عن تجربة يقول:

«إن السالكين في ابتداء الطريق حينما تصفو نفوسهم، وتزكى يرون الملائكة».

وتركت مريم، وبدأت ترى الملائكة، وبدأت الملائكة تتحدث إليها،

---

«وما أصبر، وبعت ناس من كبار مريش إلى عاصم حين حدثوا أنه قتل ليؤتوا بشيء منه يعرف وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر فبعث على شيئا «فتح لبارى يشرح» صحيح الإمام البخارى ج ٦ ص ١٢٤، ١٢٥.»

وتسدى إليها النصيحة وتوجهها إلى طريق الحق، وطريق الطاعة يقول سبحانه:

﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ (آل عمران آية: ٤٢).

قال ابن عباس والحسن وابن جريج:

اصطفاها على عالمي زمانها. قال ابن الأنباري:

وهذا قول الأكثرين:

وبعد أن أثبت عليها الملائكة هذا الثناء الجميل، قالت:

﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ (آل عمران آية: ٤٣).

ثم يقول سبحانه وتعالى لنبيه وحبيبه وصفيه ومصطفاه:

﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم، وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ (آل عمران آية: ٤٤).

وتعود الملائكة إلى مريم تتحدث إليها، ولم تكن في هذه المرة موجهة أو أمرة، وإنما تزف إليها بشرى مدهلة:

﴿يا مريم، إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾ (آل عمران آية: ٤٥).

يقول صاحب زاد المسير:

«وفي المراد بالكلمة ها هنا ثلاثة أقوال»

أحدها: إنه قول الله له: «كن» فكان، قاله ابن عباس، وقتادة.

الثاني: أنها بشارة الملائكة لعيسى. حكاه أبو سليمان

ولثالث: أن الكلمة اسم لعيسى، وسمى كلمة، لأنه كان عن الكلمة.

وقال القاضي أبو يعلى:

لأنه يهتدى به، كما يهتدى بالكلمة من الله تعالى.

ثم تحدثت الملائكة إلى مريم عن صفة هذا الذى بشرتها به فقالت عنه:

﴿وجيئها في الدين والآخره ومن المقربين، ويكلم الناس في المهد  
وكهلاً ومن الصالحين﴾ (آل عمران آية: ٤٥، ٤٦).

فوحشت مريم بذلك، فقالت في تعجب واستفهام

﴿رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر﴾؟

وكانت إحايه حيرىل عليه السلام لها حاسمة، واضحه.

﴿قال: كذلك الله يخلق م يشاء، إدا قضى أمراً فإنما يقول له كن  
فيكون﴾.

واستعرب الملائكة فى ذكر بركات الله عليه فقالت:

﴿ويعلم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ورسولاً إلى بني إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فأفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرئى الأكمه والأبرص، وأحىى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وماتدخرون فى بيوتكم، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين. ومصدقاً لما بين يدى من التوراة، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم، فاتقوا الله وأطيعون، إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ (ال عمران آية: ٤٨-٥١).

وإذا تأملنا قليلاً فى النص الإلهى وحدها أن عيسى عليه السلام يقول: إنه يفعل ما يفعل بإذن الله، ومعنى ذلك أنه ليس له من نفسه لقدرة على الخلق، أو الإبرء، وإنما ذلك كله «بإذن الله» ويقول:

إنه رسول بنى إسرائيل.

وأنه مصدق لما بين يديه من التوراة  
ويختتم بقوله:

﴿إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾.

ونعود إلى مريم، عليها السلام من جديد.

لقد كما مع مريم، وعيسى، عليها السلام، من خلال سورة آل عمران

والآن نصاحبها من خلال سورة مريم التي ذكرت بعض تفاصيل لم تكن فيها مضي:

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً. قالت: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً، قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً. قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة ماً وكان أمراً مقضياً. فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً. فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً. فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريباً. وهزى إليك به جذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً. فكلى واشربى وقرى عينا فإما ترين من البشر أحداً فقولى إني نذرت لرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً. فأنت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا. يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً. فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً. قال إني عبد الله اتنى الكتاب وجعلنى نبياً. وجعلنى مباركا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً. وبرا بوالدى ولم يجعلنى جبارا شقياً. والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً، ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه

يمتثلون. ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإن يقول له كن فيكون. وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴿ (سورة مريم آية: ١٦-٣٦).

أرأيت إلى هذا التكريم الذي أحاط بالإسلام به مريم عليها السلام، وعيسى عليه السلام؟

في التكريم السامي الذي نزل الله فيه المصطفين من عباده المقربين.

وبينا يفترى اليهود على مريم افتراء تزعم أنها الله عنه، وبينا يرميها قلة الأنبياء بالفاحشة، ويتهمونها بالزنا، إذ بالقرآن، وبالجو الإسلامي كله، قدسية وحديثه، يعتبرها قدسية صديقة.

وبينا يمكر اليهود على عيسى، عليه السلام، نبوته، ويرمون به بالكذب إذ بالإسلام يعترف بنبوته، وبأنه عبد الله ورسوله، وبأنه مبارك، وبأنه وحيه في الدنيا والآخرة.

وبينا ينكر بعض مؤرعي الأديان، مجرد وجود المسيح عليه السلام إذ لم تثبت لديهم الأدلة لتاريخه على وجوده، وعللوا لمسيح والمسيحية، بأنهما من اختراع القديس بولس، وأن المسيح ليس إلا سطورة لم يقع لها وجود إلا في خيال القديس بولس، إذ بالإسلام يوجب على أتباعه، وحباً

حتمياً، الإيمان بعيسى عليه السلام، نبياً، ورسولاً، ومباركاً، وروحياً في  
لدينا والآخرة.

إنه جزء من إيماننا نحن المسلمين: نبي، معصوم، مبرأ من المعصية، وأمه  
صديقة، اصطفاها الله وطهرها واصطفها على نساء العالمين في رمتها  
وبحمل القول في أمر السيد المسيح عليه السلام هو ما يفوله القرآن  
لكريم:

﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت... من مشهد يوم عظيم﴾

من هذا الأساس نطلق وسير في هذا الكتاب، سير بحسب واقع  
بالمعل: أي بنا تصور واقعاً لا نخترعه، ونكتب عن حقائق لم بتدعها  
ونخط صفحات ناشئة عما حدث بالفعل، والله نرجو أن يهدي لها، وأن  
يهدى بها، وأن يفتح لها قلوباً، يرشد بها عقولاً، ويجعلها في مبران حسانتها،  
إنه سميع قريب مجيب.



## النهاية

إن الإنسان دائماً مولع بالغيب، ويرجو معرفته.  
إنه يسأل عن الماضي البعيد، عن أول الخلق، وعما قبل الخلق، وعن  
الزمن ومتى بدأ، وعن الكون وكيف تكوّن؟  
ويسأل عن المستقبل البعيد، عن المصير والعاية.  
إلى أين يسير هذا العالم، وما هي النهاية التي نحن داهيون إليها؟  
ماذا بعد الموت؟ كيف ينتهي الكون؟  
ومن أجل هذا الواقع بالغيب تكوّنت الفلسفة، ومن أجل ذلك يقال  
دائماً إن الفلسفة في شطرها الأكبر إنما هي محاولة الإجابة على:  
من أين؟ وإلى أين؟

أى الإجابة على سؤال عن المبدأ، وسؤال عن المصير.  
ولا تزال الفلسفة منذ العهد اليوناني إلى الآن تحاول لإجابته على

من أين؟ وإلى أين؟

ولا يزال الناس كذلك يريدون تعمقاً أكثر، واستقصاءً عمق.

وقد تحدثت الأديان عن المبدأ والمعاد في إجمال يتناسب مع الفائدة العامة باسبغة لبى البشر، وفي عموم نقصيه الحكمة الإلهية.

لقد تحدثت الأديان عن المبدأ للعلم والمعرفة، وبيان قدرة الله وعظمته، ومحدثت عن المعاد للعلم والمعرفة، وللإنذار والنبشير.

وكما كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن المبدأ، فإنهم كانوا يسألونه عن المعاد أيضاً.

وقد سبق أن بينا صورة محمله لرأى الدين في المبدأ، وتذكر الآن، في حلقات متتالية صورة بحملة لرأى الدين في: إلى أين؟

كان الصحابة يسألون عن مرعد نهاية العالم، لقد كانوا يريدون محدداً محدداً، وتاريخاً يقينياً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيبهم على ذلك إجابة تناسب مع مصلحة السائل، ومع المصلحة العامة، وهى مع ذلك لا تتجافى الحق، ولا تتنافى مع الصديق.

لقد سأله مرة رجل فقال يا رسول الله، متى الساعة؟

وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبين له أن من الخير أن لا يشعل نفسه بالموعد، وإنما يشعل نفسه بالإعداد للساعة، أى بالعمل

الصالح الذي ينفعه عند قيام الساعة، فقال له: ماذا أعددت لها؟  
فقال الرجل: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله  
ورسوله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المرء مع من أحب.  
وفرح الصحابة رضوان الله عليهم بهذه الكلمة من رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فرحاً كبيراً، حتى لقد قال أسر رضى الله عنه:  
فما رأيت المسلمين فرحو بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك.  
وما من شك في أن الإنسان إذا أحب في إحلاص الله ورسوله فإنه  
يعمل جاهداً في مرضاتها، ومرضاتها إنما تكون في اتباع الوحي والاقتداء  
برسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا فعل الإنسان ذلك كان مع النبيين  
والصديقين، ولشهداء الصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.  
وارواح العامة للدين الإسلامي هي أن علم الساعة إنما هو عند الله  
تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ،  
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.  
وقد وجه الله سبحانه وتعالى الأذهان إلى الطريق الأمثل، فقال  
سبحانه:

﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها، فمى أنت من ذكرها، إلى ربك منتهاها، إنما أنت منذر من يخشاها، كأنهم يوم يرونها، لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾.

وفىما رواه ابن أبى شىبة عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يومًا بارزًا للناس، فأناه جبريل فقال:

يا رسول الله، متى الساعة؟

فقال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أسراطها.

إن لنهاية العالم - المعبر عنها بالساعة - أسراطًا - أى علامات تنذر بوقوعها، ولا ريب فى أنها - ينصر القرآن - تأتى بغتة، يقول تعالى: ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أسراطها﴾ (محمد آية: ١٨).

وهذه البغته إذن ليست مطلقة مادامت هناك أسراط تنذر بوقوع الساعة، ونبدأ فى بيان هذه الأسراط بما رواه البخارى رضى الله عنه قال:

بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى مجلس يحدث القوم جاءه أعرابى فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث. فقال بعض القوم: سمع ما قال، فكمه ما قال وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتى

إذا قضى حديثه، قال: 'يُسائل عن الساعة؟ قال ها أنا يا رسول الله.

قال عليه الصلاة والسلام: إذا ضُيِّت الأمانة فانتظر الساعة.

قال الأعرابي: كيف إصاعتها؟

قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة.

وتفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم للأمانة يتضمن معان كثيرة، فوضع الوديعة عند خائن توسيد للأمر إلى غير أهله، والوظيفة يليها من ليس أهلاً لها توسيد للأمر إلى غير أهله، والحكم في لقربة والمدينة يليه من ليس أهلاً له، توسيد للأمر إلى غير أهله، والمرأة تتخلى عن طبيعتها لتلبس طبيعة الرجل أو الرجل يتخلى عن طبيعته يلبس طبيعة المرأة توسيد للأمر إلى غير أهله.

كل هذا مناف للأمانة الفردية والأمانة الاجتماعية، ولقد ربط الإسلام برباط محكم بين الأمانة والإيمان فقال صلى الله عليه وسلم:

«لا إيمان لمن لا أمانة له (رواه أحمد وابن حبان والطبراني في الأوسط).

ومعنى ذلك أنه لا إيمان لمن أفسى سر صديقه، ولا إيمان لمن تجسس على الناس يتبع عوراتهم وزلاتهم، ولا إيمان لمغتتاب لأنه لا أمانة له، ولا إيمان لمرتشي لأنه لا أمانة له.

وإذا ما حدث كل هذه الانحرافات وشاعت، كان ذلك من علامات الساعة

وإذا كانت هذه العلامة، وهي تضييع الأمانة عامة شاملة، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فصل لأمر تفصيلاً في أحاديث عدة، ومن أطولها الحديث الشريف الذي روته كتب الصحاح، عن علي رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم.

العلامة الأولى فيه أنه.

«إذا كان المغنم دولاً، أي إذا كان مال الدولة يقوم دور آخرين، يستمتع به أفراد دون أفراد.

والعلامة الثانية: هي أن تكون: «الأمانة مغنياً» أي إذا عدها الذي وصفت عنده غنيمة يستبجحها ويتصرف فيها ويحونها.

والعلامة الثالثة، أن تكون «الزكاة معرماً» أي أن من تجب عليه الزكاة في ماله لا يعتبر إخراجها فضيلة دينية وخلقية، وإنما يعتبره غرامة فلا يخرجها.

والعلامة الرابعة، «أن يطيع الرجل زوجته ويعق أمه» أي يطيع روجه فيما تدبره لأمه من مكر ومن مكائد فيعق أمه التي حملته صابرة على المشقة ووصته صابرة على المسقة، وأرصعته وربته وحننت عليه وآثرته على نفسها.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « الجنة تحت أقدام الامهات ».  
رواه ابن ماجه والنسائي بنحوه.

يقول الله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ  
تَرْوُهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا،  
وَتُرَى النَّاسُ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج  
آية: ١، ٢).

ولقد ذكر الله سبحانه أحداث القيامة في كثير من سور القرآن: ففي  
سورة الرحمن يخبر سبحانه أن السماء ستتشق وتصبح في لون ابورد الأحمر  
وفي سيولة الزيت.

وفي سورة الانفطار يبين لله سبحانه أن السماء ستتشق، وأن الكواكب  
ستتثر متساقطة منهاوية زائلة، وأن البحار ستنفجر، وأن القبور ستبعر  
فيخرج ما فيها ومن فيها.

وتتحدث سورة التكوير عن زول اشمس عن ملكها، وعن الجبال  
يسيرها الله إلى مصيرها، وعن البحار سحر، أي تتفجر مشتعلة باللهب  
متأججة بانار.

والمعنى لعام من ذلك أن هذا النظام الذي قسره الله تقديرًا محكمًا في  
عاما هذا سيتغير ويتبدل في صورته رهيبه مهله، وينهى الأمر بأن يعب

الناس في المحشر من أجل الحساب.

ويتفاوت الناس في المحشر بحسب أعمالهم كما أحر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما رواه الإمام مسلم عن جابر رضي الله عنه .  
«يبعث كل عبد على ما مات عليه».

أى أن من ختم الله له بحسن الخاتمة فإنه يبعث على حال حسنة سارة أما من مات على السوء، فإنه يبعث في حالة سيئة.

عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم - فيما رواه الهزائ - قال .

«يبعث الله يوم القيامة ناساً في صور لمر يطوهم الناس بأقدامهم، فيقال: ما بال هؤلاء في صور الدر؟ فيقال: هؤلاء المكبرون في الدنيا».  
وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن حده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنم يقال له: بوس تعلوهم نار الأنبار يسقون من عصاه أهل النار طيبة الخبال (رواه ابن سنان) وائرمذى وقال حديث حسن».

ويقول الله سبحانه وتعالى مصوراً حالة طائفة أخرى من أصحاب المعاصي:



﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً﴾ (الفرقان آية: ٣٤).

وإذا كان هذا مصير الحبارين والذين اقترفوا الآثام، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين مصير سبعة أنواع من الناس في هذا اليوم فيقول - فيما روه الشيخان عن أبي هريرة رضى الله عنه -

«سبعة يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله. رجل قلبه معلق بالمساحد، ورجل دعه امرأة ذات منصب فقال: إني أخاف الله، ورجل تهربا إلى الله، ورجل غض عنه عن محارم الله، وعين حُرست في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله» رواه البيهقي في الأساء.

وقد يتساءل إنسان عن هذا اليوم. كم ساعة هو؟

وعن ذلك يروى الإمام أحمد عن أبي سعيد رضى الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«يومًا كان مقداره خمسين ألف سنة».

فقيس: ما أطول هذا اليوم!!

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

ولذى نفس بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاه مكتوبة (رواه أحمد، وأبو يعلى، وابن حبان في صحيحه).

\*\*\*

إننا لم ننته بعد من علامات الساعة وذلك أن العلامة العاشرة هي «لبس الحرير» والمرد بالحرير ما الحرير الطبيعي الخالص والمرد يلبسه للرجال.

والأديان على وجه العموم لا تحب للرجل أن يسير في حياته على سدة الترف المترف، وإنما تحب له الرجولة الكاملة التي من خصائصها ألا ينعمس في أدوات الزينة، وفي المظهر الشكلي.

وما من شك في أن الله جميل يحب الجمال وفي «الكتاب الكريم» يقول:

﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ (الأعراف ٣٢).

يقول: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ (الأعراف: ٣١).

ولكن ذلك كله شيء ولاعماس في الترف شيء آخر. ولقد حرم الإسلام لبس الحرير الطبيعي الخالص على الرجال، اللهم إلا لصروده، ولم يحرمه للنساء.

والعلامة الحادية عشرة هي «اتخاذ القينات والمعارف» أي إدا انك لدس على قينات اللهو وآلات الطرب، وهذا الحر لثير للغرائز الصارب عن العمل الجدى، وعن الاتزان الأخلاقى.

والعلامة الثانية عشرة: إذا لم يأت آخر هذه الأمة أولها، وأول هذه الأمة هو سلفها الصالح، إنه الجيل الذي حقق المثل العليا في الأخلاق العاضلة وفي البطولة الحققة، فإذا سخر به ساخر أو نهكم عليه متهم، أو لعنه لاعن، فذلك من أشراط الساعة.

وبعد أن ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه العلامات أنذر من تتحقق فيهم قائلاً

«فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء أو خسفاً أو مسخاً».

والخسف والمسخ قد يكون حريقاً فيكون تدمير مدينة أو تدمير شخص. وقد يتسع نطاقه فيكون تدمير عدة مدن، وقد يكون ذلك بفعل صواعق، وقد يكون بفعل الزلازل.

وعن عمرو بن حصين رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف».

فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله، ومتى ذلك؟

قال إذا ظهرت لقينات والمعازف وشرمت الخمور.

ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة الخسف والمسخ فسأله السيدة عائشة رضوان الله عليها قائلة:

يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون.

قال: نعم، إذا ظهر الخبيث.

ومن العلامات التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث آخر: أن يرفع العلم ويظهر الجهل.

والعلم المقصود هنا هو العلم بالله، أي العلم بالأساس الأول للعقيدة والأخلاق والخير والحق.

وإذا طغت الماديات على الاتجاه لروحي فأصبح صوت الدين خافتا وضعف الشعور الديني شيئا فشيئا حتى انتهى الأمر بالدين إلى أن أصبح غريبا، وانتهى الأمر بالمجتمعات إلى أن أصبحت مادية، فمن ذلك من أشراط الساعة ومعنى كل ذلك. أن السمة العامة في أشراط الساعة هي انتشار الفساد والبعد عن الله وعن الحق والخير والفصيله، ومن هنا كان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس».

إن مما روته كتب الصحاح أنه لا تقوم الساعة حتى تكثر الزلازل، ويتقرب البربر، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج وهو القتال.

ولجو لعام في الأحاديث التي تعبر عن أشراط الساعة هو أن المجتمعات الإنسانية سائرة على وجه العموم في طريق التحلل عن الدين، وإذا تحلل الإنسان عن الدين اتبع هواه، وانقاد لعرائزه فساد الشر وكثر

شقاء الإنسانية وعن ذلك يعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول:

« لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله. »

وهذه الحالة تأتي تدريجاً وذلك أن الصالحين يذهبون الأول، فالأول،  
وتبقى حثالة الشعير، أو التمر ولا يبال بهم الله بشيء، على حد تعبير رسول  
الله صلى الله عليه وسلم..

بل إن الله سبحانه وتعالى - على ما رواه الإمام مسلم - يبعث رجلاً من  
اليعرب ألين منحرير فلا تدع أحداً في قلبه مثقال حبة من إيمان  
إلا قبضته.

فإذا ما ارتفع لإيمان كانت الحنكة المحتومة بالنسبة للكون وهي التدمير  
المطلق أو بتعبير آخر: كان المصير هو يوم القيامة.

وبه لمن المعلوم من الجو الإسلامي أن الله سبحانه وتعالى يشقى  
لأفراد ويسعدها بنسبة إيمانها نقصاً وزيادة. هذه سنة سبحانه وتعالى في  
سلف ولن تجد لسنة الله تبديلاً

هذه الأحبار سمعتها السيدة عائشة رضوان الله عليها، فأنارت في  
نفسها سؤالاً وجهته لرسول الله صلى الله عليه وسلم روى الإمام مسلم أن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

« لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى »

فقالت عائشة: يا رسول الله، كنت أظن حين أنزل الله:

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله  
ولو كره المشركون﴾ أن ذلك تام - أي سيستمر زماناً ومكاناً  
إلى نهاية العالم.

فقال صلى الله عليه وسلم: إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث  
الله رجلاً طيبة فتوى كن من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من  
لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم.

ويصف رسول الله صلى الله عليه وسلم شفاء الإنسانية في آخر الزمان  
بسبب ضعف الإيمان شيئاً فشيئاً فيقول فيها رواه الشيخان:

«والذي نفسى بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل بالقبر فيتمرع  
عليه فيقول:

يا ليتني مكان صاحب هذا القبر، وليس به لدين، ما به إلا البلاء».

فانه لا يتأق - ونحن بصدد الحديث عن أسرار الساعة - أن نفعل  
الحديث الذي فيه بشرى للمسلمين.

فمن أبي هريرة رضى الله عنه - فيما رواه الإمام مسلم - أن رسول  
الله صلى الله عليه وسلم قال:

«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى

يحتسب اليهود من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبدالله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله».

وهذا الحديث حديث صحيح وبشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم لانسك فيها، وسستصر إن شاء الله الأمة لإسلامية بربانها وجهادها وثقتها في الله وإعزازها لدينه وتحقيق بذلك بشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان من المفروض أن تكتب عن رسول الله صلى الله عليه بعد أن كتبنا عن سيدنا عيسى، ولكنا كتبنا عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كتاباً بعنوان «الرسول صلى الله عليه وسلم لمحات من حياته وأضواء من هديه» وترجمنا كتاباً بعنوان: «محمد رسول الله».

وطبع كلاهما عدة مرات.

ومن أجل ذلك نتخطى الرمن فصل إلى النهاية، ثم إلى حافة الكتاب.

## خاتمة

لمعرفة نوعان:

معرفة مادية مثل قوانين الطبيعة والكيمياء والفلك

وهذا النوع من المعرفة من كسب الإنسان عن طريق العقل، وهو النوع الذى يعبر عن الحضارة فى شطرها المادى، ومعرفة تتأى عن استنتاج لعقل من نتائج وسائل المعرفة وهى، لملاحظة والتجربة والاستقراء.

وهذا لنوع هو مظهر الحضارة الحالية الغالب

أما النوع الثانى من المعرفة فإنه الخاص بالعقيدة، والأخلاق، والتشريع ونظام لمجتمع.

وهذا النوع هو من صنع الله سبحانه وتعالى يوحى به ويبينه على السنة رسله.

ورسالة الرسل عنهم الصلاة والسلام هى أن يبينوا عن الله المبادئ



لخاصة بالعقيدة والفوانين التي بها ينتظم المجتمع: أفرادًا وجماعات.  
وجاء هذا البيان منذ آدم عليه السلام.

وكانت دعوة آدم تتجه على الخصوص إلى أساسين من أسس المجتمع  
الصالح.

١ - أما أولها فهو عقيدة التوحيد، والحق أن هذه العقيدة هي عقيدة  
أرسل بها كل الرسل.

لقد تحدثوا جميعاً عن لتوحيد. توحيد الألوهية في الذات وتوحيدها في  
المعل.

﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً  
أحد﴾.

﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في  
السموات وما في الأرض، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم  
ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء،  
وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي  
العظيم﴾ (البقرة: ٢٥٥).

﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء،  
وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير﴾  
(آل عمران: ٢٦).

﴿إليه يرجع الأمر كله﴾ (هود: ١٢٣).

﴿لا إله إلا هو إليه المصير﴾ (غافر: ٢).

﴿أفرايتم ما تمنون، أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيهما لا تعلمون، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون \* أفرايتم ما تحرثون، أنتم تزرعونه أم نحن آزرعون، لو نشاء لجعلنا حطاباً فظلمت تفكهون، إن لغرمون، بل نحن محرومون \* أفرايتم الماء الذي تشربون، أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون \* أفرايتم النار التي تورون، أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون، نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين، فسيح باسم ربك العظيم﴾ (الراقة: ٥٨-٧٤)

﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه، أنا صببنا الماء صباً، ثم شققنا الأرض شقاً، فأبنتنا فيها حباً، وعباً وقصباً، وزيتوناً ونحلاً، وحدائق غلباً، وفاكهة وأباً متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ (عبس: ٢٤ - ٣٢).

التوحيد:

إنه دين الأنبياء جميعاً.

وادم باعتباره الأب للبشرية جميعاً، كان يبشر بالتوحيد، ويبشر بأمر آخر يستلزمه التوحيد هو أساس ثان من أسس المجتمع الصالح: ذلك هو

التوبة الصادقة، إنه الرجوع الفوري إلى الله في صدق حينما يحس الإنسان أنه انحرف عن الصراط المستقيم، إنه الإجابة إلى الله عند الحقوة. والمثل الكريم في ذلك هو آدم نفسه ابدى نادى في صدق:

﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾  
(الأعراف: ٢٣).

ويعضى الزمن بالإنسانية فتغفل نوعاً ما عن الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله عند الحقوة، فيرسل الله نوحاً عليه السلام ليصحح في المجتمع عقيدة التوحيد، ويحيى في المجتمع الشعور بالاستغفار، يقول سبحانه:

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين، ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ (هود: ٢٦ - ٢٧).

ويقول سبحانه على- لسان نوح عليه السلام:

﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً، يرسل السماء عليكم مدراراً، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾  
(نوح: ١٠ - ١٢).

وأخذ نوح يدعو ليلاً ونهاراً، سرّاً وعلاناً ثم..

﴿وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن

فلا تبتسج بما كانوا يفعلون، واصنع لفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني  
في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴿ (هود ٣٦ - ٣٧).

ولقد أرسل الله رسلاً يعالجون أمراضاً معينة في المجتمع، ومع معالجتهم  
هذه الأمراض كانوا يصححون التوحيد، أو قل إنهم يحاولون معالجتهم  
للمجتمع على أساس من تصحيح التوحيد؛ فلو ط عليه السلام كان يعالج  
في مجتمعه، لشدوذ الجنسي، يقول تعالى:

﴿ولوطاً إذ قال قومى أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من  
العالمين، إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم  
مسرفون وما كن جواب قومى إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم  
أناس يفتطهرون، فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين، وأمطرنا  
عليهم مطراً فانظر كيف كان عقبة المجرمين﴾ (الأعراف آية ٨١ - ٨٤).

﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً سىء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم  
عصيب. وجاءه قومى يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات،  
قل يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى،  
أليس منكم رجل رشيد؟ قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق،  
وإبك لتعلم ما نريد، قال لو أن لى بكم قوة أو أوى إلى ركن شديد،  
قالوا يا لوط إن رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من  
الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم، إن

موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب، فلما جاء أمرنا جعلنا عليها  
سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك،  
وما هي من الظالمين يبيد ﴿ (هود: ٧٧ - ٨٣).

وقال تعالى:

﴿فلما جاء آل لوط المرسلون، قال إنكم قوم منكرون، قالوا بل  
جنناك بما كانوا فيه يمترون، وأتيناك بالحق وإنا لصادقون، فأسر بأهلك  
بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث  
تؤمرون، وقضينا إليك ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين،  
وجاء أهل المدينة بسبشرون، قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون، واتقوا  
الله ولا تخزون، قالوا أو لم تنهك عن العالمين، قال هؤلاء بدقي إن كنتم  
فاعلين، لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون، فأخذتهم الصيحة مشرقين،  
فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل، إن في ذلك  
لآيات للمتوسمين، وإنها لبسبيل مقيم، إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾  
(الحجر: ٦١ - ٧٧).

وقال تعالى:

﴿كذب قوم لوط المرسلين، إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون، إنى  
لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر، إن  
أجرى إلا على رب العالمين، أتأتون الذكران من العالمين، وتذرون

ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون، قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين، قل إني لعملكم من القالين، رب سجنى وأهلى مما يعملون، فنجيناها وأهلها أجمعين، إلا عجورا فى العابرين، ثم دمرنا الآخرين، وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين إن فى ذلك لآية وما كن أكثرهم مؤمنين، وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿ ( لشعراء .  
١٦٠ - ١٧٥ ) .

ويقول سبحانه :

﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون، أنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون، فيما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون، فأنجيناه وأهلها إلا امرأته قدرناها من العابرين، وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ﴾ ( السمل ٥٤ ٥٨ )

وقال تعالى :

﴿ ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشه ما سبقكم بها من أحد من العالمين، أنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديتكم المنكر فيما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا يعذب الله إن كنت من الصادقين، قال ربى انصرنى على القوم المفسدين، ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين، قل إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لتنجينه وأهله

إلا امرأته كنت من الغابرين، ولما أن جاءت رسك لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين، إنا منزلون على أهل هذه القرية رجلاً من السماء بما كانوا يفسقون، ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴿العنكبوت: ٢٨-٣٥﴾.

ويونس عليه لسلام كان يجدد بعمله وقوله التسييح ﴿فلولا أنه كان من المسبحين، لبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ (الصافات: ١٤٤).

وشعيب عليه السلام، كان يعالج تطهير الكيل والميراث. يقول الله تعالى: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ (الأعراف: ٨٥).

ويقول تعالى: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط، ولا تبخسوا

الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين. بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين. وما أنا عليكم بحفيظ ﴿ (هود: ٨٤-٨٦)

ويقول سبحانه:

﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين، إذ قال لهم شعيب ألا تنهون، إنى لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما نسألكم عليه من أجر، إن أخرى إلا عى رب العالمين، أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في لأرض مفسدين وانقو الذى خلقكم والجيله الأولين ﴾ ( لشعراء ١٧٦-١٨٤)

وموسى عليه السلام كان يعالج قلوب بنى إسرائيل المتحجرة وإيمانهم لهش الذى استعصى عليه، وهم الذين وصل بهم لأمر أن قالوا:  
﴿ يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة قل : إنكم قوم تجهلون، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وبطل ما كانوا يعملون (الأعراف ١٣٨ - ١٣٩).

وعيسى عليه السلام حاول أن يبعث في قلوب اليهود الرحمة

أما محمد صلى الله عليه وسلم فكان يعالج المجتمع ككل

يعالج فيه العقيدة.

ويعالج فيه الأخلاق



ويعالج فيه التشريع.  
ويعالج نظام المجتمع  
ويدفعه إلى العلم.  
ومن أهداف رسالته أنه:

يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾  
(الجمعة آية: ٢)

ويعتق الله على أن بعث في العرب رسولا منهم:  
﴿لقد مر الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾ (آل عمران: ١٦٤).

ويقول سبحانه.

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء ١٠٧)

قد كان صلوات الله وسلامه عليه يعالج لمجتمع ككل، ويسوقه إلى  
حصارة يتكامل فيها:

لعلم والإيمان

حضارة علمية مؤسسة في أسسها، وفي سيرها، وفي أهدرها على الإيمان.

ومن هنا كانت رسالته الخالدة، وكان ختم الرسل

ولقد حفظ الله كتابه:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر آية: ٩).

وحفظ هذا الذكر دون تغيير أو تبديل، وضمان الله، أن لا يصيبه تغيير أو تبديل؛ معناه أن محمداً رسول خالد لأن الرسول: رسالة، وما دامت الرسالة قائمة كاملة، فإنها رسول قائم.

ونتفت الحاجة إذن إلى رسول جديد، وكما يقال من: قاديانية، ومن بهائية، ومن ريف كثير بدأ بمسيمة ومدعى النبوة من العرب المزيفين كل هذا وراء لا قيمة له، وقد أثبت الزمن، وما زال يثبت أن النبوة ختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وأخرج محمد صلى الله عليه وسلم المجتمع العراقي إلى واقع، إنه واقع استمر، وطبق محمد صلى الله عليه وسلم المبادئ لإلهية القرآنية في مجتمع فسدت فيه الفضيلة والقيم المثالية.

وليس هناك من عقبة حقيقية في سبيل إخراج هذا المجتمع من جديد؛ اللهم إلا النفوس والشهوات

ولقد ضمن الله سبحانه وتعالى السعادة والنصر والفور للمجتمع القرآني: المؤسس على الإيمان والعمل الصالح.

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلننجينه حياته طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (النحس: ٩٧).

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ (الأعراف: ٩٦).

﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا للصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور﴾ (الحج: ٤٠، ٤١)



لقد سافرنا في رحاب الكون الروحية مدة طويلة، سافرنا فيها زماناً مبتدئين من يوم «كان الله ولا شيء معه» وسافرنا في هذه الرحاب مكاناً متنقلين مع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من إقليم إلى إقليم.

وكما أن أرجاء الكون تمتلئ بالظواهر المادية، فإنها أيضاً مليئة بالظواهر الروحية، وكما أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون مادياً فأبدع خلقه وتكوينه ورسم قوايينه ومظاهره في احكام واتقان، فإنه سبحانه عني بالكون روحياً ورعاه في زواياه الأخلاقية والعقيدية، فأرسل إليه الرسل والأنبياء مدرين ومبشرين وقد آن لهذه الرحلة أن تنتهى، وأن نتحدث عن المعجزة الكبرى وهي القرآن الكريم لجعلها بوفيق الله مسك الختام.

يروى قتادة رضى الله عنه، وهو من خيار التابعين، أن موسى عليه السلام قال:

يا رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرأونها وكان من قبهم يقرأون كتبهم نظراً حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه، وأن الله أعطاهم من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم، قال موسى عليه السلام: رب جعلهم أمتي قال الله تعالى: تلك أمة أحمد.

ومما تعنيه كلمة سيدنا موسى عليه السلام أن ما يميز الأمة الإسلامية عن غيرها من أهل الديانات الأخرى أنها تحفظ كتابها، وهو القرآن الكريم عن ظهر قلب، وهذه الميزة حقيقة واقعة، وذلك أن حفظ القرآن شائع في مختلف الأقطار والجزائيات الإسلامية.

وقد بدأ الصحابة رضوان الله عليهم بحفظ القرآن مع العمل به، لقد كانوا يحفظونه ويطبفونه في الأخلاق، وفي التشريع، وفي العقيدة، لقد حكم حياتهم فيها، فاستناروا في طريقهم به، وهدتوا في حياتهم بهديه.

أما السبب في اهتمامهم به على هذه الصورة فلأنه كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً:

عليكم بكتاب الله، فيه نأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من حبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، هو

الذى لا تزيف به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به أفلح، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.

ولقد كان من رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أن رسم لهم في القرآن طريق السعادة في دنياهم وفي آخراهم، وهو طريق لا استحالة فيه ولا مشقة، وقد جربه الكثيرون ففازوا بالسعادتين.

لقد استراحوا في هذه الحياة الدنيا؛ لقد غمرهم الرضى، وأحاط بهم الاطمئنان ولفتهم أودية السعادة.

ولقد ضمن الله لهم حياة هنيئة في الآخرة، يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل إلا ظله، ويكفل لهم عدم الحزى حين يقرر الحزى كثيراً من الخلائق، ويدخلهم الجنة برحمته، ويربهم وجهه الكريم تفضلاً منه سبحانه، هذه السعادة في الدنيا والآخرة وعد الله بتحقيقها لكل من توافر فيه شرطان:

الأول: الإيمان.

الثاني: العمل الصالح.

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلننجيئته حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾.

ونسأل الله سبحانه التوفيق والهداية، ونرجوه السعادة والرشاد. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

## محتويات الكتاب

### صفحة

٣	..... مقدمة
٧	..... ما قبل الإنسان
٤١	..... الإيمان بالملائكة
٤٦	..... آدم عليه السلام
٧٥	..... نوح عليه السلام
١٠٨	..... هود عليه السلام
١١١	..... صالح عليه السلام
١١٦	..... إبراهيم عليه السلام
١٩٣	..... لوط عليه السلام
١٩٦	..... إسماعيل عليه السلام
١٩٩	..... شعيب عليه السلام
٢٠٦	..... أيوب عليه السلام
٢١٥	..... يونس عليه السلام
٢٢٤	..... موسى عليه السلام
٢٩٦	..... بقرة بني إسرائيل

صفحة

٢٩٩ .....	موسى عليه السلام يطلب العلم
٣٠٤ .....	داود عليه السلام
٣١٩ .....	سليمان عليه السلام
٣٢٩ .....	سليمان والعلم
٣٤٥ .....	زكريا عليه السلام
٣٥١ .....	يحيى عليه السلام
٣٥٦ .....	عيسى عليه السلام
٣٦٩ .....	النهاية
٣٨٥ .....	خاتمة
٣٩٩ .....	محتويات الكتاب

١٩٩٩/١٦٥٣	رقم الإيداع
ISBN 977-02-5726-5	الترقيم الدولي

١/٩٨/١٢٤

طبع بمطابع دار المعارف ( ج . م . ع . )



يُعدُّ الإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود صاحب ورائد مدرسة الفكر الإسلامي والتصوف في العصر الحديث ، ولقب بأبي التصوف في العصر الراهن ، فقد أثرى المكتبة العربية بأبحاث الكتب بين تحقيق وتأليف وترجمة ، فمنها دراساته القيمة عن الإمام الغزالي وكتابه « المنقذ من الضلال » ، و « دلائل النبوة » ، و « القرآن في شهر القرآن » إلى جانب ما كتبه عن رواد التصوف على مر العصور الإسلامية المختلفة .

والإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود له عمق وغزارة الآراء الفقهية ودقة الاجتهادات مما جعله يكسب صفوف المعارضين قبل المؤيدين ، إلى جانب اللباقة والدراية الكاملة في عرض أى موضوع أو مسألة تتعلق بأمر الدين ، وأيضا يمتاز بقوة ورصانة الأسلوب والعبارة ، مما يدل على المهارة الفائقة والملكة اللغوية فلهذا اكتسب هذا العالم الجليل احترام كل الفرق والمذاهب الإسلامية في شتى بقاع العالم ، وسيبقى هذا العالم ونراثه في قلوبنا على مر العصور .

تقديم : محمد أبو طالب

دار المعارف

١٨٨٩٦/٠١

